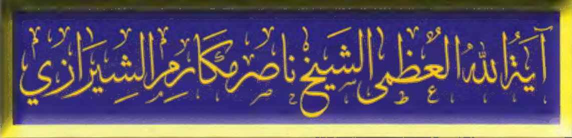
سلسلة

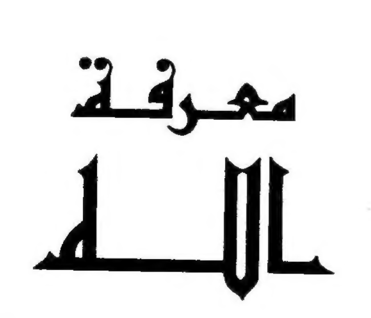
أصول الدين










معرفة
الله



سلسلة أصول الدين

١



تأليف

ناصر مكارم الشيرازي

ترجمة

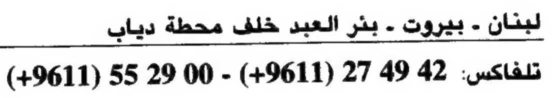
جعفر صادق الخليلي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م





لبنان - بيروت - بئر العبد خلف محطة دياب

تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+)

ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com

المقدمة

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان عموماً يؤمن بما تهواه نفسه وتميل إليه حسب فطرته من الأصول والعقائد التي يعتنقها ويلتزم بها .

ومما لا شكَّ فيه أن المسلم خصوصاً الذي يؤمن بالإسلام ديناً بحسب فطرته يؤمن بأصول عقائد الدين الإسلامي .

ولكنه بالرغم من تمسكه وإيمانه بأصول الدين إلا أنه قد تواجهه الكثير من المشاكل إذا ما جوبه ببعض الشكوك والشبهات التي قد تؤدي الى زعزعة إيمانه وتمسكه بهذه العقائد ، لعدم فهمه واستيعابه لها فهماً عميقاً وبالاستدلال والإثبات المنطقي .

لذا فإن هذا الكتاب من نفحات آية الله ناصر مكارم الشيرازي يمتاز بكونه يمنح الإنسان المسلم تلك القوة التي ترسخ بذاته إيمانه وتمسكه بأصول الدين وعقائد الإسلام . ويمتاز الكتاب أيضاً ببساطته وسلاسته التي

تجعل منه كتاباً في متناول عامة الناس وخاصتهم .

نسأل المولى العليّ القدير التوفيق والسداد لما فيه الخير والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر

الدرس الأول



البحث عن الله

لماذا نبحث ونفكر لمعرفة خالق الكون ؟

معرفة الله

١ ـ حب الاستطلاع والتعرف على عالم الوجود كامن في أعماقنا كلنا .

اننا نريد ان نعرف حقاً : هل هذه السماء الرفيعة بنجومها الجميلة ، وهل هذه الارض المنبسطة بمناظرها الأخاذة ، وهل هذه الكائنات المتنوعة ، والطيور الجميلة ، والاسماك الملونة في البحار ، والزهور ، والبراعم والنباتات ، وأنواع الأشجار السامقة ، هل هي كلها قد وجدت في هذا الكون لوحدها ، أم هذه الصور العجيبة قد رسمت بيد ماهرة قادرة صانعة ؟

ثم اننا اذا تجاوزنا ذلك كله ، فإن الأسئلة الاولى التي تراود خواطرنا في الحياة هي : من أين جئنا ؟ أين نحن ؟ وإلى أين نحن سائرون ؟

ما أعظم سعادتنا لو أننا عرفنا الإجابة على هذه الأسئلة : أي أن نعرف كيف بدأت حياتنا ؟ إلى أين سيكون مصيرنا في النهاية ؟ ما الذي ينبغي علينا ان نفعله الآن ؟

ان روح حب الاستطلاع فينا تفرض علينا ان لا نجلس دون حراك حتى نعثر على أجوبة هذه الاسئلة .

قد يتفق ان يصاب أحدهم في حادث سيّارة ويغمى عليه ، فيؤخذ إلى المستشفى لمعالجته ، وعندما يفيق من اغماءته ويتحسن حاله ، يكون أول سؤال يطرحه على من حوله هو : أين أنا ؟ لماذا جيء بي إلى هنا ؟ متى أخرج ؟ وهذا يعني ان الانسان لا يستطيع ان يلزم السكوت نحو امثال هذه الاسئلة .

وعليه ، فإن أول ما يحملنا على البحث عن الله ومعرفة خالق عالم الوجود هو روح حب الاستطلاع المتعطشة فينا .

٢ ـ عرفان الجميل : لنفرض أنك قد دعيت إلى وليمة فخمة ، هيأوا لك فيها كل أسباب الضيافة الكريمة والترحيب بك وراحتك ، ولكن بما أنك قد حضرت الوليمة بصحبة أخيك الأكبر الذي دعاك إليها ، فانك لا تعرف مضيفك حق المعرفة ، لذلك فأنت عندما تجد كل هذه الحفاوة والتكريم من صاحب البيت ، يكون جل همك ان تتعرف عليه لكي تقدم له ما يستحقه من آيات الشكر اعترافاً بجميله .

كذلك هي حالنا عندما ننظر إلى مائدة الخلق الواسعة حيث نجد عليها مختلف أصناف النعم وقد وضعت تحت تصرفنا : عيون ناظرة ، وآذان سامعة ، وعقول ذكية ، وقوى جسمانية ونفسانية متنوعة ، ومختلف سبل العيش ، ورزق طيب وطاهر ، كلها قد عرضت على هذه المائدة الفسيحة الشاسعة ، فيتجه فكرنا ، دون اختيار ، إلى ضرورة معرفة واهب كل هذه النعم ، لكي نقدم له فروض الشكر ، وان لم يكن بحاجة إلى شيء من شكرنا ، ونحن ما لم نفعل ذلك نظل نحس بالقلق وباننا نفتقر إلى شيء ما ، وهذا محفز آخر يدفعنا للبحث عن الله ومعرفته .

٣ ـ حساب الربح والخسارة في هذا البحث : افرض أنك في سفرك قد بلغت مفرق طرق أربعة حيث تسمع الناس يتنادون ان : لا تمكثوا في هذا المكان ، ففيه أخطار كبيرة ، إلا ان كل فريق يدعوك إلى سلوك أحد تلك الطرق ، فهذا يقول : أفضل الطرق هذا الذي يتجه إلى الشرق ، ويقول فريق آخر : بل الطريق المؤدي إلى الغرب اكثر اطمئناناً ، وفريق ثالث يدعوك إلى طريق وسط بين الطريقين ، قائلاً أنه الطريق الوحيد الذي ينجيك من المخاطر ويوصلك إلى حيث الأمن والأمان وكل أنواع السعادة .

فهل يجوز لنا ان نسلك أحد تلك السبل دون تمعّن أو دراسة ؟ أم هل يرتضي لنا العقل ان نمكث هناك دون ان نختار واحداً من تلك الطرق ؟ طبعاً لا .

ان العقل ينصحنا بان نبادر فوراً إلى دراسة الوضع وتمحيص أقوال كل فريق بدقة ، فاذا وجدنا في أقوال أحد الافرقة دلائل من الصدق

والصحة مقنعة أخذنا بها واتبعنا الطريق الذي يدعو إليه ذلك الفريق بكل اطمئنان وثقة .

هكـذا هي حالنـا في هذه الـدنيا ، حيث نجـد مختلف المـذاهب والاتجاهات ، يدعونا كل منها إليه ، ولكن لما كانت سعادتنا وتعـاستنا ، وتقدمنا وتأخرنا ، منوطة بدراسة هذه الاتجاهات واختيار أفضلها ، فاننا لا نجد بداً من ان نفكر في الأمر ، لكي نختـار الطريق الـذي يؤدي بنا إلى التقدم والتكامل ، ونتجنب الطريق الذي يوصلنا إلى منزلق التعاسة والفساد والشقاء .

وهذا دافع آخر يدفعنا لإمعان الفكر في خالق عالم الوجـود ، يقول القـرآن الكـريم : ﴿ **فبشـر عبـاد الـذين يستمعـون القـول فيتبعـون أحسنه** ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الزمر ، الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

فكـر وأجب

١ ـ هل سبق لك ان فكرت بجد في الله ومعرفته ، غير ما سمعته من والديك ؟

٢ ـ أتستطيع ان تذكر الفـرق بين البحث عن الله ومعرفـة الله ؟

٣ ـ هل شعرت بنوع من اللذة الروحية العميقة وأنت تدعو الله وتناجيه ؟

الدرس الثاني

معرفة الله في حياتنا

١ ـ معرفة الله وتقدم العلوم

لنفرض ان صديقاً قدم عليك من سفر وجلب لك معه كتاباً هدية ، وقال لك أنه كتاب ثمين لأن مؤلفـه من كبار العلمـاء ، واسع الاطـلاع ، ضليع في موضوعه ويعتبر استاذاً نابغة .

وبناء على ذلك فانك لا تقـرأ الكتاب قـراءة عابـرة ، بل بـالعكس تحاول ان تكون دقيقاً في قراءتك جمل الكتاب وتعبيراته وحتى كلماتـه ، واذا لم تفهم عبـارة من عباراتـه فانـك تقضي الساعـات ، وربمـا الأيـام المتوالية ، تعود إلى تلك العبارة كلما واتتك الفرصة لعلك تدرك معناها ، وذلك لأنك تعرف ان المؤلف ليس شخصاً عـادياً ، بـل هو عـالم كبير لا يكتب كلمة إلّا بحساب .

ولكن إذا كانوا ، على العكس من ذلك ، قالوا لك ان الكتاب وان

يكن جميل المظهر ، فان مؤلفه رجل قليل المعرفة ، ضعيف العلمية ولا يعتمد على أقواله ، لا شك أنك عندئذ قد لا تلقي على الكتاب سوى نظرة عابرة ، واذا طالعتك جملة غير مفهومة قلت : هذا دليل جهل المؤلف ، وان الكتاب لا يستحق الوقت الذي يقضيه المرء في مطالعته .

عالم الوجود هذا اشبه بكتاب ضخم ، كل كائن فيه يمثل كلمة أو جملة فيه ، فمن حيث وجهة نظر الانسان المؤمن بالله ، تعتبر كل ذرة في هذا الكون جديرة بالدرس ، ان المؤمن ، وهو في فيض نور عبادة الله ، يباشر بدراسة اسرار الخليقة بكل دقة وتفحص (وهذا ما يساعد على تقدم العلوم الانسانية) ، وذلك لأنه يعلم ان خالق هذه الاجهزة والنظم لا يدانيه أحد في علمه وقدرته ، وان لكل عمل من أعماله حكمة وفلسفة ، لذلك فإنه يكون أدق في درسه وأعمق في بحثه ليكون أفضل في درك اسرارها .

أما الانسان المادي فلا يملك دافعاً يدفعه لدراسة اسرار الخليقة لأنه يعتبر خالقها هو الطبيعة العمياء ، أما العلماء الماديون الذين نرى بعضهم في صفوف المخترعين ومكتشفي العلوم فانهم غالباً ما يعترفون بوجود الله ، وان اطلقوا عليه اسم «الطبيعة» التي يرون في عملها «نظاماً» و«حساباً» و«تخطيطاً» .

اذن ، عبادة الله وسيلة من وسائل تقدم العلوم .

٢ ـ معرفة الله والسعي والأمل :

عندما تظهر الحوادث الصعبة والمعقدة في حياة الانسان ، وتبدو الابواب وكأنها قد أغلقت في وجهه من جميع الجوانب ويحس بضعفه

ووحدته في مواجهة المشكلات ، يسرع إيمانه بالله إلى عونه ويرفع من قوته المعنوية .

ان المؤمنين بالله لا يرون انفسهم وحيدين وضعفاء ، ولا ينتابهم اليأس ، ذلك لأنهم يؤمنون بان قدرة الله اكبر من كل مشكلة ، وان كل شيء عنده سهل يسير .

انهم يتدرعون بلطف الله وحمايته وعونه ، وينهضون لمقارعة الخطوب والصعاب ، مستفيدين من كل قواهم ، يدفعهم حب الله والأمل إلى الاستمرار في بذل المساعي ، ويتغلبون على الصعاب والمشاكل .

أجل ، فالايمان بالله سند عظيم للإنسان .

الايمان بالله مدعاة للثبات والشجاعة .

الايمان بالله يحيي في القلوب نور الأمل دائماً .

ولهذا لن يرتكب المؤمن جريمة الانتحار ، لان الاقدام على قتل النفس إنما هو دليل على اليأس والقنوط النابعين من الاحساس بالهزيمة ، المؤمن لا ييأس ولا ينهزم .

٣ ـ معرفة الله والشعور بالمسؤولية

ثمة اطباء إذا راجعهم مرضى فقراء فانهم فضلاً عن عدم مطالبتهم إياهم باجرة التطبيب ، يعطونهم ثمن الدواء أيضاً ، بل أنهم ان احسوا بان مريضهم في حالة خطرة قضوا الليل ساهرين إلى جانبه في بيته المتواضع ، هؤلاء اناس يخشون الله ويؤمنون به .

غير ان هناك اطباء آخرين لا يمكن ان يتقدموا خطوة واحدة لمساعدة مريض قبل ان يتقاضوا أجرهم ، وذلك لان ايمانهم ضعيف .

ان الانسـان المؤمن مهما تكن حـرفته يكن شـاعـراً بـالمسؤوليـة ، ويعرف واجبه ، يعمل الصالح ويكون متسامحاً ، يحس دائماً ان هناك في داخله شرطياً يراقب اعماله .

أمـا الانسان غيـر المؤمن فانـه شخص أناني ، عنيـد ، خـطر ، لا يتحمل أية مسؤولية ، ولا يرى غضاضة في ظلم الآخـرين والاعتداء على حقوقهم ، وقلما يقوم بأعمال صالحة .

٤ ـ معرفة الله والاطمئنان

يقول علماء النفس ان الامراض النفسية منتشرة في أيامنا هذه اكثـر مما كانت في السابق .

ويقولون ان احد عوامل هذه الامراض هو القلق ـ القلق من حوادث المستقبـل ، القلق من المـوت ، القلق من الحـرب ، القلق من الفقـر ، والقلق من الاخفاق .

يضيف هؤلاء إلى ذلك قولهم : ان مما يساعد على إزالة القلق من روح الانسان هو الإيمـان بالله ، فكلمـا سعت عوامـل القلق للتطرق إلى نفس المؤمن أبعدها الايمان بالله عنه ـ ذلك الله الرحيم ، الرزاق ، العالم باحوال عباده ، الذي يعينهم كلما اتجهوا إليـه في طلب العون ، ويـزيح عنهم دواعي القلق والخوف .

ولهذا نجد المؤمن الحق مطمئن النفس ، لا مكان للقلق في نفسه ، وبما ان المؤمن يعمل في سبيل الله ، فانه ان واجه ضرراً يتوجه إلى الله يطلب منه دفع الضرر ، وهو لا تفارق الابتسامة شفتيه حتى في ساحة الوغى .

قال الله في كتابه الكريم : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن** ﴾[1] .

فكر وأجب

١ ـ أتعرف حكاية من تاريخ الماضين تبين مظاهر الايمان وآثاره التي ذكرناها ؟

٢ ـ أتعلم لماذا نجد اشخاصاً يزعمون أنهم يؤمنون بالله ، ومع ذلك نراهم بعيدين عن الاخلاق الحسنة ، ولا نرى فيهم أياً من الآثار الاربعة المذكورة ؟

---

(١) سورة الانعام ، الآية : ٨٢ .

الدرس الثالث

معرفة الله بطريقين مؤكدين

لقـد كتبت كتب كثيرة منـذ أقدم الازمنـة حتى اليوم وجـرت بحوث ومساجلات عديدة بين العلماء والمفكرين حول معرفة الله .

كل فريق من هؤلاء اختار للوصول إلى هذه الحقيقة طريقاً خاصاً غير ان افضل الطرق وأسرعها في إيصالنا إلى مبدأ عالم الوجود طريقان اثنان :

أ ـ طريق من الداخل (أقرب الطرق) .

ب ـ طريق من الخارج (أوضح الطرق) .

نبدأ أولاً بالمرور في أعماقنا لكي نسمع نداء التوحيد من داخلنا وفي المرحلة التالية نسيح في عالم الخليقة الشاسع لنطالع آيات الله في سيماء كل الموجودات وفي قلب كل الـذرات ، ان في كل من هـذين الطريقين بحوثاً مسهبة ، الا اننا سوف نسعى في مقالة موجزة إلى ان نبحث كلاً من هذين الطريقين بحثاً مجملاً .

طريق من الداخل :

دعونا نفكر في المواضيع التالية :

١ - يقول العلماء : ان أي شخص ، مهما يكن عنصره وطبقته ، إذا ترك وشأنه ، دون تعليم أو إرشاد ، ودون ان يسمع آراء كل المؤمنين والملحدين ، فانه بذاته يتجه نحو قوة قادرة قاهرة ترتفع فوق المادة وتحكم الكون بأسره .

ان هذا الانسان يحس ان في اعماق قلبه وزوايا نفسه نداءً لطيفاً مفعماً بالمحبة والرحمة ، ولكنه في الوقت نفسه مكين وثابت ، يدعوه إلى المبدأ العظيم والقادر العليم الذي ندعوه : الله .

ذلك هو نداء الفطرة الطاهرة!

٢ - ولكن قد ينجرف هذا الشخص مع التيار المادي وحركة الحياة اليومية الزاخرة بالبهرجة والزينة ، فينشغل بها مؤقتاً عن سماع ذلك النداء ، ولكنه عندما يجد نفسه تواجه الشدائد والمشكلات والمحن ، وعندما تهاجمه الحوادث الطبيعية المرعبة ، كالسيول والزلازل والفيضانات ولحظات القلق في طائرة تتلاعب بها العواصف نعم ، عندما تقصر يده عن الوصول إلى عون مادي ولا يجد ملجأ يلوذ به ، يقوى هذا النداء في داخله ويحس ان في كيانه قوة تجتذبه نحوها ، قوة هي فوق كل القوى ، وقدرة غامضة يسهل عليها حل جميع المشكلات بيسر وبساطة .

قليل جداً من الناس من لا يتجه هذا الاتجاه عند مواجهة الازمات والشدائد ، ولا يتذكر الله دون اختيار هذا الامر هو الذي يدلنا على مدى

قربنا منه ومدى قربه منا ، بل أنه في أرواحنا وضمائرنا .

ان نداء الفطرة موجود دائماً في وجدان الانسان ، ولكنه يقوى في هذه اللحظات .

* * *

٣ ـ يكشف لنا التاريخ ان رجالاً من ذوي السلطة والمقدرة كانوا في الأوقات العادية يأنفون حتى من ذكر اسم الله ، ولكنهم إذا ما أحسوا بان قواعد سلطتهم أخذت تهوي ، وان قصور وجودهم بدأت تنهار ، راحوا يمدون يد التوسل إلى هذا المبدأ العظيم ، لان نداء الفطرة عاد يرن في اسماعهم بجلاء من جديد .

يقول التاريخ : عندما شاهد فرعون نفسه أنه يكاد يغرق في الأمواج المتلاطمة ، وان هذا الماء الذي كان سبب احياء بلاده وأساس قوته المادية ، قد أصدر الآن حكم الموت عليه ، وأنه عاجز حتى عن دفع أمواج هذا الماء ، وان يده قاصرة عن ان تنفعه في شيء ، أخذ يصرخ عالياً : الآن اعترف ان ليس ثمة معبود سوى إله موسى العظيم لقد صدرت هذه الصرخة في الحقيقة ، من فطرته الباطنية ، ولا يقتصر هذا على فرعون فكل من يمر بظروف مماثلة يسمع هذا النداء نفسه .

* * *

٤ ـ أنت نفسك اذا رجعت إلى اعماق نفسك وجدت ان هناك نوراً يتلألأ في باطنك ويدعوك إلى الله ، ولعلك قد صادفت في حياتك بعض الازمات الشديدة والطرق المسدودة بحيث أنك يئست من العثور على

الحل والعلاج ، لا شك أنك في مثل تلك الحالات قد خطِرت لك حقيقة وجود قوة قادرة في عالم الوجود تستطيع ان تحل مشكلتك بكل سهولة .

في تلك اللحظات تشعر انك قد احتـواك أمل يمـازجه في داخلك حب ذلك المبدأ العظيم ، وان ذلك الأمل قد ازاح عن قلبـك كل سحب اليأس السود القاتمة .

نعم ، هذا هو أقصر الطرق التي تبدأ من داخل المرء للوصول إلى الله ، بارىء عالم الوجود القدير .

سؤال واحد :

قد يخطر لاحدكم ان يسأل نفسه هذا السؤال : ألا يحتمل ان يكون لما تلقيته من المحيط ومن والدي أثر في ان اتوجه هذا الاتجاه في الظروف العصيبة ، فأرفع يدي إلى الله اطلب عونه ؟

ان لك الحق في ان يخطر لك هذا السؤال ، ولدينا الجواب المقنع الذي سنورده في الدرس التالي .

يقـول الله في كتابـه الكـريم : **﴿ فـإذا ركبـوا في الفلك دعـوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾**[١] .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية: ٦٥ .

فكر وأجب

١ ـ حاول ان تحفظ هذه الآية المذكورة في اعلاه برقمها وسورتها وتفسيرها لكي تتعرف على لغة القرآن تدريجياً .

٢ ـ هل اتفق لك ان واجهت حادثا معقداً صعباً بحيث انك لم تجد حولك من تستعين به سوى الأمل في لطف الله تعالى ؟ اشرح ذلك في مقالة أو في خطاب قصير .

٣ ـ لماذا نعتبر هذا اقصر الطرق ؟

الدرس الرابع



جواب سؤال مهم

السؤال :

ادركنا في الدرس السابق أننا نسمع نداء التوحيد وعبادة الله دائماً من داخلنا ، وان هذا النداء يقوى ويشتد عند مواجهة المشكلات والصعاب ، واننا عندئذ نتذكر الله دون اختيار ونستعين بلطفه ومحبته اللانهائيين .

هنا قد يسأل سائل ان هذا الاحساس الداخلي الذي نصفه بأنه فطري ، ألا يحتمل ان يكون نتيجة لما يوحيه الينا المحيط الاجتماعي وما نتلقاه في المدرسة من المعلمين وفي البيت من الابوين فاصبح امره عادة مألوفة ؟

الجواب :

جواب هذا السؤال يتبين بوضوح بالانتباه إلى مقدمة قصيرة ، ان العادات والرسوم أمور طارئة متغيرة وغير ثابتة ، أي إننا لا يمكن أن نعثر

على عادة من العادات ظلت سارية بين البشر على امتداد التاريخ ، ان العادة السائدة اليوم قد تتغير غداً ، كما ان عادات قوم ورسومهم قد لا تكون كذلك بين أقوام آخرين .

وبناءً على ذلك ، اذا رأينا امراً موجوداً عند كل الاقوام والملل وفي كل عصر وزمان ، بدون استثناء ، ادركنا أنه لا بد ان تكون له جذور فطرية وأنه داخل ضمن تكوين الانسان ونسيجه .

من ذلك مثلاً تعلق الام بوليدها ، فهذا لا يمكن ان يكون نتيجة الايحاء أو التلقين ، ولا كونه عادة من العادات ، ذلك لاننا لا يمكن ان نعثر بين قوم من الاقوام ولا ملة من الملل ، ولا في أي عصر أو زمان ، على أم تجفو وليدها ولا تحبه .

بديهي ان هناك استثناءات شاذة نجد فيها اماً تقضي على وليدها بسبب بعض الامراض النفسانية ، أو ان نرى أباً من العصر الجاهلي يئد ابنته متأثراً بمعتقدات خرافية غلط ، ولكن هذه حالات نادرة سريعة الزوال ، انقرضت من بين الناس وعادت الحالة إلى وضعها الطبيعي من حب الابوين لاطفالهما .

* * *

بعد هذه المقدمة سنلقي نظرة على قضية عبادة الله بين اناس هذا العصر واناس الماضي :

(بالنظر لكون هذا الدرس على شيء من التعقيد فيرجى ملاحظة ذلك) .

١ ـ يؤكد علماء علم الاجتماع والمؤرخون المشهورون أنه ما من زمان مرّ بالبشر دون ان يسودهم ضرب من الدين أو الايمان بشيء ، فقد كان الدين موجوداً في كل عصر وزمان ، وهذا دليل بيّن على ان عبادة الله تنبع من فطرة الانسان وضميره ، لا دخل للتلقين والرسوم والعادات فيها ، اذ لو كان لها أي أثر في إيجاد الدين لما كان عاماً ولا خالداً .

هنالك قرائن تدل على ان انسان ما قبل التاريخ كان يدين بنوع من الدين (عصور ما قبل التاريخ تطلق على الازمنة التي مرت على الانسان قبل اختراع الكتابة ، يوم لم يستطع ان يترك وراءه كتابات تدل عليه) .

بديهي ان الانسان القديم البدائي لم يكن قادراً على تصور الله وجوداً فوق الطبيعة ، لذلك كان يبحث عنه بين الكائنات الطبيعية ، وراح يصطنع لنفسه آلهة أصناماً من بين الكائنات الطبيعية ، ولكن الانسان بتقدمه الفكري استطاع بالتدريج ان يعثر على الحق وان يشيح بوجهه عن الاصنام وهي اشياء مادية ، ليتوجه إلى ما وراء هذا العالم المادي ويتعرف على قدرة الله العظيمة .

* * *

٢ ـ يصرح بعض علماء النفس بان لروح الانسان أبعاداً اربعة أو احاسيس أربعة :

أ ـ حس المعرفة : وهو الذي يحث الانسان على طلب العلم ويثير في النفس التعطش إلى التعلم ، سواء أكان ذلك ذا نفع مادي له أم لم يكن .

ب ـ حس الصلاح : وهو مصـدر الاخلاق الانسـانية الصـالحة في البشر .

ج ـ حس الجمال : وهو منشأ ظهور الشعر والادب والفن بمعانيهـا الحقيقية .

د ـ الحس الديني : وهو الذي يدعو الانسان إلى معرفة الله وإطاعة أوامره ، وعلى هذا فان الحس الديني ذو جذور أصيلة في الانسان ، أي إنه لم يفارقه لحظة ولن يفارقه ابداً .

* * *

٣ ـ سوف نلاحظ في البحوث القادمة ان معظم الماديين والملحدين يعترفون بشكل ما بوجود الله ، على الرغم من أنهم يمتنعون عن ذكر اسمه الصريح ، وإنمـا يطلقـون عليه اسم الـطبيعة أو أسمـاء اخرى ، ولكنهم يعزون إلى الطبيعة صفات اشبه بصفات الله تعالى .

يقولون مثلاً : اذا كانت الطبيعة قد وهبت الانسان كليتين فذلك لأنها تعلم احتمـال اصـابـة التلف احـدهمـا ، فتقـوم الاخـرى بـأداء وظيفتهـا الحياتية ، وما إلى ذلك من الاقوال ، فهل ينسجم هـذا القول مـع طبيعة عمياء ، أم أنه ينسجم مع إله يتصف بعلم لا نهاية له ، وان اطلقوا عليـه اسم الطبيعة ؟

* * *

نستنتج مما مر بنا في هذا البحث الامور التالية :

حب الله كان فينا دائماً وسيكون فينا دائماً أيضاً .

الايمان بالله شعلة خالدة تدفىء قلب الانسان وروحه .

لكي نعرف الله لسنا مضطرين للسير مسافات طويلة ، بل علينا ان ننظر في اعماقنا لنجد الايمان به هناك .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[1] .

* * *

فكر وأجب

١ ـ هات أمثلة على العادات ، وأمثلة على الفطرة .

٢ ـ لماذا كان الجهلاء يعبدون الاصنام ؟

٣ ـ لماذا يطلق الماديون اسم «الطبيعة» على الله ؟

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٦ .



الدرس الخامس



قصة واقعية

قلنـا ان الذين ينكـرون الله بـألسنتهم ، إنمـا هم يؤمنـون بـالله في اعماقهم ، لا شك ان نجاحات الانسان وانتصاراته تثير في نفسه الغرور ، وخـاصة اذا كـان هذا الانسـان ضيق الافق ، وهذا الغـرور يؤدي بـه إلى النسيان ، بحيث أنه احياناً ينسى حتى نظرياته ، ولكن عندما تتوالى عليه ضـربات الحـوادث في الحياة ، وتعصف بـه ريـاح المشكـلات من كـل جانب ، تنزاح عن عينيه استار الغرور ، وتظهر فيه فطرة التوحيد .

ان في التاريخ نماذج كثيرة لمثل هذا الانسـان ، وفيما يلي نمـوذج لواحد من هؤلاء :

كان هناك وزير قدير واسع السلطة ، امسك بيديه كل أزمة القدرة ، ولم يكن هناك من يستطيع معارضته .

دخـل هذا الـوزير يـومـاً إلى مجلس ضم جمعـاً من رجـال الـدين

العلمـاء ، فالتفت إليهم وقـال بشيء كثير من الغـرور : إلى متى تـظلون تقولون ان للعالم رباً ؟ ان عندي ألف دليل يدحض هذا القول .

وإذا كـان العلماء الحـاضرون يعلمـون انه ليس من أهـل المنـطق والبرهان ، وأنه مغتر بقدرته بحيث ان اية كلمة حق لا تؤثـر فيه ، فـانهم التزموا الصمت أمامه ، ذلك الصمت المليء بالمعاني والازدراء .

بعـد ذلك مضت الايـام حتى جاء يـوم اتهمت فيه الحكـومـة هـذا الوزير ، والقت القبض عليه وأودعته السجن .

عندئذ خطر لاحد العلماء الذين حضروا ذلك المجلس ان الوقت قد حان لكي يستيقظ هذا الوزير ، بعد ان ترجل عن صهوة غروره ، وازيحت عن عينيـه حجب الانانيـة ، وتنبهت فيه مشـاعر تقبـل الحق ، فقد تنفعـه النصيحة ، فطلب من المسؤولين السماح له بمقابلة الوزير ، فاذنـوا له ، واذ اقترب من زنزانته وجد أنه وحيد فيها ، وهو يـذرع أرض الغرفـة جيئة وذهاباً مفكراً ويهمهم ببضعة أبيات من الشعر ، مفادها : اننا اشبه بـرسم الاسد المرسوم على العلم ، فاذا هبت الـريح تحـرك العلم وبدا الاسـد وكأنه يهجم ، ولكنه في الحقيقة لا يفعل شيئاً ، إنما الريح هي التي تعطيه القدرة على الحركة ، فنحن مهما عظمت قدرتنـا فاننـا لا نملك شيئاً في ذواتنا ان الله الذي منحنا القدرة قادر على ان يسلبها منا وقت ما يشاء .

لاحظ العالم ان الرجل فضلاً عن كونه لا ينكر وجود الله ، فانه قد اصبح يعرفه حق المعرفة ، فتقدم إليه ، وبعد تفقد احواله ، سأله قائلاً :

أتـذكر يـوم قلت ان عندك الف دليـل على عـدم وجـود الله ؟ لقـد جئت لادحض ادلتـك الالف بدليـل واحد : ان الله هـو ذلك الـذي سلبك في لحظة واحدة كل تلك القدرة التي كانت لديـك ، فاطـرق الرجـل برأسـه خجلاً ولم يقل شيئاً ، لأنه كـان معترفـاً بخطئـه بعد ان رأى نـور الله في داخله .

يخاطب القرآن المجيد فرعون قائلا : ﴿ **حتى إذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو اسرائيل** ﴾[1] .

* * *

فكـر وأجب

١ ـ اكتب نتيجة هذه القصة في بضعة أسطر .

٢ ـ لماذا سمي بنو اسرائيل ببني اسرائيل ؟

٣ ـ من هو فرعون ؟ اين كان يعيش ؟ وماذا كان يدّعي ؟

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

الدرس السادس

الطريق الثاني لمعرفة الله

طريق من الخارج

بنظرة عابرة إلى هذا العالم الذي نعيش فيه ، ندرك ان عالم الوجود هذا ليس فيه اضطراب ولا ارتباك ، بل ان لجميع مظاهر الحياة خطاً معيناً تسير عليه ، فهي اشبه بجيش ضخم مقسم إلى وحدات منظمة وتتحرك جميعاً نحو هدف معين .

النقاط التالية تزيل كل غموض عن هذا الموضوع :

١ ـ لظهور كل كائن ولبقائه حياً في هذا العالم لا بد من تظافر عدد من الظروف والقوانين الخاصة لبلوغ ذلك الهدف ، فمثلاً ، لكي تظهر شجرة إلى عالم الوجود ، لا بد من توفر الارض ، «والماء» والهواء المناسب ، والحرارة اللازمة ، لكي نزرع البذرة ، فتتغذى ، وتتنفس ، وتخضر وتنمو ، فاذا لم تتوفر هذه الامور استحال ظهور النبتة ونموها إلى

شجرة ، ان تهيئة هذه الظروف والشروط تتطلب عقلاً ومعرفة .

٢ ـ ان لكل كائن خصائص يختص بها دون غيره ، فان لكل من الماء والنار خصائص لا تنفصل عنها وتتبع قوانين ثابتة .

٣ ـ جميع اعضاء الكائن الحي تتعاون في ما بينها ، فجسم الانسان تعمل اعضاؤه ، بوعي أو بغير وعي ، بانسجام تام بعضها مع بعض ، فاذا ما واجه الجسم خطراً تأهبت الاعضاء للدفاع ، ان هذا الترابط والانسجام في العمل دليل آخر على وجود النظام في عالم الوجود .

٤ ـ ان نظرة واحدة إلى العالم تكشف لنا ان الترابط والانسجام والتعاون في العمل ليست مقتصرة على اعضاء الجسم الواحد ، بل ان مختلف كائنات العالم تتعاون في ما بينها ، فلبقاء الكائنات تطلع الشمس ، وينزل المطر ، وتهب الرياح ، وتتظافر معها الأرض ومنابعها لهذا الهدف ، وهذا دليل وجود نظام معين يشمل عالم الوجود كله .

***

العلاقة بين «العقل» و«النظام» :

كل امرىء لا بد ان يعترف في نفسه بان النظام حيثما ظهر كان دليلاً على ان وراءه عقلاً مفكراً وتخطيطاً وهدفاً ، فحيثما شاهد الانسان نظاماً ثابتاً وقوانين معينة ادرك ان هناك وراء ذلك مصدراً للعلم والقدرة ، وهو في هذا الادراك الوجداني ليس محتاجاً إلى الاستدلال حاجة كبيرة .

انه يعرف ان انساناً امياً اعمى ليس قادراً على ان يضرب على الآلة الكاتبة مقالة اجتماعية جيدة أو نقداً أدبياً ، مثلاً ، أو ان طفلاً في الثانية من

عمره لايمكن له بامرار قلمه على الورق عشوائياً ان يرسم لوحة جميلة قيمة ، اننا اذا طالعنا انشاءً جيداً أو مقالة رائعة أدركنا فوراً ان خالقها انسان مثقف متميز بالذكاء والعقل كذلك إذا شاهدنا في متحف لوحة جميلة جذابة لا نشك لحظة في ان الذي رسمها كان فناناً ماهراً ، على الرغم من أننا لم نر ذلك الفنان بشخصه .

بناءً على ذلك حيثما رأينا جهازاً منظماً علمنا ان معه عقلاً وذكاءً ، وكلما كان ذلك الجهاز أكبر وأدق وأروع كان العقل والعلم اللذين أوجداه أكبر وأعظم كذلك .

لكي يثبتوا ان كل جهاز منظم يحتاج لوجوده إلى مبدأ عقل وعلم ، يستفيدون أحياناً من قانون (حساب الاحتمالات) المعروف في الرياضيات العالية ، فيبرهنون به ، مثلاً ، على ان الشخص الأمي إذا أراد ان يكتب مقالة أو شعراً بمجرد الضغط عشوائياً على مفاتيح الآلة الكاتبة بصورة عفوية وتصادفية ، فان ذلك ، بحساب الاحتمالات ، يستغرق بلايين السنين ، بحيث لا يكفي حتى عمر الكرة الأرضية لانجاز ذلك ، (للمزيد من التوضيح يمكن الرجوع إلى كتاب «خالق العالم» أو «في البحث عن الله» .

* * *

يقول القرآن الكريم : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾[1] .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

فكر وأجب

١ ـ هات بعض الامثلة (غير التي ذكرت في الدرس) على أجهزة صناعية ندرك عند مشاهدتها ان إيجادها يستلزم وجود صانع عليم .

٢ ـ ما الفرق بين «آفاق» و«أنفس» ؟ هات أمثلة على آيات الله في الآفاق وفي الأنفس .

الدرس السابع

نماذج من نظام الخلق

ان مظاهر «النظام» و«الغاية» و«التخطيط» واضحة في جميع ارجاء عالم الوجود .

هنا نورد لكم بعض الأمثلة الكبيرة والصغيرة :

أنه لمن حسن الحظ ان نجد ان تقدم العلوم الطبيعية والكشف عن اسرار عالم الطبيعة وعجائبه ودقائق خلق الانسان والحيوان والنبات ، وبناء الخلية والذرة العجيب ونظام المنظومات الشمسية والنجوم المحير للعقول كلها قد فتحت ابواب معرفة الله أمامنا بحيث نستطيع ان نقول بكل جرأة وثقة بان جميع كتب العلوم الطبيعية هي كتب في التوحيد ومعرفة الله ، وانها تلقي علينا دروساً في عظمة الله الخالق ، وذلك لان هذه الكتب تزيح الستار عن نظام الخلق المدهش في هذا العالم ، وتدلنا على مدى عظمة خالق هذا الكون وقدرته

***

مقر قيادة مملكة الجسم :

تملأ جمجمتنا مادة رمادية اللون يطلق عليها اسم «الدماغ» ، وهذا الدماغ يعتبر أهم أجهزة أجسامنا وأدقها ، لان وظيفته هي قيادة جميع قوى الجسم الأخرى وادارة شؤونها .

ولكي ندرك اهمية هذا المركز العظيم ، يحسن بنا ان ننقل إليكم هذا الخبر :

أوردت الصحف خبراً مفاده ان طالباً شاباً من شيراز قد أصيب في حادث سياقة في خوزستان بضربة على رأسه دون ان يصاب ظاهرياً بمكروه آخر في جسمه وكانت اعضاؤه جميعاً سالمة ، ولكن العجيب في أمره أنه نسي كل ما يتعلق بماضي حياته ، كان تفكيره سليماً ، يدرك الاشياء ، ولكنه إذا رأى ابويه لم يعرفهما ، واذا قيل له ان هذه أمك ، انتابه العجب ، أخذوه إلى بيته في شيراز ، وأروه ما كان قد صنعه بيديه من الاعمال اليدوية وعلقها على الجدران ، وقالوا له أنه هو الذي صنع كل هذه الاشياء بنفسه ، فكان يظهر العجب ويقول أنه يراها لاول مرة في حياته .

تبين من ذلك ان الضربة التي اصابت دماغه قد أوقفت (الاسلاك) الخلايا التي تربط بين فكره وحافظته ، وكأن عطباً أصاب (الفيوز) الكهربائي في حافظته فغرقت في ظلام تام وأخفت ذكرياته كلها .

ولعل هذا (الفيوز) الذي أصابه العطب لا يزيد حجمه على رأس الابرة ، ولكن لاحظ مدى تأثيره في حياته ، من هنا يتضح لنا مقدار تعقيد

جهاز الدماغ وأهميته .

يتألف الدماغ والجهاز العصبي من قسمين متميزين :

١ ـ مجموعة الأعصاب الإرادية التي تسيطر على جميع فعالياتنا الاختيارية ، كالمشي ، والنظر ، والتكلم ، وغيرها .

٢ ـ مجموعة الأعصاب غير الارادية التي تسيطر على الحركات اللاإرادية ، مثل حركة القلب وتحرك المعدة وغيرهما ، فتدير اعمالها ، بحيث ان اصابة هذا الجانب من الدماغ بعطب يكفي لايقاف القلب أو أي جهاز لاإرادي آخر عن العمل .

* * *

اعجب اقسام الدماغ

«المخ» هو مركز الذكاء والارادة ، والاحساس ، والحافظة وعلى ذلك فهو من أشد اجهزة الدماغ حساسية ، وإليه يعزى الكثير من ردود الفعل الانفعالية ، كالغضب والخوف وغيرهما .

لو أزيل مخ حيوان ما ، دون الاضرار باعصابه ، فان الحيوان يظل حياً ، ولكنه يفقد كل قدرة على الفهم والادراك ، من ذلك أنهم رفعوا مخ أحد الطيور من دماغه ، فبقي حياً ، ولكنه لم يميز الحب الذي نثر أمامه ولم يلتقط منه شيئاً بالرغم من جوعه واذا اطلقوه في الهواء كان يطير حتى يرتطم بحاجز فيقع .

الحافظة العجيبة :

من أقسام الدماغ العجيبة الأخرى هو الحافظة ، هل خطر لكم مدى غرابة قوة الحافظة العجيبة ؟ وهل فكرتم كيف سيكون سوء حالنا لو اننا فقدنا حافظتنا ساعة واحدة ؟

مركز الحافظة ، الذي يشكل جزءاً صغيراً من الدماغ ، يحتفظ بجميع ذكرياتنا ودقائقها طوال حياة الانسان ، كل انسان نتعرف عليه تحتفظ حافظتنا له بجميع خصوصياته ، شكله ، لونه ، ملابسه ، اخلاقه ، نفسيته وكل ما ندركه منه ، فتعد له اضبارة خاصة به ، فما ان نراه مرة أخرى حتى تقوم حافظتنا باستخراج الاضبارة الخاصة به وتلقي عليها نظرة شاملة ، وعندئذ يرشدنا فكرنا إلى الطريقة التي يجب ان نعامل بها هذا الشخص وكيف يجب ان تكون ردود فعلنا معه ، فإذا كان صديقاً احترمناه ، وإذا كان عدواً تحاشيناه ، وهذه الأمور تجري بسرعة مذهلة بحيث أنك لا تكاد تحس بمرور أي فترة زمنية بين رؤيتك الشخص وظهور رد فعلك ازاءه .

ان غرابة هذه الحالة تتضح اكثر إذا ما شئنا ان نصور ما تحتفظ به ذاكرتنا على الورق أو أن نسجله على أشرطة التسجيل لا شك أننا سنحتاج إلى مقدار كبير من الورق أو الأشرطة قد يملأ مخزناً كبيراً ، والأعجب من ذلك هو أننا لاستخراج مصور أو شريط من بين ذلك الحشد نحتاج إلى عدد كبير من الموظفين الموكلين بحفظها ، غير أن ذاكرتنا تقوم بكل ذلك بسهولة وبكل سرعة .

الطبيعة غير العاقلة كيف تخلق العقل ؟

لقد ألفت كتب كثيرة في عجائب الدماغ ، مما يمكن الـرجوع إلى قسم منها في الكتب المدرسية والجامعية ، فهل يمكن ان نصدق بان هذا الجهاز المعقد الدقيق والرقيق والغامض قد صنعته طبيعة فاقدة للعقل ؟ بل أشد من ذلك حماقة هو ان نعتبر هذه الطبيعـة العديمـة العقل هي خـالقة العقل!

يقول القرآن الكريم : ﴿ . . . **وفي انفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] .

****

فكـر وأجـب

١ ـ هـل تعـرف أمثلة أخـرى على عجـائب عمـل دمـاغ الانسان ؟

٢ ـ ما التدابير التي أوجدها الله تعالى للمحافظة على دماغ الانسان ازاء الحوادث المختلفة ؟

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

الدرس الثامن

عالم عجيب في طائر صغير

نريد في هذا الدرس ان نخرج من مملكة جسم الانسان الواسعة ، التي لم نكتشف زقاقاً واحداً من مدنها السبع بعد ، لنلقي نظرة على هذه الزاوية أو تلك لالتقاط بعض النماذج لنظام الكائنات العجيب .

نرمي ببصرنا في ليلة ظلماء إلى السماء فيتراءى لنا طائر غريب بين طيات سجف الظلام كشبح غامض يطير جريئاً في كل اتجاه بحثاً عن طعام يتغذى به .

هذا الطائر هو «الخفاش» الذي كل ما فيه يدعو للدهشة والعجب ، واعجب ما فيه هو طيرانه في الليل البهيم ، ان حركة الخفاش السريعة في ظلام الليل بغير ان يرتطم بأي حاجز من أعجب الأمور التي تظهر فيه أسرار جديدة كلما تعمقنا في كشف أسراره القديمة .

يطير هذا الطائر في الظلام بسرعة ودقة قد لا تدانيهما سرعة الحمامة

في رائعة النهار ، ولا شك أنه لولا وجود وسيلة يدرك بها وجود الموانع في مسير طيرانه لصعب عليه الطيران بهذه السهولة .

لـو أطلق الخفاش في نفق مـظلم كثير الالتـواءات والمنعطفـات ، وملوث بالسخام ، لاستطاع ان يتفادى جميع المنعطفات بغير ان يصطدم بأي منها أو ان تعلق به ذرة من السخام .

ان هـذه الخاصيـة العجيبة في الخفـاش ناشئـة من خـاصيـة اشبـه بخاصية الرادار .

فلا بد هنا من معرفة شيء عن جهاز الـرادار لكي ندرك وجـوده في هذا الحيوان الصغير .

في بحث «الصـوت» من علم الفيـزيـاء نقـرأ عن أمــواج مـا وراء الصوت ، وهي أمواج أطوالها وتردداتها من الكثرة بحيث ان اذن الانسان ليست قادرة على سماعها ، ولهذا السبب اطلق عليها اسم الامواج ما وراء الصوتية ، فعند انبعاث هذه الامواج من مصدر مرسـل قوي ، ينتشـر إلى جميع الجهات ، ولكنها ما ان تصطدم في الجو بمانع أو حـاجز ، (مثـل طائرات العدو أو أي مانـع آخر) تعـود ، مثل الكـرة التي تصطدم بجـدار فترتد ، أو مثل الصوت الذي نسمع صداه اذا اطلقناه بين الجبـال أو أمام جدار مرتفع وعلى مسافة معينة ، ان الفترة التي تمضيها هـذه الامواج في الارتداد تفيد في حساب بعد المانع أو الحاجز بصورة دقيقة .

كثير من الطائرات والبواخر تهتدي إلى طريقها بـوساطـة الرادار ، فتتجه إلى حيث تشاء ، كما أنها تستفيد من اجهزة الـرادار لمعرفـة مكان

طائرات الاعداء وبواخرهم .

يقول العلماء ان في جسم هذا الطائر الصغير جهازاً اشبه بجهاز الرادار ، والدليل على ذلك هو اننا لو اطلقناه في غرفة مظلمة ووضعنا فيها المايكروفون الخاص بتحويل الامواج فوق الصوتية إلى امواج صوتية قابلة للسمع ، لامتلأت الغرفة بأصوات مؤذية للسمع ، ويمكن حساب عدد الامواج التي تصدر من الخفاش وهي تبلغ من ٣٠ إلى ٤٠ مرة في الثانية .

ولكن ترى أي جهاز في الخفاش يصدر هذه الامواج ؟ أي ما هما جهاز الارسال والاستقبال في الخفاش ؟

يقول العلماء في الاجابة عن هذا السوال ان الخفاش يصدر هذه الامواج عن طريق عضلات حنجرته القوية ويخرجها من منخريه ، واذناه الكبيرتان هما جهازا الاستقبال عند ارتداد الامواج إليه .

فالخفاش اذن مدين في جولاته الليلية لاذنيه ، يقول عالم سوفياتي اسمه (ژورين) ان التجربة قد اثبتت أنه اذا قطعت اذنا الخفاش لم يعد قادراً على تحاشي الارتطام بالموانع في الليل ، بينما لا يتأثر طيرانه الليلي مطلقاً إذا ازيلت عيناه أي ان الخفاش يرى باذنيه ، لا بعينيه ، أليس هذا عجيباً ؟!

فلنتصور الآن : من الذي اوجد هذين الجهازين العجيبين المحيرين في جسم هذا الحيوان الصغير الحقير ؟ وكيف علمه استخدامهما والاستفادة منهما بحيث يستطيع ان يدرأ عن نفسه الكثير من الاخطار التي تصادفه في طيرانه الليلي ؟ أجل ترى من هو ؟

اتستطيع الطبيعة العمياء التي لا عقل لها ان تقوم بمثل هذا العمل ، فتخلق في هـذا الحيوان ، بكـل بساطـة ، هذين الجهـازين اللذين يبذل علماء العالم مبالغ طائلة لصنعهما ؟

يقـول الإمام علي (ع) في نهـج البلاغـة في كلام لـه مسهب على الخفاش وبديع خلقه : « . . . لا تمتنع من المضي فيه لغسق دُجُنَّتِهِ . . فسبحان البارىء لكل شيء على غير مثال . . . »[1] .

فكر وأجب

١ ـ أتعرف معلومات أكثر عن الخفاش ؟

٢ ـ أتعلم ان اجنحـة الخفـاش وطـريقـة ولادة الانثى صغـارهـا ، بـل وحتى طـريقـة نـومـه تختلف عن الحيـوانـات الاخرى ، وأنه طائر مختلف عن غيره تماماً ؟ .

---

(١) الخطبة رقم(١٥٥) .

الدرس التاسع



صديقان حميمان قديمان

من المستحسن ان تـزوروا في أحد أيـام الربيـع الدافئـة البسـاتين والمزارع الخضر اليانعة ، هنالك ستـلاحظون مجمـوعات من الحشـرات الصغيرة ، كالنحل ، والذباب الذهبي ، والفراشات ، والبعوض ، وكلها تتطاير في اتجاهات مختلفة ، تنتقل من زهـرة إلى أخرى ومن غصن إلى آخر .

انها منهمكة في حركاتها هذه حتى ليخيل إليك ان قوة غامضة تقف على رأسها (مثل صاحب العمل مـع عمالـه) لا تكف عن اصدار الأوامـر إليها ، ان ارجل بعضها واجنحتها تتلوث بالدقيق الاصفر على الزهور فتبدو كأنها من العمال الذين يـرتدون رداء العمـل الاصفر وهم منشغلون بـاداء اعمالهم .

في الواقع أنها تقوم بـاعمال مهمـة فعلاً ، ان اعمـالها من الأهميـة

بحيث ان البروفسور (ليون برتن) يقول : «قلما يعرف الناس أنه لولا الحشرات لبقيت سلالنا خالية من الفواكه» .

ونحن نضيف إلى قوله ذاك قولنا : «ولفقدت بساتيننا ومزارعنا لعدة سنوات ، ما كان لها من خضرة وطراوة» .

فالحشرات ، اذن ، هي التي تنمي الفواكه وتهيىء بذور الزهور .

لا شك أنكم سوف تسألون : كيف ؟ والجواب ، هو لأن أهم عمل حياتي في النبات ، وهو عمل «اللقاح» ، يتحقق بمعونة الحشرات ، لعلكم تعلمون ان الأزهار ، كالكثير من الحيوانات ، تنقسم إلى الذكر والانثى ، وما لم يتم اتصال وتلقيح بينهما فلن تكون هناك بذرة ولا ثمرة .

ولكن هل خطر لكم ان تفكروا في أقسام النبات المختلفة ، التي لا تحس ولا تتحرك ، كيف ينجذب بعضها نحو بعض ، وكيف ان المسحوق الذكري ، الذي يمثل (حيامن) الرجل يتحد مع (البيضة) الانثوية في النبات كمقدمة للتزاوج ؟

هذه العملية في كثير من الحالات منوطة بالحشرات ، وفي حالات اخرى منوطة بالرياح .

ولكن هذه العملية ليست بهذه البساطة التي تبدو لنا ، فهذا الزواج المبارك الميمون الكثير الخيرات ، والذي يتم (بوساطة) الحشرات ، له تاريخ ومراسيم وتطورات طويلة مثيرة للعجب ، سوف نتناول هنا جانباً منها :

صديقان حميمان قديمان :

بعد كثير من البحوث والدراسات ، توصل علماء الطبيعة إلى ان النباتات والازهار ظهرت في النصف الثاني من العصر الجيولوجي الثاني ، والعجيب ان تلك المرحلة شهدت ظهور الحشرات أيضاً ، ومنذ ذلك اليوم وعلى امتداد تاريخ الخليقة الطويل استمرت النبتة والحشرة صديقتين حميمتين وفيتين ، تكمل احداهما وجود الأخرى .

فلكي تستأثر الزهرة بحب صديقتها الحشرة وتجتذبها نحوها و(تحلي فمها) كما يقولون ، فإنها تختزن (رحيقاً) عذباً ، طيب الطعم في داخلها ، فعندما تقوم الحشرات بالتنقل من زهرة إلى أخرى تمهيداً لعملية اللقاح ، تضع ارجلها في الزهرة وتدخلها ، فتُستقبل هناك برحيق حلو لذيذ الطعم بحيث ان الحشرة تنجذب إليه دون اختيار .

يرى بعض علماء النبات ان للون الزهرة ورائحتها دوراً مهماً في اجتذاب الحشرات إليها فقد اثبتت التجارب التي أجريت على النحل قدرة هذه الحشرة على تمييز الالوان والروائح .

في الحقيقة ان الأزهار هي التي تتزين وتتجمل من أجل الحشرات لكي تجلب انتباه الفراشات والنحل التي يعجبها اللون والرائحة والطعم ، فتستقبلها في احضانها وتهيىء الأمور لعملية الزواج وتتناول طعام العرس أيضاً .

ان (حلاوة) العرس هذه هي من أفضل الطعام للحشرات ، وبخاصة النحل ، وبتراكمه يكثر العسل ، فالحشرات عند حضورها حفلة العرس

تأكل شيئاً من طعام العرس ، وكالضيف الصفيق ، تـأخذ بعضـاً من ذلك الطعام معها أيضاً إلى بيتها تختزنه فيه .

ان عهد الصداقة بين الزهرة والحشرة ، والقائم على تبادل المصالح المشتركة ، كان كذلك وسيبقى كذلك .

درس في التوحيد :

عنـدما يـلاحظ الانسان هـذه العلاقـة العجيبة بين حيـاة الحشرات والأزهار ، يتساءل دون اختيار : ترى من الذي عقد عهد الحب والصداقة بين الأزهار والحشرات ؟

هـذه الحلاوة الخـاصة والـرحيق اللذيذ ، وهـذه الالـوان الـزاهيـة المختلفة الجذابة ، وهذا العـطر المبهج ، من ذا الـذي وهبها الأزهـار ؟ ومن ذا الذي هدى الحشرات إليها ، وجعلها تتذوقها ؟

من الذي اعطى لهذه الحشرات ، للفراشات ، وللنحل ، وللذباب الـذهبي ، ارجلها اللطيفـة الظريفـة وجهزهـا بما يتيـح لها ان تنقـل لقاح الأزهار من مكان إلى مكان ؟

لماذا يتجه النحل في فترة معينة إلى نوع معين من الأزهـار ؟ لماذا بدأ تاريخ حياة الحشرات والأزهار في وقت واحد في عالم الخلق ؟

أهناك من يمكن ان يصدق ـ مهما يكن معانداً لجوجاً ـ ان كل هذه الأمور قد جرت على غير خطة موضوعة من قبـل ؟ أيعقل ان يحـدث كل هذا الذي يحير العقول بقوانين عشوائية تضعها طبيعة عمياء لا تدرك شيئاً ؟ كلا ، بالطبع !

يقول القرآن الكـريم : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحـل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً** ﴾[1] .

فكر وأجب

١ ـ ما فائدة الرحيق الحلو في الأزهار وألوانها وعطرها ؟

٢ ـ ماذا تعرف عن عجائب حياة النحل ؟ .

---

(١) سورة النحل ، الآيتان : ٦٨ و٦٩ .

الدرس العاشر

العوالم الصغيرة جداً

بما اننا نعيش في عالم مليء بعجائب الخليقة ونتربى بين مختلف مظاهرها ، فاننا كثيراً ما نغفل عن ملاحظة هذه الكائنات العجيبة وأهميتها ، من ذلك مثلاً :

١ ـ تعيش حوالينا حيوانات وحشرات صغيرة جداً بحيث ان جسم بعضها قد لا يتجاوز المليمتر الواحد أو الاثنين ، ومع ذلك فهي كالحيوانات الكبيرة لها اطراف وعيون وآذان وحتى أدمغة وذكاء واعصاب واجهزة للهضم .

اذا وضعنا دماغ نملة تحت المجهر وتفحصنا بدقة بناءه المحير نجد أنه مما يثير العجب حقاً ، فهذا الدماغ الصغير يضم أقساماً صفت متجاورة ، كل قسم منها يسيطر على جانب من جسم النملة ، وان ادنى تغيير في وضعيتها يصيب جانباً من جسم النملة بالشلل .

والعجيب في أمر دماغ النملة ، الـذي هـو فعـلاً أصغـر من رأس الدبوس ، يكمن فيه عالم من الذكاء والتمدن وجمال الذوق والفن ، حتى ان فريقاً من العلماء امضوا جانباً كبيراً من اعمارهم في دراسـة حياة هـذا الحيوان ، ودونوا في كتبهم الكثير من عجائب حياته .

ترى من ذا الذي أوجد كل هـذا الذكـاء والمهارة في هـذا الحيوان الصغير ؟ أتكون هي الطبيعة التي لا تملك من الذكاء حتى بمقـدار رأس الابرة ؟

٢ ـ فلننظر في عالم الذرة : اننا نعلم ان اصغر ما اكتشف حتى الآن في العالم هو الذرة واجزاؤها ، ان الذرة هذه من الصغر بحيث ان اعـظم المكبرات ، التي توصف بانها تكبر القشة لتبدو جبلاً ، تعجز عن رؤيتها .

إذا اردتم ان تعرفوا مقدار صغر الـذرة ، يكفي ان تعلموا ان قـطرة واحدة من الماء تحتوى على عدد من الذرات اكثر من جميع سكان الأرض قاطبة ، واذا اردنا ان نحسب عدد البروتونات في سانتيمتر واحد من سلك دقيق ، واستعنّا على ذلك بألف شخص يحسبون بحيث أننـا نستطيـع ان نفصل بروتوناً واحداً في كل ثانية ، لاستغرق حسابنـا بين ٣٠ سنة و٣٠٠ سنة (بحسب اختلاف ذرات كل مادة) ، على ان يستمر حسابنا ليلاً ونهاراً دون انقطاع .

والآن بعد ان عرفنا ان في سانتيمتر واحد من سلك دقيق هذا العدد من البروتونات ، فكم تظن عدد الذرات في السماء والارض والماء والهواء والمجرات والمنظومة الشمسية ؟ ألا يتعب فكـر الانسان من مجـرد تصور

ذلك ؟ أيستطيع أحد ان يعرف عددها غير الذي خلقها ؟

* * *

الذرة درس في التوحيد

تعتبر دراسة الذرة من أهم الفروع العلمية في العصر الحاضر ومن اشدها إثارة ، ان هذا المخلوق الصغير يلقي علينا درساً في التوحيد ، اذ ان في عالم الذرة جوانب أربعة هي التي تثير الانتباه :

١ ـ النظام الدقيق : لقد اكتشف حتى الآن اكثر من ١٠٠ عنصر يتدرج فيها عدد الالكترونات من الواحد حتى اكثر من ١٠٠ ، وهذا نظام دقيق لا يمكن ان يكون وليد عوامل عديمة العقل .

٢ ـ تعادل القوى : اننا نعلم ان قطبين كهربائيين مختلفين يتجاذبان ، وعليه ، فان الالكترونات التي تحمل شحنة سالبة لا بد ان تنجذب نحو النواة التي تحمل شحنة موجبة .

ومن جهة أخرى نعلم ان دوران الالكترونات حول النواة يوجد قوة طاردة عن المركز ، أي ان الالكترونات تحاول ، تحت هذه القوة الطاردة عن المركز ، ان تبتعد عن محيط النواة ، فتتحطم الذرة ، وفي الوقت نفسه تريد القوة الجاذبة أن تجذب الالكترونات فتفني الذرة .

هنا لابد من ان ندرك الحساب الدقيق الذي بموجبه جرى تنظيم القوتين الجاذبة والطاردة في الذرة لكي لا تفلت الالكترونات من مدارها ، ولا تنجذب نحو النواة بل تبقى دائما في حالة تعادل وتوازن في حركتها الدائمة ، فهل تستطيع الطبيعة العمياء ان توجد هذا التعادل والتوازن ؟

٣ ـ كل في خط سيره : قلنا ان لبعض الذرات اكثر من الكترون واحد ولكنها لا تدور كلها في مدار واحد ، بل تدور في مدارات متعددة ، ومنذ ملايين السنين تدور هذه الالكترونات في مدارات معينة ، وفواصل محددة ، وبسرعة معلومة ، بغير ان يكون هناك أي تضاد بينها .

فهل وضعها في مداراتها المعينة ودورانها المنظم المحير عمل بسيط ؟

٤ ـ طاقة الذرة العظيمة : للتعرف على الطاقة الهائلة الكامنة في الذرة يكفي ان نعرف ما يلي :

في سنة ١٩٤٥ تمت تجربة في صحراء المكسيك الجرداء من كل ماء وزرع ، حيث فجرت قنبلة ذرية صغيرة جداً في برج فولاذي ، فذاب البرج ثم تحول إلى بخار وظهر البرق مصحوباً بدوي مرعب ، وعندما جاء العلماء لم يجدوا أثراً للبرج .

وفي تلك السنة نفسها ألقت الولايات المتحدة الامريكية قنبلتين ذريتين صغيرتين على مدينتي (ناكازاكي) و(هيروشيما) اليابانيتين ، فأبيد في الأولى سبعون ألف انسان وجرح مثلهم ، وقتل في الثانية نحو ثلاثين أو أربعين ألفاً وجرح مثلهم ، بحيث اضطرت اليابان إلى الاستسلام لامريكا دون قيد أو شرط .

أفلا تكفي دراسة اسرار ذرة واحدة من الذرات لكي يتعرف الانسان على خالقها ؟ وعليه ، ان بالامكان القول بان لدينا بعدد ذرات الدنيا ادلة على وجود الله .

يقـول القرآن الكـريم : ﴿ **ولو أن مـا في الأرض من شجرة اقـلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾[1] .

* * *

فكـر وأجب

١ ـ أتعرف شيئاً آخر عن اسرار حياة النملة ؟

٢ ـ أتستطيع ان ترسم على السبورة خارطة بناء الذرة ؟

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٧ .



بحث مكمل للدرس العاشر :
ما اعظم صفات الله!

صفاته :

كن على حـذر ، فبقدر سهـولة التعـرف على وجود الله عن طـريق التمعن في اسرار عالم الخليقة ، لا تكون معرفة صفات الله بتلك السهولة نفسها ، بل تتطلب الدقة والحذر الشديدين .

وقد تسأل : لماذا ؟ الجواب واضح ، فالله تعالى لا يشبه أي شيء مما رأينا وسمعنـا ، وعليه فـان أول شرط في معـرفة صفـات الله هو نفي جميع صفات المخلوقات عن ذاته المقدسة : أي عدم تشبيهه بـاي كائن محدود في عالم الطبيعة ، وهذا ما يجر القضية إلى ممر ضيق ، وذلك لأننا ترعرعنا في قلب هذه الطبيعة ، وكان ارتباطنا بها ، وأنسنا بها وألفنـاها ، ولهذا فاننا نميل إلى ان نقارنه كل شيء بما نراه فيها .

وبعبـارة أخرى ، ان كـل ما رأينـاه جسم وخصـائص الجسم ، أي

الاشياء التي لها «زمان» و«مكان» و«اشكال» معينة ، وعلى هذا يكون من الصعب جداً ان نصف الله الذي لا يحده مكان ولا زمان ، وهو في الوقت نفسه محيط بكل زمان ومكان ، ولا تحده حدود ، انه أمر يتطلب الكثير من الحذر والدقة .

مبدئياً لا بد من القول باننا لن نعرف حقيقة كنه الله ، ولا ينبغي لنا ان نتوقع ذلك من انفسنا ، لان توقعنا شيئاً كهذا يكون اشبه بمحاولة سكب مياه محيط عظيم في اناء صغير بحيث يسعها ، أو القول بان جنيناً في بطن أمه يمكن ان يعرف كل شيء موجود في العالم الخارجي ، أهذا أمر ممكن ؟

لذلك فان أصغر زلل في هذا المجال يمكن ان يبعد الانسان مسافات طويلة عن الطريق الصحيح لمعرفة الله ويرمي به في متاهة عبادة الاوثان والمخلوقات ، على كل حال ، ينبغي ان نكون على حذر لئلا نقارن صفات الله بصفات المخلوقات ابداً .

صفات «الجمال» و«الجلال»

تقسم صفات الله عادة إلى قسمين : «الصفات الثبوتية» أي الصفات الموجودة في ذات الله ، و«الصفات السلبية» أي الصفات التي يتنزه عنها الله سبحانه وتعالى .

وقد يسأل سائل : ترى ما هي صفات ذات الله ؟

الجواب هو ان صفات الله تكون من جهة لا نهاية لها وغير محدودة ، ويمكن من جهة أخرى تلخيصها في صفة واحدة ، اذ ان جميع

صفاته الثبوتية تتلخص في التعبير التالي : «ذات الله لا متناهية من جميع الجهات ولها الكمالات كلها» .

كما ان صفاته السلبية تتلخص في الجملة التالية : «ذات الله لا يعتورها النقص من جميع الجهات» .

ولكن بما ان للكمال والنقص درجات ، أي يمكن تصور الكمال اللامتناهي والنقص اللامتناهي ، اذن يمكن القول بان لله صفات ثبوتية لا نهاية لها ، وله صفات سلبية لا نهاية لها ، اذ ما من صفة كمال نتصورها إلا وهي في الله ، وما من صفة نقص نتصورها إلا والله منزه عنها ، اذن ، صفات الله الثبوتية والسلبية لاحد لها .

أشهر صفات الله :

أشهر صفات الله ثمان ، وهي كما يلي :

١ ـ «هو العالم» ، فالله عالم بكل شيء .

٢ ـ «هو القادر» ، فهو قادر على كل شيء .

٣ ـ «هو الحي» ، فالحي هو كل عالم وقادر ، وبما ان الله عالم وقادر ، فهو حيّ .

٤ ـ «هو المريد» أي أنه صاحب ارادة وليس في اعماله مجبراً على شيء ، وكل ما يفعله إنما لحكمة ولغاية فما من شيء في الأرض ولا في السماء ، صغيراً كان أم كبيراً ، إلّا وكان عن فلسفة وهدف .

٥ ـ «هو المدرك» أي أنه يدرك جميع الاشياء ، يسمع كل شيء ،

ويرى كل شيء ، وهو عليم بكل شيء خبير .

٦ ـ «هو القديم الازلي» ، أي أنه كان دائماً ، وليس لوجوده بداية ولا نهاية ، اذ ان وجوده ينبع من ذاته ، ولهذا فهو ازلي سرمدي ، فمن يكون وجوده من ذاته لا يعتوره الفناء ولا الزوال .

٧ ـ «هو المتكلم» أي أنه قادر على احداث موجات صوتية ، فيكلم الانبياء ، وليس معنى هذا ان له سبحانه لساناً وشفتين وحنجرة .

٨ ـ «هو الصادق» فما يقوله هو الصدق عينه والحقيقة ذاتها ، لان الكذب يكون إمّا بسبب الجهل وإمّا بسبب الضعف ، فالله القادر العليم لا يمكن ان يكذب .

* * * *

أما صفاته السلبية ، فاهمها سبع صفات :

١ ـ ليس «مركّباً» أي أنه لا يتألف من اجزاء تركيبية ، فلو كان كذلك لاحتاج إلى اجزائه ، وهو الغني غير المحتاج .

٢ ـ ليس «جسماً» ، لان للجسم حدودا ويكون متغيراً وفانياً .

٣ ـ ليس «مرئياً» فهو لا يُرى ، وإلّا كان جسماً محدوداً وفانياً . .

٤ ـ ليس له «مكان» ، لانه ليس جسماً ليحتاج إلى مكان .

٥ ـ ليس له «شريك» اذ لو كان له شريك لكان محدوداً ، لان كائنين غير محدودين يستحيل وجودهما معاً ، ثم ان وحدة قوانين الطبيعة دليل على وحدانيته .

٦ ـ ليس لله «معان» لان صفاته هي ذاته عينها .

٧ ـ ليس «محتاجاً» بل هو الغني ، لان الكائن اللامتناهي من حيث العلم والقدرة لا ينقصه شيء .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] .

فكر وأجب

١ ـ ألديك ادلة أخرى على وحدانية الله وأنه لا شريك له ؟

٢ ـ هل سمعت بوجود بعض الاديان التي تؤمن بثلاثة آلهة وأخرى تؤمن بإلهين ؟ ما هي ؟ .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ١: .

الفهرس

معرفة
النبوّة



سلسلة أصول الدين

٢

معرفة النبوّة

تأليف

ناصر مكارم الشيرازي

ترجمة

جعفر صادق الخليلي



الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



لبنان - بيروت - بئر العبد خلف محطة دياب

تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+)

ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com

المقدمة

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان عموماً يؤمن بما تهواه نفسه وتميل إليه حسب فطرته من الأصول والعقائد التي يعتنقها ويلتزم بها .

ومما لا شكَّ فيه أن المسلم خصوصاً الذي يؤمن بالإسلام ديناً بحسب فطرته يؤمن بأصول عقائد الدين الإسلامي .

ولكنه بالرغم من تمسكه وإيمانه بأصول الدين إلا أنه قد تواجهه الكثير من المشاكل إذا ما جوبه ببعض الشكوك والشبهات التي قد تؤدي الى زعزعة إيمانه وتمسكه بهذه العقائد ، لعدم فهمه واستيعابه لها فهماً عميقاً وبالاستدلال والإثبات المنطقي .

لذا فإن هذا الكتاب من نفحات آية الله ناصر مكارم الشيرازي يمتاز بكونه يمنح الإنسان المسلم تلك القوة التي ترسخ بذاته إيمانه وتمسكه بأصول الدين وعقائد الإسلام . ويمتاز الكتاب أيضاً ببساطته وسلاسته التي

تجعل منه كتاباً في متناول عامة الناس وخاصتهم .

نسأل المولى العليّ القدير التوفيق والسداد لما فيه الخير والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر

الدرس الأول

حاجتنا الى القادة الالهيين

قصور علمنا

قد يتساءل بعضهم: أمن الضروري أن يبعث الله الأنبياء كي يهدوا الانسان؟ ألا يكفي عقلنا وحكمتنا لإدراك الحقائق؟ ألا يساهم تقدم العلوم عند البشر في كشف الأسرار الغامضة وتوضيح الحقائق جميعها؟

ثم ان ما يأتي به الأنبياء لا يخرج عن حالتين اثنتين: فاما أن يدركه عقلنا ، وإما أنه لا يدركه .

ففي الحالة الأولى ، لا حاجة بنا لتجشم الأنبياء هـذا العناء ، وفي الحالة الثانية ، لا يمكننا أن نتقبل أموراً هي خلاف ما يراه عقلنا .

ثم من جهة اخرى ، هل يصح أن يضع الانسان نفسه تحت تصرف شخص آخر كلياً ويطيع أوامره بغير أي اعتراض؟ أوليس الأنبياء بشراً مثلنا؟ فكيف نضع أنفسنا تحت تصرف إنسان لا يختلف عنا بشيء؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار النقاط التالية التي سوف تبين أهمية الأنبياء في نظام حياة البشر:

١ ـ علينا أن ندرك ان علمنا قاصر ومحدود، فعلى الرغم من كل هذا التقدم العلمي الذي حققه الانسان في مختلف ميادين العلوم، فان ما نعلمه بالنسبة لما لا نعلمه لا يكاد يبلغ مقدار قطرة الماء بإزاء البحر، أو بإزاء الجبال، أو كما قال أحد كبار العلماء: ان كل ما نعلمه اليوم لا يزيد على الألف باء في كتاب عالم الوجود العظيم.

وبعبارة أخرى، ان المساحة التي يحكمها عقلنا وإدراكنا مساحة صغيرة تضيئها أشعة العلم، أما ما هو واقع وراء ذلك فلا علم لنا به اطلاقاً. فيأتي الأنبياء ليلقوا لنا الضوء على مناطق أوسع بالقدر الذي نحتاجه. صحيح ان عقلنا أشبه بكاشف قوي النور، ولكن الأنبياء بما يأتون به من الوحي الإلهي يكونون أشبه بالشمس التي تسطع على الكائنات. أفهناك من يقول: ما دمنا نملك هذا الكاشف القوي، فما حاجتنا بالشمس؟

وبتعبير أوضح نقول ان أمور الحياة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام «**المعقول**» و«**غير المعقول**» و«**المجهول**».

والأنبياء لا يمكن أن يقولوا شيئاً «غير معقول» وخلافاً لما يقول به العقل وتحكم به الحكمة، فإذا قالوا فهم ليسوا أنبياء. انما الأنبياء يعينوننا على إدراك المجهولات، وهو أمر مهم لنا.

وعليه، فان الذين كانوا يقولون: اننا بوجود العقل والحكمة لا

نحتاج إلى أنبياء « مثل الطائفة البرهمية في الهند وفي أماكن أخرى » ، أو الذين يقولون اليوم : مع العلم وانجازاته وانتصاراته العلمية ، لم تعد هناك حاجة الى الأنبياء وتعليماتهم . كلاهما لم يعرفا حدود العلم عند البشر ، ولا رسالة الأنبياء الإلهية .

هذا يكون أشبه بالصبي الذي درس الحروف الهجائية في المدرسة ثم قال انه أصبح عالماً بكل شيء ولم يعد بحاجة الى المعلم والأستاذ .

ثم ان الأنبياء ليسوا مجرد معلمين ، فان مركزهم كقادة له حكاية قائمة بذاتها سوف نتناولها بالشرح إن شاء الله .

٢ ـ لم يقل أحد ان على المرء أن يضع نفسه كلياً تحت تصرف شخص آخر مثله ، فالكلام هنا على الأنبياء الذين ينطقون عن الوحي الإلهي ، فعلينا أن نتأكد من ارتباطهم بعلم الله اللامتناهي عن طريق الأدلة الدامغة . ففي هذه الحالة وحدها يمكن أن نتقبل أقوال هؤلاء القادة الربانيين بمجامع قلوبنا . إذا أنا عملت بحسب إرشاد طبيب ماهر ، فهل أكون قد ارتكبت عملاً مرفوضاً؟

ان الأنبياء أطباء روحانيون عظام!

فإذا أنا استوعبت درس معلم ينسجم مع عقلي وفكري ، فهل أكون قد أخطأت؟

ان الأنبياء معلمون كبار!

يحسن بنا أن نبحث أدلة ضرورة إرسال الأنبياء من قبل الله .

ان هناك ثلاثة أدلة حية تؤكد حاجتنا إلى هداية الأنبياء:

١ ـ الحاجة إلى التعلم

لو أننا امتطينا سفينة خرافية متخيلة مصنوعة من أمواج النور ، تنطلق بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية في هذا الفضاء اللامتناهي ، فإننا سوف نحتاج الى الآلاف من مثل عمر نوح حتى نستطيع أن نستكشف زاوية من هذا الكون المترامي الأطراف السحيق .

ان هذا الكون باتساعه المخوف لا بد أنه لم يخلق عبثاً . لقد علمنا من دروس « معرفة الله » ان خلق هذا العالم لا ينفع الله بشيء ، لأنه كامل ، وغير محتاج ، ولا نهاية له ، فليس به نقص لكي يسعى لسدّه عن طريق خلق العالم والبشر .

نستنتج من هذا ان هدفه هو ان يفيض على البشر من جوده ورحمته ، ليوصل الكائنات الاخرى الى التكامل ، كالشمس التي تشرق بنورها على أهل الأرض بغير أن تكون محتاجة اليهم ، بل انما نحن الذين نحتاج الى ضوئها ، وإلاّ فما الذي نستطيع أن نفعله لصالح الشمس؟

ثم ، من جهة اخرى ، أتكفي معلوماتنا وحدها للسير بنا في طريق التكامل وإيصالنا الى مرحلة الانسان الكامل من جميع الوجوه؟

تُرى كم نعرف من أسرار العالم؟ ما هي حقيقة الحياة؟ متى وجد هذا العالم؟ ان أحداً لا يعرف الجواب القاطع عن هذه الأسئلة .

حتى متى سنبقى؟ لا أحد يعرف الجواب كذلك .

ومن حيث الحياة الاجتماعية والاقتصادية كل عالم من علماء البشر له رأي أو نظرية .

فبعض يوصون بالرأسمالية ، وفريق آخر يرتأون الاشتراكية والشيوعية ، وآخرون يرفضون هذا وذاك كليهما .

وفي مسائل الحياة الاخرى تجد مثل هذا الاختلاف قائماً وبكثرة ويصاب الانسان بالحيرة ، ترى أيها يختار؟

هنا لا بد لنا من أن نعترف بأننا ، لكي نصل الى هدف الخلق الأصيل ، وهو « نمو الانسان وتكامله وتربيته على جميع المستويات » ، نحتاج الى مجموعة من التعليمات الصحيحة والسليمة والخالية من كل خطأ ، والمستندة الى حقائق الحياة الواقعية ، تمكّن الانسان من السير في الطريق الطويل الموصل الى هدف الخلق الأصيل .

وهذا لا يكون الا عن طريق العلم الإلهي ، أي الوحي السماوي الذي ينزل على الأنبياء . ولهذا فان الله الذي خلقنا لكي نسير في هذا الطريق لا بد له أن يتيح لنا مثل هذا العلم وهذه المعرفة .

٢ ـ الحاجة إلى القائد اجتماعياً وأخلاقياً:

ان فينا ، كما نعلم ، اضافة الى العقل ، غرائز وميولاً قوية ، مثل غرائز حب الذات ، والغضب ، والجنس ، وغرائز اخرى كثيرة .

لا شك اننا إذا لم نكبح جماح غرائزنا وتركناها تسيطر علينا ، فان عقلنا سيكون مقيداً محجوراً عليه ، ويتحول الانسان الى مثل جبابرة التاريخ وطغاته وأشد خطراً من ذئاب الصحارى المفترسة .

لذلك فنحن بحاجة الى التربية الأخلاقية على يد مرب ، والى « الأسوة » الذي علينا أن نحاكيه في الأقوال والأفعال ونحذو حذوه .

ان أسـوة كهذا يجب أن يكـون ذا تربيـة كاملة من جميـع الجهات بحيث يستطيع أن يأخذ بيدنا في هذا الطريق الكثير المنعطفات وينقذنا من طغيان غرائـزنا ، ويـزرع في نفوسنـا أصول الفضـائل والأخـلاق بأعمـاله وأقـوالـه ، ويـربينـا على الشجـاعـة ، وحب بني البشـر ، والمـروءة ، والتضحية ، والوفاء ، والصدق ، والأمانة ، وطهارة الروح .

فمن الحقيق بأن يكون هذا المربي والقائد غير نبي معصوم؟ لهـذا فإن الله القادر الرحيم لا يمكن أن يحرمنا من أمثال هؤلاء الأنبياء المربين الهداة .

(سيأتي بقية هذا البحث في الدرس القادم)

* * *

فكـر وأجب

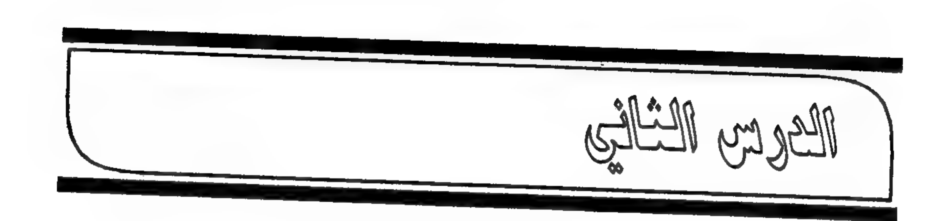
١ ـ إذا ازددنا علماً ومعرفة فهل تظن أن معلومـاتنا تفـوق مجهولاتنا؟ مثّل لذلك .

٢ ـ أتستـطيع أن تبين الفـرق بين التقليـد الأعمى واتّبـاع الأنبياء؟

٣ ـ إذا سرنا على طريق مجهولة بدون هـاد يهدينـا ، فما الأخطار التي قد تهددنا؟

٤ ـ بيِّن أبعاد حاجتنا الى قيادة الأنبياء .

٥ ـ ما الموضوع الذي تظن أنه بقي إلى الدرس القادم في هذا البحث؟


الدرس الثاني



الحاجة الى الأنبياء كمشرعين

في الدرس السابق أدركنا الحاجة الى الأنبياء من حيث « التربية » و« التعليم » . والآن جاء دور القوانين الاجتماعية والدور المهم الذي يضطلع به الأنبياء بهذا الشأن .

اننا نعلم ان أهم سمة تتسم بها حياة الانسان ، والتي تعد أهم عامل في تقدم الانسان وانجازاته في مختلف أدوار حياته ، هي الحياة الاجتماعية .

لو ان الإنسان بقي يعيش منفصلاً عن اخوته ، لكان الآن باقياً على مستواه الفكري والحضاري المنحط الذي كان عليه إنسان العصر الحجري .

نعم ، ان المحاولات والمساعي الجماعية هي التي أوقدت مشعل الثقافة والحضارة ، وهي التي كانت الدافع الى بلوغ كل هذه الاكتشافات

والاختراعات العلمية .

خذ مثلاً الوصول الى القمر ، تجد ان هذا الانجاز كان حصيلة عمل عـدد من العلماء ، بـل الآلاف منهم تظافـرت جهودهم على مـدى آلاف السنين ، في البحث والتجربة . وما كان هذا ليتم لولا الحياة الاجتماعيـة التي تراكمت فيها الخبرات والمعارف حتى حققت هذا الانجاز العظيم .

أو إذا نجح طبيب حاذق في عصـرنا في زرع قلب إنسـان ميت في صدر إنسان حي ذي قلب مريض ، فأنقذه من موت محقق ، فـانه يكـون مـديناً بنجـاحه الى آلاف التجـارب السابقـة التي أجـراهـا آلاف الأطبـاء والجراحين انتقلت على امتداد التاريخ من طبيب الى طبيب حتى وصلت إليه .

غير أن للحياة الاجتماعية مشكلاتها الى جانب محاسنهـا الكثيرة ، كتضارب المصالح والرغبات والحقوق ، مما يؤدي أحياناً إلى اندلاع نيران المصادمات الدموية والحروب الطاحنة .

هنا تظهر حاجتنا الى القوانين والتعليمـات الواضحـة التي تحل لنـا ثلاث مشكلات كبيرة :

١ ـ القـانون يحـدد واجبات كـل فرد نحـو المجتمـع ، وواجبـات المجتمع نحو الأفراد ، بحيث تنفتح المواهب ضمن مساع متعاونة .

٢ ـ القانون يمهد طريق الإشراف على حسن أداء الأفراد واجباتهم .

٣ ـ القانون يحول دون قيام الأفراد بالاعتداء على حقوق الآخرين ، ويمنـع انتشـار الفـوضى والتضارب بين الأفـراد والجمـاعـات ، ويقـرر

العقوبات المناسبة على المعتدين .

من هو خير المشرّعين؟

في هذه الحالة يتعين علينا أن نعرف من هو أفضل شخص يستطيع أن يسن القوانين التي تتطلبها حياة البشر الاجتماعية ، بحيث تتحقق فيها المبادىء الثلاثة المذكورة: بيان الحقوق والواجبات للفرد والمجتمع ، والاشراف السليم على تنفيذ القوانين ، ووقف عدوان المعتدين .

ولنضرب هنا مثلاً بسيطاً:

يمكن أن نشبّه المجتمع البشري بقطار كبير ، والهيئة الحاكمة بماكنة القطار والتي تحرك القطار في مسيره ، والقانون بمثابة السكة الحديد التي تعين الخط الذي يجب أن يسير عليه القطار كي يصل الى غايته ، ماراً بالمنعطفات والمرتفعات والمنخفضات والجبال والوديان .

لا شك ان السكة الحديد الجيدة يجب أن تتوفر فيها الأمور التالية :

الأرض التي تمتد عليها السكة يجب أن تكون صلبة تتحمل أقصى ضغط يمكن أن يسلط عليها .

الفاصلة بين الخطين يجب أن تكون متساوية على امتدادهما بدقة متناهية بحيث تساوي الفاصلة بين عجلات القطار . كما ان جدران الانفاق وارتفاعاتها يجب أن تناسب القطار الذي يمر بها .

الارتفاعات والانحدارات يجب أن لا تكون حادة الى درجة لا تستطيع معهما الماكنة سحب القطار ، أو إيقافه عند اللزوم .

ثم هناك احتمالات الانهيارات الجبلية وتهاوي أحفّة الوديان التي يمر بها القطار ، وكذلك السيول والثلوج الساقطة ، يجب أن تؤخذ كلها بالحسبان الدقيق لكي يستطيع القطار أن يواصل مسيرته في مختلف الظروف والحالات ، وان يصل هدفه بسلام .

نعود إلى « المجتمع الانساني » لتطبيق هذا المثال عليه :

ان المشرّع الذي يريد أن يضع خير القوانين للبشر يجب أن تتوفر فيه الشروط التالية :

١ ـ ان يكون عارفاً معرفة تامة بالبشر ، بغرائزهم ، وعواطفهم ، وحاجاتهم ، ومشكلاتهم وكل ما يتعلق بهم .

٢ ـ ان يأخذ بنظر الاعتبار جميع مؤهلات الناس واستعداداتهم ومواهبهم لكي يستخدم القوانين في سبيل تفتحها وازدهارها .

٣ ـ ان يكون قادراً على التنبؤ بما يمكن أن يقع في المجتمع من حوادث وبطرق مواجهتها على أفضل وجه .

٤ ـ ان لا تكون له أية مصالح شخصية ولا لأي من أقربائه والمختصين به .

٥ ـ أن يكون عارفاً بكل ما حققه الانسان في تقدمه ، وما أصابه من إحباط وإخفاق .

٦ ـ أن يكون في أقصى درجة من العصمة ضد الخطأ والنسيان .

٧ ـ وأخيراً ، على هذا المشرّع أن يكون شجاعاً وجريئاً ، فلا ترهبه

أيـة قـوة ولا شخصيـة في المجتمـع ، ولا يخشى أحـداً أبـداً ، على أن يكون ، في الوقت نفسه ، على قدر كبير من المحبة والعطف .

من الذي تتوفر فيه هذه الشروط؟

هل يكون الانسان أفضل مشرّع؟

أهنـاك من عرف الانســان حتى الآن معرفـة تامـة؟ كتب أحد كبـار العلمـاء المعـاصـرين مؤخـراً كتـابـاً عنـوانـه « الإنســان ، هـذا الكــائن المجهول » .

هل عرفت نفسية الانسان وغرائزه وميوله وعواطفه معرفة تـامة حتى الآن؟

هل يمكن العثور بين الناس على شخص لا تكون له مصالح خاصة في المجتمع؟

أهناك بين الناس العاديين إنسان يكون مصوناً من كل خطأ ونسيان ، وله معرفة تامة بجميع مشكلات المجتمع البشري وأفراده؟

إذن ، لن تجد بين الناس العاديين من تتوفر فيه الشروط المطلــوبة لـذلك ليس سـوى الله ، وذاك الـذي يتلقى وحيـه ، من يمكن أن يكـون أفضل مشرّع لبني البشر .

وهكذا نصل إلى هذا الاستنتاج : ان الله الذي خلق البشر ليسيـروا في طريق التكامل ، لا بد أن يبعث أناساً يأمرهم بهداية البشـر نحو الله ، ويبين لهم شريعة السماء الإلهية الجامعة والشاملة .

ولا ريب ان الناس إذا علموا ان الشريعة التي بين أيديهم نازلة من الله ، فإنهم يطبقونها بكـل ثقة واطمئنـان ، أي أن علمهم بذلـك يضمن تطبيق القوانين تطبيقاً لائقاً .

العلاقة بين التوحيد والنبوة:

هنا ينبغي أن نلتفت الى هذه النقـطة ، وهي ان نظام الخلق نفسـه خير شاهد حي على ضرورة وجود الأنبياء ورسالاتهم الإلهية .

وذلك لأن نظرة واحدة الى نظام الخليقة العجيب تدلنا على ان الله تعالى لم يغفل بلطفه عن تأمين أي حاجة من حاجات الانسان فهو عندما خلق العين لكي ننظر بها ، خلق معها الأجفان والأهـداب للحفاظ عليهـا ولتنظيم سقوط الضوء عليها .

وخلق في زوايا العين غدداً تفـرز الدمـوع لكي يبقى سطحهـا رطباً دائماً ، إذ أن جفافها يذهب بها .

وفضلاً عن ذلك خلق في العين نافذة صغيرة تسيل خلالها الـدموع الزائدة الى الأنف ، ولولا هذه النافذة الصغيرة لاستمرت الدموع تسيل على وجوهنا .

ويمنح بؤبؤ العين من الحساسية الشديدة بحيث انه يتأثر بشدة الضوء وضعفه فيضيق ويتسع تبعـاً لذلـك بصورة لا إراديـة لكي لا يصيب العين ضرر من جراء شدة الضوء .

وفي أطراف كرة العين عضلات مختلفة تسهـل عليها الـدوران الى الجهات المختلفة بغير حاجة الى إدارة الرأس والجسم .

فهل الله الذي لا يغفل عن حاجات الانسان الدقيقة هـذه يمكن أن يحرم الانسان من هاد وقائد موثوق به ومعصوم من الخطأ ويأتمر بأوامر الله ووحيه؟

يقول الفيلسوف المعروف ابن سينا في كتابه «الشفاء» المشهور:

«لا شـك ان حاجـة الانسان الى إرسـال الأنبياء إليهم لبقـاء النوع ولبلوغ الكمالات أشد ضرورة من نمو الأهـداب والحواجب وتقعـر باطن القدم وأمثالها، ذلك لأنه ليس من الممكن أن يوجب الله سبحانه وتعالى تلك الأمور ولا يوجب هذا الأمر».

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما هي أعظم مميزات حياة البشر؟

٢ ـ لماذا لا يمكن للإنسان أن يعيش بغير قانون؟

٣ ـ هات مثالاً حياً لتوضيح دور القانون في حياة البشر.

٤ ـ ما الصفات التي يجب أن يتحلى بها أحسن مشرع؟

٥ ـ لماذا يجب أن يكون الأنبياء من البشر؟



الدرس الثالث



لماذا الأنبياء معصومون؟

الصيانة من الإثم والخطأ

لا بد لكل نبي أن يكون موضع ثقة عموم الناس قبل كل شيء بحيث لا يجدون في كلامه أي احتمال للكذب والخطأ والتناقض . إذ أن مركزه سوف يتزلزل في غير هذه الحالة .

اذا لم يكن الأنبياء معصومين فان الباحثين عن الأعذار سوف يحتجون بكونهم معرضين للخطأ ، كما أن الباحثين عن الحقيقة يتزعزع إيمانهم بصحة محتوى دعوتهم ، فيرفض الطرفان رسالاتهم ، أو انهم ، في الأقل ، لا يكون تقبلهم لها مصحوباً بحرارة الثقة والإيمان .

هذا الدليل - الذي يسمى « دليل الاعتماد» - يعتبر من أهم أدلة عصمة الأنبياء .

وبتعبير آخر: كيف يمكن أن يأمر الله الناس أن يطيعوا شخصاً غير

ملتزم ومعرض للخطأ ولارتكاب المعاصي؟ لأنهم ان أطاعوه فقد تابعوا الخطأ والإثم ، وان لم يطيعوه فقد نسفوا مقامه كقائد ، خاصة ان مركز قيادة الأنبياء يختلف تماماً عن القيادات الاخرى ، لأن الناس يستقون منهم جميع عقائدهم وبرامج سلوكهم .

ولهذا نجد كبار المفسرين عندما يصلون الى هذه الآية :

﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[١] .

يقولون ان الأمر بالاطاعة المطلقة دليل على ان النبي معصوم وأولي الأمر معصومون أيضاً . وأولو الأمر هم الأئمة المعصومون مثل عصمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإلّا لما أمر الله بإطاعتهم طاعة مطلقة أبداً .

الطريق الآخر لاثبات معصومية الأنبياء من كل إثم هو ان « عوامل ارتكاب الإثم في نفوس الأنبياء محكوم عليها بالهزيمة» .

اننا إذا راجعنا أنفسنا نجد أننا أنفسنا نكاد نكون معصومين من ارتكاب بعض الأعمال السيئة أو القبيحة ، لاحظ المثال التالي :

هل تستطيع ان تعثر على انسان عاقل يفكر في أكل النار ، أو الأزبال ، أو القذارات؟

هل هناك إنسان عاقل يخرج عارياً تماماً ليسير في الطرقات؟

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

طبعاً لا ، وإذا صدر هذا عن شخص لقلنا فوراً انه خارج عن حالته الطبيعية وانه مصاب ببعض الأمراض النفسية ، وإلّا فان من المستحيل أن يقدم إنسان مالك لقواه العقلية الكاملة على ذلك .

عندما نحلل أمثال هذه الأعمال نلاحظ ان قبح هذه الأعمال على درجة من الوضوح في أذهاننا بحيث لا يوجد عاقل يرتكبها .

هنا نستطيع بجملة مكثفة ان نجسد هذه الحقيقة ، فنقول: ان كل عاقل وسليم « مصون »من ارتكاب بعض الأعمال القبيحة ، وبعبارة أخرى ، انه « معصوم » منها .

ثم نخطو خطوة اخرى فنقول: هناك أشخاص معصومون من ارتكاب بعض الأعمال غير اللائقة التي لا يجد الناس العاديون حرجاً في ارتكابها .

فمثلاً ، هذا الطبيب العارف بأنواع الميكروبات لا يمكن أن يقبل الشرب من الماء الملوث الناتج عن غسل ملابس المرضى المصابين بمختلف الأمراض الفتاكة ، في الوقت الذي لا يجد شخص جاهل أمّي مانعاً من شربه .

وبتحليل بسيط نستنتج انه كلما كان وعي المرء بالنسبة لموضوع ما أعمق ، كانت « عصمته » ازاء ما ينافي ذلك أكبر .

والآن ، بالاستمرار في هذه المعادلة ، نقول: إذا كان « إيمان » شخص ما و« وعيه » وثقته بالله وبمحكمته العادلة من العمق بحيث انه يكاد يراها متجسدة أمام عينيه وشاخصة أمامه ، فان شخصاً هذا شأنه يكون ، دون ريب ، مصوناً من ارتكاب أي ذنب ، ويرى كل عمل قبيح كرؤية

العاقل الخروج إلى الشارع عارياً .

ان المال الحرام في نظر هذا الشخص أشبه بالجمر الملتهب فكما اننا لا نضعه في فمنا ، فهو كذلك لا يضع المال الحرام في فمه .

نستنتج من جماع هذا الكلام ان الأنبياء ، بما وهبهم الله من علم ووعي وإيمان خارق للعادة ، يستطيعون أن يخمدوا صوت كل دافع للعصيان بحيث أن أقوى المغريات لارتكاب الآثام لا تستطيع أن تغلب عقولهم وتضعف إيمانهم . وهذا هو معنى قولنا ان الأنبياء معصومون من كل إثم .

العصمة مدعاة للفخر

بعض الذين لا يدركون جيداً معنى العصمة وعواملها يعترضون قائلين : إذا كان الله هو الذي يحول بين الشخص وارتكاب الاثم ويزيل من كيانه عوامل ارتكاب الذنوب ، فلا يكون هذا مدعاة لفخر هذا الشخص ، إذ أن عصمته من الاثم إجبارية ، والفضيلة الاجبارية لا تكون مفخرة لأحد .

ان جواب هذا الاعتراض قد جاء في الإيضاحات التي مر ذكرها : ان عصمة الأنبياء من الاثم ليست اجبارية مطلقاً ، بل هي وليدة إيمان الأنبياء القوي الكامل وعلمهم الذي لا يدانيه علم ، وهذا مدعاة لأعظم الفخر!

إذا قام الطبيب بوقاية نفسه من الأمراض السارية ، فهل يدل هذا على انه مجبر على ذلك؟ وإذا قام شخص بالتزام قواعد الصحة بدقة تامة ، أفلا يدعو هذا إلى اعتزازه وفخره؟

وإذا تجنب حقوقي ارتكاب جريمة ما لكونه يعرف العقوبات القاسية التي تحكم بها المحاكم ، فهل يفقد بذلك فضله؟

وبناءً على ذلك ، فإن معصومية الأنبياء اختيارية ، وهي مفخرة عظيمة من مفاخرهم .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما هي تفرعات العصمة؟

٢ ـ ماذا كان سيحدث لو لم يكن الأنبياء معصومين؟

٣ ـ ما حقيقة مقام العصمة؟

٤ ـ هل تستطيع إيراد أمثلة ، غير التي وردت في الدرس يتصف الناس ، كلهم أو بعضهم ، بالعصمة من ارتكابها؟

٥ ـ هل عصمة الأنبياء اختيارية أم إجبارية؟ ما الدليل على ذلك؟



الدرس الرابع



أفضل الطرق لمعرفة النبي

لا شك ان تصديق ادعاءات كل مدع يعتبر خلاف العقل والمنطق .

ان مدعي النبوة وحامل رسالة الله قد يكون صادقاً ، إلا أن من المحتمل أن يقوم أحد الانتهازيين النصابين بادعاء النبوة . لذلك كان لا بد من وجود معيار دقيق نزن به دعوات الأنبياء وصحة مجيئهم من قبل الله .

هنالك طرق عديدة للوصول إلى هذه الغاية ، أهمها ما يلي :

١ ـ دراسة محتوى رسالة النبي ودعوته ، وتجميع القرائن والدلائل .

٢ ـ معجزاته الخارقة للعادة .

ولنبدأ أولاً بالكلام على الاعجاز ، فنقول:

ثمة أشخاص يتعجبون من كلمة « معجزة » ، أو يعتبرونها مرادفة للخرافات والأساطير . ولكننا إذا دققنا النظر في معنى المعجزة العلمي

لوجدنا ان هذه التصورات خطأ محض .

ليست المعجـزة عمـلاً مستحيـلاً ، ولا معلولاً لا علة لـه ، بـل المعجزة ، بتفسير بسيط ، هي عمل خارق للعادة ومما هـو فوق قـدرات الأفراد العاديين ، ولا تتحقق الا بالاستناد إلى قوة فوق الطبيعة .

وبناءً على ذلك لا تكون المعجزة الا بشروط:

١ ـ انها عمل ممكن ومقبول .

٢ ـ النـاس العاديـون ، وحتى النوابـغ منهم ، ليس بمقـدورهم أن يقوموا بمعجزة باستخدام القدرات البشرية .

٣ ـ لا بـد أن يكون صـاحب المعجـزة واثقـاً من نفسـه بحيث انـه يتحدى الناس ويدعوهم لمنافسته .

٤ ـ ان لا يستطيع أي شخص الإتيان بمثل تلك المعجزة ، أي أن يعجز الآخرون عن القيام بمثلها ، كما يفهم من معنى الكلمة .

٥ ـ المعجزة لا بد أن تأتي ممن يدعي النبوة أو الإمامة (ولذلك فان الأعمال الخارقة للعادة التي يأتي بها غير الأنبياء والأئمة تدعى كرامات ، لا معجزات) .

بعض الأمثلة الواضحة

نعلم جميعاً ان من معجزات النبي عيسى عليه السلام إحياءه الموتى وإبراءه المرضى الميؤوس منهم .

هـل هناك أي دليـل علمي وعقلي يثبت ان الانسان الـذي تتـوقف

أجهزة جسمه عن العمل والحركة لا يمكن أن يعود إلى الحياة مرة أخرى؟

هل هناك دليل علمي وعقلي على أن مرض السرطان الذي عجزنا عن شفائه ليس له في الحقيقة أي علاج؟

صحيح ان الإنسان بما يملكه في الوقت الحاضر من قوى وبما هو فيه من ظروف غير قادر على إحياء الموتى ولا إبراء بعض الأمراض . حتى وان تظافر جميع أطباء العالم واستعانوا بما لديهم من خبرات وتجارب .

إلا أن هذا لا يمنع من أن يقوم انسان يملك قوة إلهية خارقة للعادة واطلاعاً وعلماً يستقيان من بحر علم الله اللامتناهي ، بإحياء ميت ، أو بإبراء مريض ، بإشارة من يده .

العلم يقول: لا أدري « أنا عاجز » ولكنه لن يقول ان ذلك مستحيل .

مثال آخر: ان الوصول الى القمر بدون سفينة فضائية غير ممكن لأي إنسان . ولكن ما الذي يحول دون أن تكون هناك قوة أكبر مما عندنا من قوة ، ومركبة أكثر تقدماً مما لدى البشر ، توضع تحت تصرف شخص بحيث يتاح له أن يرحل الى القمر أو إلى الكرات الاخرى بغير سفينة فضائية والمركبة القمرية .

فإذا استطاع أحد أن يقوم حقاً بمثل هذه الأمور الخارقة للعادة ، وادعى النبوة وتحدى الناس الى أن يفعلوا مثله ، فعجز الجميع عن ذلك ، عندئذٍ نؤمن بأنه مرسل من قبل الله ، إذ لا يمكن أن يضع الله كل هذه القدرة في يد إنسان كذاب يدعو الناس إلى الضلال ، فتأمل!

المعجزات ليست خرافات

كان « الافراط » و« التفريط » دائماً منشأ الفساد والضياع وإخفاء وجه الحقيقة .

وهذا يصدق على المعجزة أيضاً . ففي الوقت الذي نجد فيه بعضاً من « المتنورين » ينكرون صراحة أو تلميحاً كل أنواع المعجزات ، نجد بعضاً آخر يصنعون من كل شيء معجزة ، فيبحثون عن الأخبار الضعيفة والقصص الخرافية التي صاغتها أيدي الأعداء ويعرضونها زاعمين أنها معجزات ، فيخلطون ملامح معجزات الأنبياء العلمية والحقيقية بالخرافات والأوهام المزيفة التي لا أساس لها من الواقع . فما لم تتطهر المعجزات الحقيقية من أمثال هذه الأساطير ، فان ملامحها الأصيلة لن تظهر للعيان .

لهذا ما فتىء علماؤنا العظام يعنون بأن تبقى الأحاديث الإسلامية التي تدور حول المعجزات بعيدة عن أمثال تلك الحكايات المزيفة المدسوسة .

وبناءً على ذلك وضعوا الكتب في « علم الرجال » للتعرف على الرواة الموثوق بهم ، ولتمييز الأحاديث « الصحيحة » من « الضعيفة » ، ولئلا تختلط الحقائق بالأوهام .

ان السياسات الاستعمارية والإلحادية نشطة اليوم لجعل الأفكار الواهية تقوم مقام العقائد الدينية الطاهرة وتسعى لإظهارها بمظهر « معتقدات غير علمية » . فعلينا أن نحبط مساعي الأعداء التخريبية .

اختلاف المعجزات عن خوارق العادات الاخرى

كثيراً ما نسمع عن أصحاب الرياضيات الروحية انهم قاموا بأعمال خارقة للعادة ، وان الذين شاهدوا تلك العجائب كثيرون . وهذا حقيقة لا أسطورة .

هنا يتبادر الى الذهن هذا السؤال: ما الفرق بين أعمال هؤلاء الخارقة للعادة ومعجزات الأنبياء؟ وكيف التمييز بينهما؟

لهذا السؤال أجوبة كثيرة ، أوضحها جوابان:

١ ـ هؤلاء المرتاضون يقومون بأعمال خارقة للعادة معينة ومحدودة ، أي انهم لا يمتثلون لمقترحات المقترحين بالقيام بأعمال يطلبها منهم هؤلاء . إنما هم يقومون بما يعرفون هم كيف يجيدونه بسبب كثرة التمرين .

وسبب هذا واضح ، اذ ان قوى كل شخص محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم إلّا بعدد محدود من الأعمال .

اما معجزات الأنبياء فليست لها حدود ولا شروط . فهم قادرون على الإتيان بمعجزة بحسب اقتراح الطالب وفي أي وقت ، لأنهم يستندون الى قوى الله اللامتناهية ، وهي التي لا تحدها حدود ، بخلاف قدرات الانسان .

٢ ـ العمل الذي يقوم به أحد المرتاضين يستطيع أن يقوم به مرتاض آخر ، أي انه ليس خارجاً عن قدرة البشر . ولهذا فان المرتاض لن يتحدى أحداً بطلب المنافسة ، لأنه يعلم انه لا بد أن يكون في أطراف المدينة

شخص أو أشخاص قادرون على الإتيان بمثل ما يفعل .

أما الأنبياء فإنهم يتحدون الناس بكل ثقة واطمئنان قائلين :

« لـو اجتمـع أهـل الأرض جميعـاً على أن يـأتـوا بمثـل مـا نــأتي لعجزوا » .

هذا الاختلاف يصـدق في « السحر » أيضـاً ، فالاختـلافان اللذان ذكرناهما يحددان الحد بين المعجزة والسحر أيضاً ، فتأمّل!

* * *

فكر وأجب

١ ـ لماذا تسمى « المعجزة » معجزة؟

٢ ـ هل المعجزة استثناء في قانون العلة والمعلول؟

٣ ـ ما الطرق التي بها نستطيع أن نميز المعجزة عن أعمال المرتاضين والسحرة؟

٤ ـ ما هي الشروط الأصيلة في المعجزة؟

٥ ـ هـل سبق لك ان شـاهدت عمـلاً يشبه المعجـزة في حياتك؟

الدرس الخامس



أعظم معجزة لنبي الاسلام

يعتقد جميع علماء الإسلام ان القرآن الكريم أعـظم معجزات نبي الإسلام . ان أفضلية القرآن آتية من كونه .

أولاً : معجزة عقلية تتعامل مع أرواح الناس وأفكارهم .

وثانياً: من كونه معجزة خالدة أبداً .

وثالثاً: من كونه معجزة قد مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً وهي تتحدى البشر كافة منادية: إذا كنتم تزعمون ان هذا الكتاب السماوي ليس من عند الله فأتوا بمثله . وقد جاء هذا التحدي مرات عـديدة في القـرآن الكريم :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا

يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] .

وفي موضع آخر يقول:

﴿ أم يقولون آفتَراهُ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ﴾[2] .

ثم يضيف مباشرة قائلاً:

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله ﴾ .

ثم يسهّل شروط التحدي فيقول:

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3] .

وفي الآية التالية يقول:

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ .

ان هذه التحديات المتتالية لمواجهة المنكرين ان دلّت على شيء فإنما تدل على أن أكثر استناد النبي صلّى الله عليه وآله كان على اعجاز القرآن ، على الرغم من انه كانت له معجزات اخرى أيضاً حسبما ورد في كتب التاريخ .

---

(1) سورة الإسراء ، الآية: ٨٨ .
(2) سورة هود ، الآية: ١٣ .
(3) سورة البقرة ، الآية: ٢٣ .

وبما أن القرآن هو المعجزة الحية الموجودة في متناول أيـدينا فـان بحثنا سيدور عليه أكثر .

كيف عجزوا عن قبول التحدي؟

مما يلفت النظر ان القـرآن ألحف كثيراً على منكـريه للنـزول إلى ميـدان المنافسـة ، مستعملاً تعبيـرات مهيجة مثيـرة ، لكي لا يبقى عـذر لأحــد ، تعبيـرات مثــل ﴿ **ان كنتم صـادقين** ﴾ و﴿ **فـان لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ و﴿ **لا يـأتون بمثله ولـو كان بعضهم لبعض ظهيـراً** ﴾ و﴿ **فأتـوا بسورة من مثله** ﴾ و﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس** ﴾ .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لم يكن الصراع بين الرسول الكريم والكفار صراعاً سهلاً ، اذ ان الاسلام لم يتهدد مصير دينهم ، الذي كانوا اشـد ما يكـونون تعلقـاً به ، فحسب ، بـل كـان خـطراً على مصـالحهم الاقتصادية والسياسية وحتى على كياناتهم .

وبعبارة اخرى ، كان تقدم الاسلام ونفوذه يحيلان حياتهم كلها إلى ركام ، لذلـك لم يكن أمامهم سـوى النزول الى ميـدان الصراع بكـل ما لديهم من قوة .

ولكي يجردوا نبي الاسلام من أقـوى سلاح عنـده ، كان عليهم أن يأتوا ، بأي ثمن كان ، ببضع آيات مثل آيات القرآن لكي لا يتحداهم به بعد ذلك ويعتبرهم جميعاً عاجزين أمـام هذا الـدليل القـوي على صدقـه وأحقيته .

فحشـدوا لذلـك فصحاء العـرب وبلغـاءهم ، ولكنهم كلمـا دخلوا

الميدان باؤوا بهزيمة منكرة ونكصوا على أعقابهم هاربين . وقد جاءت تفاصيل ذلك في كتب التاريخ .

حكاية الوليد بن المغيرة

من بين الذين دعوا لقبول تحدي القرآن كان الوليد بن المغيرة من بني مخزوم ، وكان معروفاً بين العرب بفكره الصائب وحسن تدبيره . فطلبوا منه أن يشير عليهم بتدبير ليرى رأيه في آيات القرآن العجيبة وتأثيرها الشديد في الناس .

فجاء الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وطلب منه أن يقرأ له بعض آيات من القرآن ، فتلى عليه النبي بضع آيات من سورة « حم » السجدة ، فأثارت هذه الآيات في الوليد انفعالات عارمة بحيث انه انطلق عائداً الى حيث كان بنو مخزوم مجتمعين وقال لهم: والله لقد سمعت كلاماً لا هو يشبه كلام البشر ولا كلام الملائكة « وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه » .

وشاع في أوساط قريش ان وليداً قد عشق محمداً! فهرع أبو جهل اليه وأخبره بما تقول قريش ، ودعاه إلى حضور مجلسهم ، فصحبه الوليد اليهم وقال لهم: أتحسبون ان بمحمد جُنّة؟ أرأيتم عليه منها أثراً؟ فقالوا: كلا .

فقال: أترونه كاذباً؟ ألم يشتهر بيننا بالأمانة والصدق حتى سميتموه الصادق الأمين؟

فقال بعض سراة القوم: فماذا ننسب اليه إذن؟

ففكّر الوليد برهة ثم قال لهم: قولوا انه لساحر!

وعلى الرغم من أنهم كانوا بإطلاق هذه الصفة عليه يريدون أن يبعدوا عنه الناس الذين سحرتهم آيات القرآن، فان اطلاق تعبير «السحر» ليدل دلالة قاطعة على قوة جاذبية القرآن، وانهم أطلقوا كلمة «السحر» على تلك الجاذبية، وان لم تكن سحراً في الواقع.

فراحت قريش تشيع مقولة الوليد في كل مكان عن أن محمداً ساحر ماهر، وان الآيات من سحره، وطلبوا من الناس الابتعاد عنه وان لا يستمعوا الى ما يقول.

إلا أن خطتهم هذه لم تفلح، وراح المتعطشون الى الحقيقة المنتشرون في الزوايا والحنايا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وآله زرافات ووحداناً، يرتوون من معين الرسالة الإلهية الرائق، ونكص الأعداء على أعقابهم.

واليوم أيضاً ما يزال القرآن يتحدى العالم بأسره ويطلبهم للمبارزة، قائلاً: إن كنتم ترتابون في صحة نسبة هذه الآيات الى الله، وتعتقدون انها من صنع أفكار بني البشر، فلتأتوا بمثلها، يا أيها العلماء والفلاسفة والأدباء والكتّاب، من كل قوم وملة!

وليس خافياً ان أعداء الإسلام، وبخاصة رجال الدين المسيحيين الذين يعتبرون الاسلام، كدين ثوري عميق المحتوى، منافساً خطيراً لهم، فيصرفون سنوياً ملايين الملايين من الدولارات للدعاوة ضد الاسلام وفي البلدان الاسلامية نفسها تحت واجهات مزيفة من ثقافية وعلمية

وصحية ، فما أحراهم أن يطلبوا من العلماء المسيحيين العرب وشعرائهم وأدبائهم وفلاسفتهم أن ينشئوا آيات كآيات القـرآن إن هم استطاعـوا الى ذلك سبيلاً ليسكتوا صوت الاسلام .

لا شك لو أن شيئاً كهذا كان ضمن قدراتهم لمـا توانـوا في تحقيقه بأي ثمن كان . غير أن عجزهم في هذا الأمر لدليل أسكت الأعداء وبرهان ناطق على إعجاز القرآن .

***

فكر وأجب

١ ـ لمـاذا يعتبـر القـرآن أهم معجـزة من معجـزات نبي الاسلام؟

٢ ـ كيف يتحدى القرآن أعداءه؟

٣ ـ لمـاذا اطلق أعـداء الاسـلام صفـة « السحـر » على القرآن؟

٤ ـ لماذا يعتبر الاسلام منافساً عنيداً للمسيحية اليوم؟

٥ ـ ما حكاية الوليد بن المغيرة؟

الدرس السادس

نافذة على اعجاز القرآن

لم الحروف المقطعة؟

نلاحظ في أوائل عدد من سور القرآن بعض « الحروف المقطعة » ، مثل ﴿ ألم ﴾ و﴿ ألمر ﴾ و﴿ يس ﴾ .

تقول بعض الروايات الاسلامية ان واحداً من أسرار هذه الحروف المقطعة هو ان الله يريد أن يرينا كيف أن هذه المعجزة الخالدة العظيمة ، القرآن ، قد بنيت من حروف الألفباء البسيطة التي تعتبر من أبسط مواد البناء ، وكيف ان هذا الكلام الرائع العظيم قد تألف من هذه الحروف التي يستطيع التكلم بها حتى الأطفال الصغار . لا شك إذن في أن ظهور هذا الأمر العظيم من هذه المواد البسيطة إعجاز لا يدانيه إعجاز .

هنا يتبادر للذهن أن يسأل: من أية ناحية يكون إعجاز القرآن؟ أمن حيث البلاغة والفصاحة ، أي من حيث حلاوة عباراته ودخولها الى القلب

بنفوذ عجيب ، أم ان هناك جوانب اخرى لإعجازه؟

الحقيقة هي انك من أي زاوية وجهة نظرت الى القرآن لطالعتك امارات الاعجاز واضحة . من ذلك مثلاً :

١ ـ الفصاحة والبلاغة : هنا تجد حلاوة الألفاظ والجاذبية العجيبة التي تتجلى لك في المعاني والمفاهيم .

٢ ـ المحتوى الرفيع وخاصة العقائد البعيدة عن كل انحراف .

٣ ـ المعجزات العلمية ، فالقرآن يكشف الستار عن مسائل علمية لم يكن الانسان قد اكتشفها يومذاك .

٤ ـ الاخبار عن الغيب والتنبؤ بحدوث بعض الحوادث في المستقبل .

٥ ـ ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا تشتت .

الفصاحة والبلاغة:

لكل كلام جانبان : « ألفاظه» و« محتواه » . عندما تكون الألفاظ والكلمات جميلة ولائقة وتتميز بالانسجام والترابط اللازم وخالية من التعقيد ، ويوصل تركيب الجمل المعنى المراد إيصالاً كاملاً وتاماً بطريقة مقبولة وجذابة ، قيل عن ذلك الكلام انه فصيح وبليغ .

وفي القرآن يتجسد هذان الجانبان تجسداً لا مزيد عليه ، بحيث ان أحداً لم يستطع حتى الآن أن يأتي بآيات وسور تضاهي آياته وسوره من حيث الجاذبية والحلاوة والتناغم .

قلنا في درس سابق ان الوليد بن المغيرة ، منتخب مشركي العرب ، هاجت مشاعره وانفعل عند سماع بضع آيات من القرآن ، ولم يتوصل تفكيره العميق الى إلصاق أي تهمة به إلا أن يصفه بالسحر وإلا ان يصف رسول الله بالساحر!

وعلى الرغم من أنهم راحوا يكررون إلصاق صفة السحر بآيات القرآن على سبيل الذم والتنديد ، الا ان ذلك كان في الواقع مدحاً وتكريماً ، إذ ان فيه اعترافاً ضمنياً بسيطرة القرآن الخارقة للعادة على السامع ونفوذه الى اعماقه . بحيث انك لا تستطيع ان تفسر ذلك تفسيراً عادياً ، الا ان تقول ان فيه جاذبية غامضة مجهولة .

ولكنهم بدلاً من أن يتقبلوا تلك الحقيقة ويعتبروها معجزة فيؤمنوا بها ، انحرفوا عن جادة الصواب وقالوا انها سحر وأساطير .

يذكر لنا التاريخ أمثلة كثيرة عن أشخاص غلاظ خشنين كانوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما أن يستمعوا الى بضع آيات منه حتى تتغير حالهم وتشرق شمس الإيمان في قلوبهم ، الأمر الذي يدل بوضوح على أن ما في القرآن من فصاحة وبلاغة معجز .

بل اننا في أيامنا هذه نجد العارفين بآداب اللغة العربية كلما كرروا تلاوة القرآن ازداد احساسهم بما فيه من حلاوة وما يثيره فيهم من لذة بحيث انهم لا يتعبون من تكرار تلاوته .

تتصف العبارات القرآنية بالدقة المتناهية المحسوبة ، فالقرآن عف البيان متين البنيان ، وهو في الوقت نفسه ناطق صريح ، وصارم شديد عند الاقتضاء .

ولا بد من الاشارة الى ان العرب يومئذٍ كانوا قمة في الفنون الأدبية من شعر ونثر وصناعة كلام ، وما زالت قصائد من الشعر الجاهلي تعتبر من أرفع الشعر ، وكان سوق عكاظ موضعاً يجتمع فيه فطاحل الشعراء كل سنة ينشدون فيه أشعارهم ويتنافسون في أجودها ، ويختارون أفضلها طراً ويعلقونها على جدار الكعبة باعتبارها خير قصيدة قيلت في تلك السنة . وعند ظهور الدعوة الاسلامية كانت هناك سبع قصائد ما زالت معلقة على حائط الكعبة ، اطلق عليها اسم « المعلقات السبع » .

ولكن بعد نزول القرآن لم يبق لتلك المعلقات أي لون ولا طعم ، فأزيلت الواحدة بعد الأخرى وطواها النسيان .

ولقد سعى المفسرون جهد طاقاتهم للإشارة الى دقائق الابداع الإلهي العجيبة في القرآن ، فيمكن الرجوع الى تلك التفاسير للتوسع في الاطلاع [1] .

ان معرفة القرآن تؤكد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبالغ حين قال :

« ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه » .

والامام علي أمير المؤمنين عليه السلام ، تلميذ مدرسة القرآن العظيم ، يقول في نهج البلاغة واصفاً القرآن :

« فيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ، وما للقلب جلاء غيره » .

* * *

(١) يمكنكم الرجوع إلى « تفسير نمونه » بهذا الخصوص .

فكر وأجب

١ ـ ما هي فلسفة الحروف المقطعة في القرآن؟

٢ ـ هل القرآن معجزة من جانب واحد أم من عدة جهات؟

٣ ـ لماذا أطلق أعداء النبي عليه صفة الساحر؟

٤ ـ ما الفرق بين الفصاحة والبلاغة؟

٥ ـ متى كانت « المعلقات السبع » وما معناها؟

الدرس السابع

نظرة القرآن الى العالم

قبل كل شيء ينبغي أن تتعرف على المحيط الذي نزل فيه القـرآن على الصعيدين الفكري والثقافي .

يجمع المؤرخون على ان أرض الحجاز كانت من أكثر بلدان العالم تخلفـاً بحيث انهم كانـوا يعبرون عن سكـانها بـأنهم متـوحشـون أو شبـه متوحشين . كانوا متمسكين بعبادة الأصنام تمسكاً شديداً ، يصطنعونها من الحجر والخشب بأشكال متنوعة ، فكانت تلقي بظلها المشؤوم على كـل ثقافتهم ، حتى قيل انهم كانوا يصنعون الأصنام من التمر ويسجدون لها ، ولكنهم إذا مستهم المسغبة أكلوها!

وعلى الـرغم من كرههم البنـات بحيث انهم كانـوا يئدونهن أحيـاء فانهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله . ويتنـزلون بـالله الى حد اعتبـاره إنساناً مثلهم .

كانوا ينتابهم العجب من التوحيد وعبادة إله واحد . وعندما دعاهم نبي الاسلام الى عبادة الله الأحد ، قالوا بدهشة :

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحدا ان هذا لشيء عجاب ﴾[1] .

وكانوا يلصقون صفة الجنون بكل من يخالف خرافاتهم وأساطيرهم المزيفة ويتعرض لمعتقداتهم الواهية .

كان النظام القبلي هو السائد على المجتمع ، حيث المنازعات القبلية كانت على أشدها ، حتى ان نار الحروب لم تخمد يوماً بينهم ، وكثيراً ما اصطبغت أرضهم بحمامات الدم ، يفتخرون بالقتل والنهب والسبي .

وإذا ظهر بينهم من يعرف القراءة والكتابة أصبح ناراً على علم ، وكان من النادر أن تعثر بينهم على عالم مفكر .

هذا هو المحيط الذي بزغ فيه إنسان أمي لم يدخل مدرسة ولا رأى معلماً ، ولكنه أتى بكتاب عميق المحتوى الى درجة ان العلماء والمفسرين ما يزالون بعد أربعة عشر قرناً مشغولين باستكناه معانيه واستخراج حقائق جديدة منه لا تنتهي .

ان الصورة التي يرسمها القرآن لعالم الوجود ونظامه صورة دقيقة مدروسة ، فيعرض التوحيد بأكمل حالاته ، ويعرض أسرار خلق الأرض والسماء والليل والنهار والشمس والقمر والنباتات والاشجار والانسان على

---

(١) سورة ص ، الآية : ٥ .

أن كلاً منها آية تدل على وحدانية الله الأحد .

ويتعمق احياناً في أغوار النفس الإنسانية ويتحدث عن التوحيد الفطري ، فيقول:

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون ﴾(٢) .

وقد يسلك سبيل العقل والمنطق لإثبات التوحيد مستنداً الى السير في الآفاق وفي الأنفس ، ومذكراً الانسان بأسرار خلق السماوات والأرض والحيوانات والجبال والبحار ، وهطول الأمطار ، وهبوب الرياح ودقائق أعضاء الإنسان:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾(٣) .

وعند الكلام على صفات الله يختار أعمقها وأجلبها للنظر ، فيقول: **﴿ ليس كمثله شيء ﴾**(٤) . وفي مواضع اخرى يقول:

﴿ هو الله الذي لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمٰن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المستكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق الباريء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض

---

(٢) سورة العنكبوت ، الآية: ٦٥ .
(٣) سورة فصلت ، الآية: ٥٣ .
(٤) سورة الشورى ، الآية: ١١ .

وهو العزيز الحكيم ﴾[٥] .

ويعبر تعبيراً جميلاً عن وصف علم الله ولا محدوديته ، فيقول :

﴿ ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٦] .

وعن إحاطة الله بكل شيء وحضوره في كل مكان ، يقول :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله ﴾[٧] .

﴿ وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[٨] .

وعندما يدور الكلام على البعث ويوم القيامة ، يواجه دهشة المشركين وإنكارهم بقوله :

﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ﴾[٩] .

في تلك الأيام التي لم يكن فيها قد تم اكتشاف التصوير وتسجيل

---

(٥) سورة الحشر ، الآيات : ٢٢ ـ ٢٤ .
(٦) سورة لقمان ، الآية : ٢٧ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .
(٨) سورة الحديد ، الآية : ٤ .
(٩) سورة يس ، الآيات : ٧٨ ـ ٨٢ .

الأصوات ، يقول القرآن بشأن أعمال الإنسان:

﴿ **يومئذٍ تحدث اخبارها * بأن ربك أوحى لها** ﴾[10] .

وقد يتحدث عن شهادة أعضاء الإنسان فيقول:

﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم** ﴾[11] .

﴿ **وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾[12] .

ان قيمة العلوم القرآنية وعظمة محتواها وخلوها من الخرافات لا تتضح إلا إذا وضعت الى جانب التوراة والإنجيل المحرفة كلماتها للمقارنة بين ما فيها ، لنرى ما تقول التوراة بشأن خلق آدم وما يقول القرآن بهذا الشأن .

وماذا تقول التوراة بشأن الأنبياء ، وما يقوله القرآن .

وما تقوله التوراة والإنجيل في وصف الله ، وما يقوله القرآن في ذلك . عندئذٍ يتبين الفرق واضحاً بينهما[13] .

* * *

(١٠) سورة الزلزلة ، الآيتان: ٤ ـ ٥ .
(١١) سورة يس ، الآية: ٦٥ .
(١٢) سورة فصلت ، الآية: ٢١ .
(١٣) لمزيد من التوضيح راجع كتاب « رهبران بزركه » .

فكر وأجب

١ ـ ماذا كانت خصائص المحيط الذي ظهر فيه القرآن؟

٢ ـ ماذا كان تأثير عبادة الأصنام في أفكار الناس؟

٣ ـ ما الفرق بين التوحيد الفطري والاستدلالي؟

٤ ـ كيف يصف القرآن الله ويعرّفه؟ مثّل لذلك .

٥ ـ ما أفضل الطرق لمعرفة محتوى القرآن؟

الدرس الثامن



القرآن والاكتشافات العلمية المعاصرة

لا شك ان القرآن ليس كتاباً من كتب العلوم الطبيعية أو الطبية أو النفسية أو الرياضية .

القرآن كتاب يهدي الإنسان ويصنعه ، فهو لا يترك شيئاً ضرورياً في هذا السبيل إلا وأتى به .

لذلك ليس لنا بالطبع أن نرى في القرآن دائرة معارف عامة ، بل لنا ان نجد فيه نور الإيمان والهداية والتقوى والإنسانية والأخلاق والنظام والقانون ، فهو يضم كل هذه الأمور .

غير ان القرآن ، للوصول الى هذه الأهداف ، يشير أحياناً الى جانب من العلوم الطبيعية وأسرار الخلق وعجائب عالم الوجود وخاصة خلال بحوث التوحيد والاستدلال بنظام الكون ، فيرفع الستار عن بعض أسرار عالم الخلق ويكشف أموراً لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً يومذاك

وفي ذلك المحيط ، حتى العلماء منهم .

هذه البيانـات تجتمع تحت عنـوان « معجزات القـرآن العلمية » ، نشير إلى بعض منها في ما يلي :

القرآن وقانون الجاذبية

لم يكن أحد قبل (نيوتن) يعرف شيئاً عن قانون الجاذبية العام . من المعروف ان (نيوتن) هذا كان يوماً جالساً تحت شجرة تفاح ، فانفصلت تفاحة من الشجرة وسقطت على الأرض ، فاستولى هذا الحدث الصغير على كل تفكيره وأمضى سنوات يفكر في القوة التي جذبت التفاحة اليها . لماذا لم تسقط الى السماء؟ وبعد سنوات توصل الى وضع قانون الجاذبية الأرضية التي تقول:

« تتجاذب الكتلتان بنسبة طردية مع حاصل ضرب كتلتيهما وعكسياً مع مربع المسافة بين مركزي ثقليهما » .

على اثر صياغة هذا القانون اتضح وضع المنظومة الشمسية .

لماذا تدور هذه الكواكب العظيمة كل في مدار حول الشمس؟ لماذا لا تهرب من هذا المدار وتنطلق في كل اتجاه؟ لماذا لا تتراكم بعضها فوق بعض؟ ما هذه القوة التي تمسك هذه الاجرام في مدارات دقيقة في هـذا الفضاء الشاسع ، دون أن تتجاوزها حتى بمقدار رأس الابرة؟

اكتشف (نيـوتن) ان حـركـة الجسم الـدائـريـة تجعله يبتعـد عن المركز ، وقانون الجـاذبية يجـذبه الى المـركز ، فـإذا ما تعـادلت هاتـان القوتان ، القوة الطاردة عن المركز ، والقـوة الجاذبـة نحو المـركز أي إذا

أوجدت « الكتلة » و« المسافة » من القوة « الجاذبة الى الـداخل » والقـوة « الطاردة الى الخارج » مقادير متعادلة ، بقي الجسم يـدور في مداره ولا يتعداه .

غير أن القرآن قبل أكثر من ألف سنة من اكتشاف هذه القوانين قال في الآية الثانية من سورة الرعد:

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى يدبر الأمر يفصـل الآيات لعلّكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ .

وقد جاء في تفسير هذه الآية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله:

« أليس الله يقول بغير عمد ترونها؟ قلت: بلى . قال: ثمّ عمد لكن لا ترونها » .

أهناك تعبير أوضح وأبسط في الأدب العربي من هذا القول عن قوة الجاذبية: أعمدة غير مرئية ، ليفهمه عامة الناس؟

وفي حديث عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام نقرأ:

« هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور » .

يقول العلماء المعاصرون ان بين نجوم السماء ملايين منها تسكنهـا كائنات حية وعاقلة ، وان لم يكتشفوا بعد تفاصيلها .

دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس

يقول التاريخ ان (غاليليو) الإيطالي كان أول من اكتشف دوران الأرض حول نفسها قبل نحو أربعة قرون ، بينما كان العلماء قبله يؤمنون بنظرية بطليموس المصري القائلة ان الأرض هي مركز الكون وان جميع الأجرام الأخرى تدور حولها .

وكان جزاء (غاليليو) على اكتشافه العلمي هذا ان حكمت الكنيسة بتكفيره ، ولم ينج من الموت إلا بإظهار الندم على اكتشافه ذاك . غير أن علماء آخرين تابعوا نظريته وأكدوها بحيث انها أصبحت اليوم من الأمور التي لا يختلف فيها اثنان ، بل لقد ثبت بالتجارب الملموسة ان الأرض تدور حول نفسها ، وخاصة بعد التحليقات الفضائية الأخيرة .

وعليه فقد فقدت الأرض مركزيتها بالنسبة للكون بعد أن تبين أننا كنا من قبل ضحية خطأ حواسنا ، فكنا نخلط حركة الأرض بحركة مجموعة الثوابت والسيارات ، اننا نحن الذين نتحرك ، وكنا نعتبرها هي التي تتحرك .

على كل حال ، لقد سيطرت نظرية بطليموس نحو ألف وخمسمائة سنة على عقول العلماء . وعند ظهور القرآن لم يكن أحد يجرؤ على القول بخلاف ذلك . ولكننا إذا ما رجعنا إلى آيات القرآن نجد أنه في الآية ٨٨ من سورة « النمل » يتحدث عن حركة الأرض فيقول:

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

هـذه الآية تشيـر بوضـوح الى حركـة الجبال مـع اننا نـراها سـاكنة جامدة . ان تشبيه حركتها بحركة السحاب يفيد السرعة مع الهدوء .

أما التعبير عن حركة الأرض بحركة الجبال ، فهو لكي يبين أهميـة الموضوع ، إذ لا حـركة للجبـال بغير حـركة الأرض من تحتهـا ، أي إن حـركتها هي حـركة الأرض نفسهـا ، سواء أكـان المقصود دورانهـا حول نفسها ، أم حول الشمس ، أم كليهما .

تصـوّر الآن عصراً كـانت فيه جميـع المحافـل العلميـة في العـالم والانســان العَـادي ، يؤمنــون بنـظريــة سكـون الأرض ودوران الشمس والكواكب الاخرى حولها ، ألا يكون الإخبار بحـركة الأرض بهـذا البيان معجزة علمية؟ خاصة ان المخبر انسان أمي لم يدخل مدرسة ، بل انه نشأ في محيط متخلف لا مدرسة فيه ولا تعليم ، أفلا يكون هذا دليلاً على كون القرآن كتاباً سماوياً؟

* * *

فكر وأجب

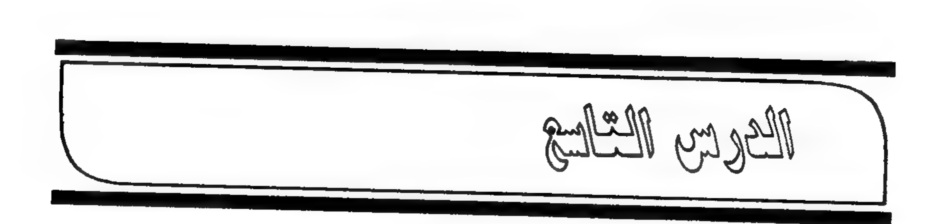
١ ـ ما المقصود بمعجزات القرآن العلمية؟

٢ ـ من اكتشف قانون الجاذبية ، ومتى كان ذلك؟

٣ ـ في أية آية يخبر القرآن عن قانون الجاذبية العام ، وكيف يعبر عن ذلك؟

٤ ـ لمن فرضية سكون الأرض ، ومن الذي اكتشف حركتها ، وكم ظلت تلك الفرضية تسيطر على العلماء؟

٥ ـ في أية آية يخبر القرآن عن حركة الأرض ، وكيف يعبر عن ذلك ؟



الدرس التاسع



دليل اخر على صدق نبوة نبي الاسلام

هناك طريق آخر غير طلب المعجزة لإثبات صحة دعوى النبـوة أو عدمها ، وهو طريق يعتبـر بحد ذاتـه دليلاً حيـاً آخر للوصـول إلى الهدف المنشود ، وذلك هو دراسة القرائن التالية وتوفر عدد منها في مدعي النبوة :

١ ـ مميزاته الأخلاقية وتاريخه الاجتماعي .

٢ ـ الظروف التي تسود المحيط الذي ظهرت فيه الدعوة .

٣ ـ الظروف الزمانية .

٤ ـ محتوى الدعوة .

٥ ـ خطط الدعوة التنفيذية ووسائل الوصول إلى الهدف .

٦ ـ مقدار الأثر الذي تتركه الدعوة في المحيط .

٧ ـ مقدار إيمان صاحب الدعوة بهدفه ومدى تضحيته في سبيله .

٨ ـ عدم التساوم مع الأعداء لحرفه عن طريقه .

٩ ـ سرعة تأثير الدعوة في الرأي العام .

١٠ ـ دراسة الذين يؤمنون بالدعوة وطبقتهم الاجتماعية .

علينا أن ندرس هذه الأمور دراسة دقيقة وأن ننظم ملفاً خاصاً بذلك بحيث يسهل علينا معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه .

والآن بعد الأخذ بنظر الاعتبار النقاط السابقة ، نباشر باجراء ، دراسة دقيقة ومكثفة عن شخص نبي الاسلام ، على الرغم من ان هذا يتطلب المجلدات الكثيرة :

١ ـ فيما يتعلق بمميزات نبي الاسلام الأخلاقية ، فان كتب التاريخ التي كتبها المحبون والكارهون تؤكد لنا انه كان على درجة من الطهارة والنقاء والاستقامة بحيث انهم في ذلك العصر الجاهلي وصفوه بالصادق الأمين . يقول التاريخ : عندما أراد الهجرة إلى المدينة طلب من عليّ عليه السلام أن يؤدي عنه الأمانات إلى أصحابها .

أما شجاعته وثباته وحسن خلقه وسعة صدره وفتوّته وتضحياته فيمكن التعرف عليها من خلال حروبه وفترات سلمه . وعلى الأخص نجد ان العفو العام الذي أصدره بالنسبة لأهل مكة بعد فتحها واستسلام أعدائه الألداء للمسلمين خير دليل حيّ على خُلقه النبيل .

٢ ـ اننا نعلم ان الناس العاديين ، بل حتى النوابغ منهم ، يصطبغون بصبغة المحيط الديني الذي يعيشون فيه شاؤوا أم أبوا ، وان يكن

اصطباغهم على درجات متفاوتة .

تصور ، إذن ، رجلاً عاش أربعين سنة في محيط كله جهل وعبادة أصنام ، وتسوده ثقافة الخرافات والأباطيل ، كيف يمكن له أن يدعو إلى التوحيد الخالص ، وأن يبادر إلى مصارعة مظاهر الشرك كلها؟ كيف يمكن أن يصدر عن محيط جاهل أعلى التجليات العلمية التي تغشي الأبصار؟ أيمكن أن نصدق ان ظاهرة عجيبة كهذه يمكن أن تظهر إلى الوجود بغير أن تكون مؤيدة من الله من ما وراء الطبيعة؟

٣ ـ علينا أن نعرف العصر الذي ظهر فيه النبي . لقد كان عصر القرون المتوسطة ، عصر الاستبداد والمحاباة والامتيازات الظالمة ، عصر العنصرية والطبقية . تعال نستمع إلى وصف ذاك العصر من لسان علي ابن أبي طالب عليه السلام ، إذ يقول:

« بعثه والناس ضلّال في حيرة ، وحاطبون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلّتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل . . . »[1] .

فتصور ديناً شعاره المساواة بين الناس والقضاء على التبعيض العرقي والطبقي : ﴿ **انما المؤمنون أخوة** ﴾ كيف ينسجم مع مثل ذلك العصر؟

٤ ـ محتوى دعوته التوحيد من جميع الجهات إلغاء الإمتيازات الظالمة ، توحيد عالم الانسانية ، مكافحة الظلم والجور ، إقامة حكومة

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٩٥ (اعداد صبحي الصالح) .

عالمية ، الدفاع عن المستضعفين ، واعتبار التقوى والطهارة والأمانة من أهم معايير القيم الإنسانية .

٥ ـ بالنسبة للخطط التنفيذية لم يُجِز أبداً المقولة القائلة « ان الغاية تسوّغ الواسطة » للوصول إلى أهدافه المقدسة . كان يقول:

﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا ﴾(٢) .

اما علو أخلاقه فيتضح من تعليماته في التزام المبادىء الأخلاقية في ميادين الحرب ، عدم الاعتداء على غير المقاتلين ، الامتناع عن قطع شجرة ، وعن تلويث مياه شرب العدو ، ومعاملة الأسرى بكل محبة ، وعشرات أخرى من أمثال هذه التعليمات .

٦ ـ مقدار تأثير دعوته في ذلك المحيط كان من الشدة بحيث ان الأعداء كانوا يخشون الاقتراب منه ، خوفاً من أن ينجذبوا إليه ، فكانوا إذا أخذ يتكلم يثيرون الجلبة والضوضاء لئلا يسمع الناس ما يقول فتنجذب إليه قلوبهم العطشى . ولكي يموهوا على الناس تأثيره المعجز وصفوه بالساحر الذي ينطق بالسحر ، وهذا بذاته اعتراف ضمني بقوة تأثير دعوته الخارقة للعادة .

٧ ـ أما مقدار تضحيته في سبيل دعوته ، فلقد كان أشد الناس إيماناً بهذا الدين الذي عهد إليه به .

في بعض الحروب التي فرّ منها الجديدون على الاسلام ، وقف هو

---

(٢) سورة المائدة ، الآية: ٨ .

بثبات ، ولم ينفع معه ترغيب الأعداء ولا ترهيبهم ، بل ظل ثابتاً على دينه ، لا يظهر عليه شيء من الضعف والتردد .

٨ ـ كثيراً ما سعوا لجره إلى التساوم مع المنحرفين ، ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة عن موقفه ، بل قال:

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته » .

٩ ـ لم يكن تأثير دعوته في الرأي العام عجيباً فحسب ، بل كانت سرعة انتشارها خارقة للعادة أيضاً .

ان الذين قرأوا ما كتبه المستشرقون الغربيون حول الاسلام لا بد أنهم لاحظوا ان أولئك يبدون دهشتهم من سرعة انتشار الاسلام من هؤلاء ثلاثة من الاساتذة الغربيين الذين كتبوا عن تاريخ حضارة العرب يعترفون بهذه الحقيقة دون مواربة ، ويقولون:

« على الرغم من البحوث والدراسات التي أجريت لمعرفة سبب انتشار الاسلام السريع في العالم بحيث انه سيطر على جانب واسع من العالم في أقل من قرن ، فإن القضية ما زالت غامضة » .

نعم ، انه للغز غامض! ترى كيف استطاع الاسلام في ظروفه تلك ان ينفذ إلى قلوب ملايين الناس بتلك السرعة العجيبة ، وان يهضم في ذاته مختلف الحضارات ويخلق حضارة جديدة؟!

١٠ ـ نصل أخيراً إلى اعدائه ، فقد كانوا من رؤساء الكفر والظالمين المستكبرين والكانزين للأموال والأنانيين ، في الوقت الذي كان فيه الذين

آمنوا به ، في غالبيتهم ، فتية طهرت قلوبهم فراحوا يطلبون الحق ، وهم جميع الفقراء المحرومين والعبيد ، أناس ما كان لهم من رأس مال سوى الطهارة وصفاء النفس والتعطش إلى الله .

من مجموع هذه البحوث ـ التي يطول شرحها وتفصيلها ـ يمكن أن نستنتج أن دعوته دعوة إلهية ، دعوة انبعثت مما وراء الطبيعة ، وانه قد بعثه الله لينقذ الانسان من الفساد والضياع والجهل والشرك والظلم والجور .

***

فكر وأجب

١ ـ هل هناك طريق لمعرفة صدق النبي غير طريق المعجزة؟ ما هي ؟

٢ ـ ما هي القرائن التي نقول أننا يجب أن نجمعها ، وما النقاط التي يجب أن نؤكد عليها؟

٣ ـ بيِّن ما تعرفه عن العرب خصوصاً والعالم عموماً في العصر الجاهلي .

٤ ـ هل يمكن معرفة شيء من المقارنة بين حال العرب قبل الاسلام وبعده؟

٥ ـ لماذا اتهم أعداء الاسلام النبي بالسحر؟

الدرس العاشر

نبي الاسلام خاتم الانبياء

معنى الختم

نبي الإسلام آخر أنبياء الله ، فيه اختتمت سلسلة النبوة ، وهذا من « ضرورات الدين الاسلامي » .

والضرورة هنا تعني ان من يدخل صفوف المسلمين سرعان ما يدرك ان جميع المسلمين يحملون العقيدة نفسها وهي من الأمور الواضحة والمسلّم بها عندهم . فمثلما ان كل شخص له تعامل مع المسلمين يعلم انهم يؤكدون مبدأ « التوحيد » يعلم أيضاً انهم متفقون جميعاً على ان نبي الاسلام هو خاتم الأنبياء ، وليس هناك أي مسلم يتوقع مجيء نبي جديد .

والواقع ان قافلة البشرية قد طوت خلال مسيرتها نحو التكامل مراحل عديدة ومختلفة الواحدة بعد الأخرى حتى بلغت مرحلة من الرشد والتكامل تستطيع معها أن تقف على قدميها ، أي أنها تستطيع ان تحل جميع

مشكلاتها باتباع التشريعات الاسلامية الجامعة .

وبعبارة اخرى: ان الاسلام هو القانون النهائي الشامل في مرحلة بلوغ البشرية ونضجها ، فهو من حيث العقائد بلغ الكمال في محتواه ، ومن حيث التطبيق العلمي بلغ أعلى مراحله في التنظيم بحيث انه يسد حاجات الانسان في كل عصر وزمان .

الدليل على ان النبي خاتم الأنبياء

هنالك لإثبات هذا القول أدلة عديدة ، أهمها ما يلي :

١ ـ ضرورة هذه القضية : قلنا ان من يتصل بالمسلمين في أي مكان من العالم يدرك انهم يعتقدون بأن نبي الاسلام هو خاتم الأنبياء ، وعليه فإذا تقبل أحد الاسلام عن طريق الدليل والمنطق ، فلا مندوحة له من أن يقبل بمبدأ اختتام النبوة بنبي الاسلام . وبما اننا في الدروس السابقة أثبتنا صحة هذا الدين وصدقه بالأدلة الكافية ، فلا بد من القبول بأن مبدأ ختم النبوة بنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله من ضرورات هذا الدين .

٢ ـ في القرآن آيات تؤكد كون النبي هو خاتم الأنبياء ، منها :

﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[1] .

وقد نزلت هذه الآية في الوقت الذي راج فيه بين العرب تبنّي الأبناء ، اذ كانوا يتبنون أبناء أبوين آخرين ويتخذونهم أبناء حقيقيين لهم

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية: ٤٠ .

ضمن أفراد الأسرة ، يرثونهم ومحرم عليهم .

غير ان الاسلام ألغى هذه العادة الجاهلية ، وقال ان الابن بالتبني لا يمكن أن يكون كالابن الشرعي من حيث الحقوق القانونية ، بما فيهم « زيد » الذي كان نبي الاسلام قد تبنّاه ، فجاءت الآية تقول للمسلمين انكم بدلاً من أن تصفوا النبي بكونه أباً لأحد ، صفوه بصفتيه الحقيقيتين : كونه رسول الله ، وكونه خاتم النبيين . وهذا يدل على ان هاتين الصفتين كانتا من الأمور المسلَّم بهما بين المسلمين .

السؤال الوحيد الذي يطرأ هنا هو ما المعنى الحقيقي للختم؟ « الخاتم من مادة ختم » التي تعني بلوغ نهاية الشيء ، مثل الختم الذي كان يوضع في نهاية الخطاب المكتوب . ومن هنا وضعت كلمة « الخاتم » على ما يلبس في الأصابع ، لأن فص الخواتم كان ينقش عليه اسم أو رسم ويستعمل لختم المكاتبات في ذلك الزمان ، وكل ختم كان يخص شخصاً بعينه .

جاء في الروايات الاسلامية : عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكتب الرسائل لملوك العصر وزعمائه يدعوهم إلى الاسلام ، قيل له ان من عادة ملوك العجم انهم لا يقبلون كتاباً ما لم يكن فيه ختم صاحبه . وذلك لأن رسائل النبي حتى ذلك الحين كانت خلواً من ختم . فأمر أن يحفروا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » على فص خاتم ، وأخذ يختم به رسائله منذئذٍ .

وعليه ، فإن المعنى الأصلي للخاتم هو وضع النهاية والاختتام .

٣ ـ هنالك أحاديث كثيرة تبين كون النبي كان آخر الأنبياء وخاتمهم ، منها الحديث المعتبر المروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال:

« مثلي بين الأنبياء كمثل من بنى داراً كاملة لا تنقصها إلا آجرة واحدة ، فمن دخلها اعجب بجمالها ولكن يعيبها هذا النقص . فأنا تلك الآجرة الناقصة والأنبياء ختموا بي » .

وقد قال الامام الصادق عليه السلام :

« حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة »[٢] .

وثمة حديث يذكره الشيعة والسنة انه قال لعلي عليه السلام :

« أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثمة تساؤلات تبرز في موضوع ختم النبوة لا بد من الاشارة اليها:

١ ـ يقول بعضهم ان إرسال الأنبياء فيض إلهي عظيم فلماذا حرم أناس هذا الزمان من هذا الفيض؟ لماذا لا يكون لأهل هذا الزمان هاد وقائد جديد يهديهم ويقودهم؟

ان الذين يقولون هذا قد غفلوا ، في الحقيقة ، عن نقطة مهمة ، وهي ان حرمان عصرنا لم يكن لعدم جدارتهم ، بل لأن قافلة البشرية في

---

(٢) أصول الكافي : ج١ ص٥٨ .

هذا العصر قد بلغت في مسيرتهـا الفكريـة وفي وعيها مـرحلة تمكنها من إدامة مسيرتها باتباع الشريعة .

ولنضرب هنا مثلاً :

أولو العزم هم الأنبياء الذين جاؤوا بدين جديد وبكتاب من السماء ، وهم خمسة (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) عليهم السلام . وقد ظهر هؤلاء كل في فترة معينة من الزمان ، وسعـوا لهدايـة البشر ووضعهم على طريق التكامـل ، فأوصـل كل منهم القـافلة البشريـة من مرحلة إلى المرحلة التي تليها وسلمها إلى النبي الذي يليـه من أُولي العزم ، إلى أن بلغت القافلة من مسيرتهـا إلى الطريق النهـائي ، كما بلغت القـدرة التي تمكنها من مواصلة مسيرتها وحدها نهايتها ، مثلها مثل التلميذ الذي يطوي مراحل الدراسة الخمس حتى يتخرّج في الكلية (وبالطبع لا يعني هذا انه انتهى من التعلم ، بل يعني أهليته للاستمرار بمفرده دونما حاجة إلى معلم أو مـدرسـة) . وهـذه المـراحـل هي : المـرحلة الابتـدائيـة ، المـرحلة المتـوسطة ، المـرحلة الاعداديـة ، المرحلة الجـامعية ، وأخيـراً مـرحلة الحصول على الدكتوراه .

فإذا لم يواصل دكتور الدراسة في الجامعة ، فلا يعني هذا انه ليس جـديراً بـالدراسـة ، بل يعني ان لـديه من المعلومـات ما يمكنـه من حل مشكلاته العلمية بالاستعانة بهـا ، ومن الاستمرار في مـطالعاتـه ومواصلة تقدمه .

٢ ـ لما كان المجتمع البشري دائم التغيـر ، كيف يمكن أن تكون

التشريعات الاسلامية الثابتة قادرة على مواجهة تلك التغيرات؟

في الجواب نقول: في الاسلام نوعان من التشريعات: نوع هو أشبه ما يكون بصفات الانسان الثابتة ، فهو أيضاً ثابت لا يتغير ، مثل لزوم الاعتقاد بالتوحيد ، وتطبيق العدالة ، ومكافحة كل أنواع الظلم والتعسف والعدوان وأمثالها .

أما النوع الآخر من التشريعات فيتألف من مجموعة من القواعد الكلية العامة التي تتخذ أشكالاً جديدة بحسب تغير مواضيعها بحيث أنها تسد الحاجة في كل عصر وزمان .

فمثلاً هنالك مبدأ عام في الاسلام يقول: « أوفوا بالعقود » لا شك ان تعاقب الأزمان يخلق أنواعاً جديدة من العقود الاجتماعية والتجارية والسياسية المفيدة التي يستطيع الانسان أن يعقدها مع أخذ المبدأ الأصلي بنظر الاعتبار .

هنالك قاعدة كلية اخرى هي « قاعدة لا ضرر » التي تعني ان كل حكم أو قانون يسبب الضرر للفرد أو المجتمع يجب أن يتحدد بحدود . لاحظ كيف ان هذه القاعدة الاسلامية العامة تمنع الاضرار بالآخرين وتحل المشكلات .

ان في الاسلام الكثير من أمثال هذه المبادىء الكلية العامة التي يمكن بتطبيقها حل أعقد المشكلات التي قد تبرز في الحياة الاجتماعية .

٣ ـ لا شك اننا في المسائل الاسلامية بحاجة إلى القائد وعند عدم وجود النبي وغياب وصيه تتوقف قضية القيادة ، كما ان اختتام النبوة بنبي

الاسلام لا يكون معه انتظار لنبي آخر ، أفلا يعني هذا خسارة للمجتمع الاسلامي؟

في الجواب نقول: هذه الحالة أيضاً قد تم الاعداد لها من جانب الاسلام ، فعن طريق « ولاية الفقيه » يمنح الفقيه الجامع للشروط من علم وتقوى ورؤية سياسية على مستويات عالية حق القيادة . كما ان أسلوب معرفة مثل هذا القائد قد بينه الاسلام في قوانينه . وعليه فليس هناك ما يدعو إلى القلق من هذه الناحية .

وبناءً على ذلك فان مبدأ « ولاية الفقيه » استمرار لخط الأنبياء وأوصيائهم . ان قيادة الولي الفقيه الجامع للشروط دليل على ان المجتمع الاسلامي لم يترك بدون رعاية وهداية[٣] .

---

(٣) لمزيد من التوضيح راجع كتابنا « طرح حكومت إسلامي » .

فكر وأجب

١ ـ ما المعنى الدقيق لكلمة « خاتم »؟

٢ ـ كيف نستدل من آيات القرآن على ان النبي خاتم الأنبياء؟

٣ ـ لماذا حرم الناس في عصرنا من ظهور الأنبياء بينهم؟

٤ ـ ما أنواع القوانين الاسلامية ، وكيف تسد حاجات كل زمان؟

٥ ـ هل يمكن للمجتمع الاسلامي أن يبقى بدون قائد؟ كيف حلّت مسألة القيادة الاسلامية في عصرنا؟

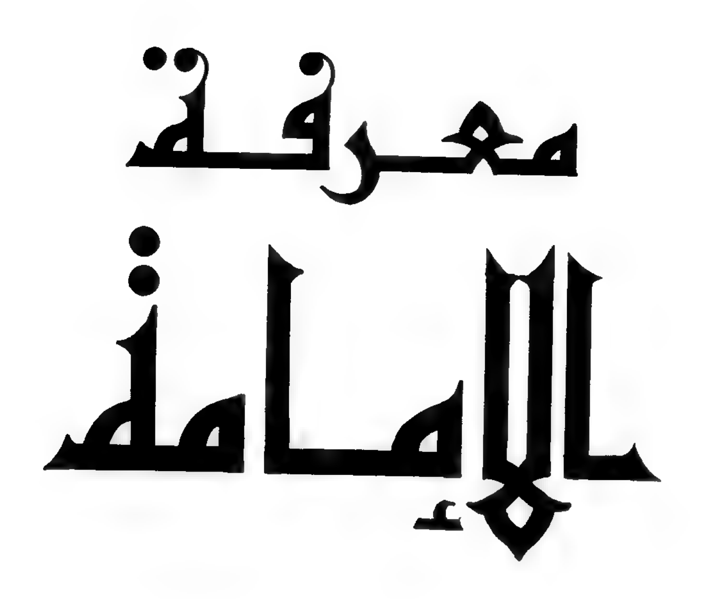
الفهرس


معرفة
الإمامة



سلسلة أصول الدين

٣



تأليف

ناصر مكارم الشيرازي

ترجمة

جعفر صادق الخليلي



الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

دار الصفوة

لبنان - بيروت - بئر العبد خلف محطة دياب

تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+)

ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com

المقدمة

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان عموماً يؤمن بما تهواه نفسـه وتميل إليـه حسب فطرته من الأصول والعقائد التي يعتنقها ويلتزم بها .

ومما لا شكَّ فيـه أن المسلم خصوصـاً الذي يؤمن بـالإسلام دينـاً بحسب فطرته يؤمن بأصول عقائد الدين الإسلامي .

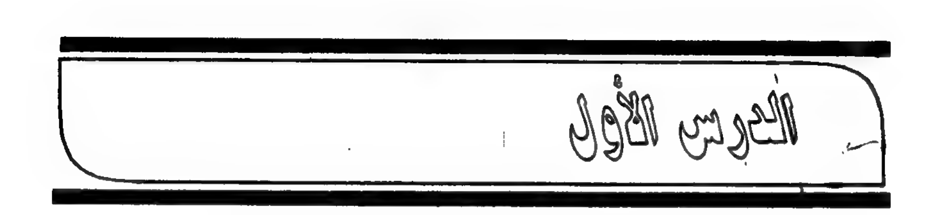
ولكنه بالرغم من تمسكه وإيمانه بأصول الـدين إلا أنه قـد تواجهـه الكثير من المشاكل إذا ما جوبه ببعض الشكوك والشبهات التي قـد تؤدي الى زعزعة إيمانه وتمسكه بهذه العقائد ، لعدم فهمه واستيعـابه لهـا فهماً عميقاً وبالاستدلال والإثبات المنطقي .

لذا فإن هذا الكتاب من نفحات آية الله ناصر مكارم الشيرازي يمتاز بكونه يمنح الإنسان المسلم تلك القوة التي ترسخ بذاتـه إيمانـه وتمسكه بأصول الدين وعقائد الإسلام . ويمتاز الكتاب أيضاً ببساطته وسلاسته التي

تجعل منه كتاباً في متناول عامة الناس وخاصتهم .

نسأل المولى العليّ القدير التوفيق والسداد لما فيه الخير والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر


الدرس الأول



متى بدأ البحث في الامامة؟

بعد ان توفي نبي الاسلام انقسم المسلمون الى فريقين: فريق قال ان النبي صلى الله عليه وآله لم يعين خليفة بعده، وانه أوكل ذلك الى الامة كي تختار بنفسها قائداً لها. هذا الفريق هم «أهل السنّة».

الفريق الآخر قال ان خليفة الرسول صلى الله عليه وآله يجب أن يكون معصوماً مثله من الخطأ والاثم، عالماً، قادراً على قيادة الأمة قيادة معنوية ومادية، والحفاظ على مبادىء الاسلام الأصيلة وإدامتها.

يقول هؤلاء ان مثل هذا الخليفة يجب أن يعيّنه الله عن طريق رسوله، وان رسول الله قد فعل ذلك، وعيّن علياً عليه السلام خليفة له. وهؤلاء هم «الإمامية» أو «الشيعة».

ان هدفنا من هذه البحوث المكثفة هو أن نتابع هذه القضية على

هدى الأدلة العقلية والتاريخية والآيات القرآنية والسنَة النبوية .

ولكن قبل الدخول في الموضوع لا بد من الاشارة الى بضع نقاط :

١ ـ هل البحث في هذا الموضوع يثير الخلاف؟

بعض الناس ما أن يطرق سمعهم الكلام على الامامة حتى ينبـرون فـوراً قائلين ان الـظرف اليوم لا يسمـح بذلـك . فاليـوم هـو يـوم وحـدة المسلمين ، بينما الكلام على خليفة نبي الاسلام سيكون مدعـاة للتفرقـة وتشتت الكلمة ، أو ان لنا اليوم أعداء مشتركين يجب أن نوجـه اهتمامنـا إليهم : الصهيونية والاستعمـار الغربي والشـرقي . وعليه يجب أن نتجنب المسائل المختلف فيها .

غير ان هذا الطراز من التفكير خطأ محض ، للأسباب التالية :

أولاً : ان ما يسبب الخلاف والتشتت يدخل ضمن البحوث المتعصبة غير المنطقية المثيرة للأحقاد .

أمـا البحث المنطقي الاستـدلالي البعيـد عن التعصب واللجـاجـة والخصام ، والذي يجري في جو من الود الحميم ، فانه فضلاً عن كونه لا يسبب التفرقة فانه يقلل مسافة الانفصال ويقوي نقاط الالتقاء المشتركة .

انني في سفـراتي المتكررة لـزيـارة بيت الله الحـرام بمكـة ، ومن مبـاحثاتي مـع علماء أهـل السنّـة ، كنت أحسّ ، كمـا كـانـوا هم أيضـاً يحسّون ، بأن هذه المباحثات فضلاً عن كونها ليس لها أي أثر سيـىء على

علاقاتنا ، فانها أبعث على التفاهم وحسن الظن ، والتقارب وإزالة ما قد يكون في بعض الصدور من ضغينة .

المهم ان هذه البحوث تنير الكثير من نقاط الإلتقاء فيما بيننا ، مما يمكن لنا أن نستند اليها في مواجهة أعدائنا المشتركين .

ينقسم أهل السنّة أنفسهم أقساماً أربعة : الحنفية ، والحنابلة ، والشافعية ، والمالكية ، ومع ذلك فان هذا الانقسام لم يتسبب في تفرقتهم ، واذا ما اعتبروا فقه الشيعة ، في الأقل ، مذهباً فقهياً خامساً فان الكثير من العقد والتشتت يزول من الوجود ، كما حدث فعلاً بعد أن خطا مفتي أهل السنّة الكبير ، شيخ الأزهر ، الشيخ شلتوت ، تلك الخطوة المهمة بإعلانه المذهب الشيعي مذهباً إسلامياً رسمياً ، فكان بذلك عوناً كبيراً ومؤثراً في عملية التفاهم الاسلامي ، وانعقدت بينه وبين المرحوم آية الله البروجردي ، مرجع عالم التشيع الكبير ، أواصر الصداقة .

ثانياً: اننا نعتقد ان الاسلام قد تبلور في المذهب الشيعي أكثر من أي مذهب آخر . وفي الوقت الذي يحترم مذهب الشيعة المذاهب الاسلامية ، فإننا نعتقد ان المذهب الشيعي أقدر على تعريف الاسلام الصادق بجميع أبعاده ، وعلى حل القضايا بالحكومة الاسلامية .

فلماذا لا نعلّم أبناءنا هذا المذهب والمنطق؟ بل اننا إن لم نفعل فقد خنّاهم!

اننا على يقين تام بأن النبي قد عيّن خليفته من بعده ، فما الذي يحول دون تتبع هذا الموضوع على هدى الاستدلال والمنطق؟ انما نحن

ملزمون في أمثال هـذه البحوث ان نحـذّر كي لا نجرح مشـاعر الآخـرين المذهبية .

ثـالثـاً: ان أعـداء الاسـلام ، لكي يـوقعـوا بين المسلمين ويفكـوا وحـدتهم لم يألـوا جهداً في اتهـام الشيعـة عنـد أهـل السنـة بشتّى التهم والافتراءات ، كما انهم لم يألوا جهـداً في اتهام أهـل السنّة عنـد الشيعة بشتّى التهم والافتـراءات ، بحيث انهم استـطاعـوا في بعض البلدان أن يحققوا القطيعة بينهم . اننا عندما نعرض موضـوع « الامامـة » بالاسلوب الذي سبق ذكره ، نوضح النقاطِ التي يستند عليها الشيعة لتـوثيق رأيهم ، مـع أدلة من الكتـاب والسنّة ، يتبين تمـاماً ان كـل تلك الدعـاوى كـانت كاذبة ، وان أعداءنا المشتركين هم الذين بثوا تلك السموم .

كمثال على ذلك، لا انسى أنني في أحدى زياراتي للحجاز التقيت احد كبار رجال الدين السعوديين وجرت بيننا بحوث، فكان يقول انه سمع ان للشيعة قرآناً يختلف عن قرآنهم .

فـاستولى عليّ العجب ، ولكني قلت لـه : أخي ، ان التحقق من هذا الأمر سهل للغاية . إنني ادعوك شخصياً أو من يمثلك أن تأتي معي ، بعد انتهاء العمرة ، إلى إيران دون اخبار احد . هناك ستجد في كل شارع وزقاق مسجداً ، وفي كل ، مسجد ستجد عدداً من المصحف الشريف ، كما أن القرآن موجود في بيوت جميع المسلمين . ولسوف نزور أي مسجد شئت ، أو نطرق باب أي منزل أردت ونطلب منهم أن نرى القرآن الـذي يتلونه ، وعندئذ يتبين ان كان هناك أي اختلاف ، حتى في كلمة واحدة أو

في حرف واحد ، بين ما عندنا وعندكم من كتاب الله بل ان الكثير من نسخ المصحف الشريف المتداولة عندنا هي من طبع الحجاز أو مصر أو سائر البلاد الاسلامية .

لا شك أن هذا الكلام الأخوي الصادق المنطقي تماماً قد ازال من ذهن أحد الرجالات المعروفين تلك السموم العجيبة .

وعليه ، فإن الحديث فيما يتعلق بالإمامة ـ بالاسلوب الذي ذكرناه ـ يقوي وحدة المسلمين ويساعد على القاء الضوء على الأمور ويضيق من شقة التباعد .

٢ ـ ما هي الإمامة ؟

« الإمام » كما هو واضح من الكلمة ، هو الذي يقتدى به في الاسلام ويتقدم المسلمين ويقودهم . وفي عقائد الشيعة يطلق « الإمام المعصوم » على من يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل شيء ، سوى ان النبي هو مؤسس الاسلام ، والإمام حافظه وحاميه ، والنبي يتلقى الوحي ، والإمام لا يأتيه الوحي ، بل يأخذ تعليماته من رسول الله صلى الله عليه وآله ويمتاز بعلم غزير خارق للعادة .

الإمام المعصوم ، عند الشيعة ، لا يعني رأس الحكومة الاسلامية فحسب ، بل هو القائد « المعنوي » و« المادي » و« الظاهري » و« الباطني » وقائد كل جوانب المجتمع الاسلامي أيضاً . انه عليه تقع مسؤولية حماية العقائد والاحكام الاسلامية بدون أي خطأ أو انحراف ، وهو عبد اختاره الله من بين عبيده .

إلّا أن اهل السنة لا يفسـرون الإمامـة هكذا ، وانمـا هم يعتبرونـه رئيس حكومة المجتمع الاسلامي . وبعبارة اخرى انهم يعتبـرون الحكام في كل عصر وزمان خلفاء رسول الله وأئمة المسلمين !

ولسوف نثبت في بحوثنـا التاليـة أنه يجب أن يكـون في كل عصـر وزمان ممثل إلهي نبي أو إمام معصوم ـ على هـذه الارض ، لكي يحرس هذا الدين الحق ، ويهدي السائـرين الى الله . وإذا ما غـاب عن الانظار لسبب من الاسباب ، عهد إلى آخرين بتمثيله في تبليغ الاحكام وتشكيل الحكومة .

فكــر وأجــب

١ ـ ما منطق الذين يزعمون ان الوقت ليس وقت الخوض في بحث الإمامة ؟

٢ ـ كم جواباً استدلالياً عندنا لاثبات ضرورة القيـام بهذا البحث في مواجهة منطق أولئك ؟

٣ ـ كيف أوقـع اعداء الاسـلام الفـرقـة بين المسـلمين ؟ وكيف يمكن ردم الهوة بينهم ؟

٤ ـ هـل تتـذكـر امثلة على مـا قـام بـه الاعـداء لتفـريق المسلمين ؟

٥ ـ ما الاختلاف في معنى « الإمامة » عنـد الشيعة وعنـد أهل السنة ؟

الدرس الثاني

فلسفة وجود الامام

ان البحوث التي اثبتنا بها ضرورة بعث النبيين تبين كذلك إلى حد كبير ضرورة وجود الإمام بعد النبي ، لأن الموضوعين يشتركان في جانب مهم من المناهج ، إلّا أن موضوع الإمامة يتطلب مزيداً من البحث :

١ ـ التكامل المعنوي إلى جانب وجود القادة الالهيين :

قبل كل شيء نتوجه إلى الهدف من خلق الإنسان ، فهو أساس عالم الخليقة .

ان الانسان يطوي طريقاً طويلاً كثير المنعطفات والعثرات في سيره نحو الله ، ونحو الكمال المطلق ، نحو التكامل المعنوي بجميع ابعاده .

من البديهي أنه لا يستطيع ان يقطع هذا الطريق بنجاح بغير هداية قائد معصوم ، ولا أن يطويه بغير معلم سماوي ، لأنه طريق محفوف

بالظلمات وبمخاطر الضلال .

صحيح أن الله قد وهب الانسان العقل والحكمة ، ومنحه وجداناً قوياً مثمراً ، وارسل اليه كتباً سماوية ، ولكن هذا الانسان ، مع كل هذه الوسائل التكوينية والتشريعية ، قد يخطىء في تمييز خط سيره ، لذلك فإن وجود دليل معصوم ياخذ بيده يقلل كثيراً من احتمالات الانحراف والضياع . فبناءً على ذلك :

« وجود الإمام يكمل الهدف من خلق الانسان »

وهذا هو ما يطلق عليه في كتب العقائد اسم « قاعدة اللطف » ، ويقصدون بها أن الله الحكيم يمد الانسان بجميع الامور اللازمة له لكي يصل الى هدف الخلق ، ومن ذلك بعث الانبياء وتعيين الأئمة المعصومين ، وإلّا فإنه يكون قد (نقض الغرض) من ذلك . فتأمل !

٢ ـ حماية الشرائع السماوية :

ان الاديان الالهية عند أول نزولها على قلوب الانبياء تكون اشبه بقطرات المطر النقية الشفافة الزلال التي تمنح الحياة وتربي الروح . ولكنها عندما تدخل المحيط الملوث والأدمغة الضعيفة غير النظيفة تتلوث بالتدريج ، وتضاف اليها الخرافات والاوهام ، بحيث انها تفقد شفافيتها ولطافتها الاولى ، وعندئذ لا يبقى لها شيء من جاذبيتها وتفقد الكثير من تأثيرها التربوي ، فلا هي تروي عطش العطاشى ، ولا هي تنبت برعماً لفضيلة .

ههنا تتضح ضرورة وجود القائد المعصوم بصفته انه هو الذي يحمي

أصالة الدين ، وخلوص المناهج الدينية ، ويحول دون كل اعوجاج وانحراف وفكر وافد ونظرة سقيمة غريبة ، وكل الخرافات والاساطير ، إذ لو بقي الدين بدون وجود مثل هذا القائد والحامي لفقد في فترة قصيرة أصالته ونقاءه .

ولهذا نجد الإمام علياً عليه السلام يقول في احدى خطبه :

« اللهم بلى ، لا تخلو الارض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناته »[1] .

في الواقع ان قلب الإمام ، من هذه الناحية ، اشبه بالخزانة المتينة التي تحفظ فيها الوثائق والمستندات المهمة ، لكي تبقى مصونة من أيدي اللصوص والعابثين والحوادث . وهذا وجه آخر من وجوه فلسفة وجود الإمام .

٣ ـ قيادة الامة سياسياً واجتماعياً :

لا شك ان الجماعة من الناس إذا لم يكن لها نظام اجتماعي يقف على رأسه قائد قادر ، لا تكون قادرة على ادامة حياتها . ولهذا نجد الاقوام منذ اقدم العصور حتى الآن قد اختاروا لانفسهم زعيماً وقائداً . وهذا القائد قد يكون صالحاً ، ولكنه كثيراً ما لا يكون . ولطالما استطاع كثير من طالبي الجاه والسلطة استغلال حاجة الناس إلى المرشد والقائد لفرض انفسهم بالقوة والتزوير على الناس ، فاستحوذوا على ازمة الامور في

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار (١٤٧).

ايـديهم . هذا من جهـة ، ومن جهـة اخـرى ، لكي يتمكن الإنسـان من الوصول إلى هدفه المعنوي ، يجب عليه أن لا ينفرد في مسيرته ، بل عليه ان ينضم إلى المجتمـع في مسيرة عـظمى ، لأن طاقـات الفرد الفكـريـة والجسميـة والماديـة والمعنويـة ليست شيئاً يـذكر بـازاء طاقـات المجتمع الجبارة .

ولكن المجتمع المطلوب هو الذي يسوده نظام سليم ، تتضـح فيه مواهب الانسان ، ويقف بـوجه الانحـرافات ، ويحـافظ فيه على حقـوق جميع الافراد ، ويضع الخطط والمناهج للوصـول إلى اهدافـه الكبرى ، ويعبىء الـدافـع المحـرك في المجتمـع ضمن اطـار من الحـريـة يشمـل المجتمع كله .

ولما كان الانسان العادي المعرض للخطأ غير قادر على حمل مثل هذه الرسالة العظيمة ، بدليل مـا نراه بـأم اعيننا من انحـراف قادة العـالم السيـاسيين عن جادة الصـواب ، كان لا بـد أن يختار الله قـائداً معصـوماً يضطلع بمهمة الاشراف على تحقيق هذه الرسالة بالاعتمـاد على طاقـات البشـر الكامنـة وافكار العلمـاء في الوقت الـذي يقف بوجـه الانحرافـات بحزم .

وهذا وجه آخر من اوجه فلسفة وجود الإمام المعصوم وفرع آخر من فروع « قاعدة اللطف » . ونكرر هنا قولنا أنه عند غياب الإمـام المعصوم بعلة من العلل وفي ظرف استثنائي ، فإن ما ينبغي أن يفعله الناس واضح أيضاً ، ولسوف نتناول هذا ، إن شاء الله في البحوث الخاصة بالحكومـة الاسلامية بالشرح والتفصيل .

٤ ـ ضرورة اتمام الحجة :

ان وجود الإمام لا يقتصر على إنارة القلوب المستعدة للهداية والسير في طريق التكامل ، بل يعتبر اتماماً للحجة على الذين ينحرفون متعمدين عن الطريق السوي ، وذلـك كي لا يكون العقـاب الذي ينـزل بهم بدون سبب ، ولكي لا يعترض معترض منهم انهم لو اخذ بايديهم مـرشد الهي ليقودهم الى طريق الرشاد ، لما ساروا في طريق الانحراف .

أي ان وجود الإمام يقطع الطريق على كل عذر وحجة ، بوساطة بيان الادلة الكافية ، والتوعية اللازمة لغير الـواعين ، وتطمين الـواعين وتقويـة ارادتهم .

٥ ـ الإمام واسطة الفيض الإلهي :

كثير من العلماء ، استناداً إلى الأحاديث الاسـلامية يشبهـون وجود النبي والإمام في المجتمع الانساني ، أو في كل عـالم الوجـود ، بالقلب بالنسبة لجسم الإنسان .

فالقلب إذ ينبض يرسـل الدم إلى جميـع العروق ، ويغـذي جميع الخلايا في الجسم .

ولـمـا كان الإمـام المعصوم ، بـاعتباره انسـاناً كـاملاً وطليعـة قافلة الانسانية ، وسبب نزول الفيوضات الالهية التي ينهل منها كل فرد على قدر ارتباطه بالنبي أو الإمام ، فلا بد أن نقـول أنه مثلمـا كان القلب ضـرورياً لحياة الإنسان ، كذلك كان وجود واسطة نزول الفيض الإلهي ضرورياً في جسد عالم البشرية ، فتأمل !

ينبغي ألا يغرب عن البال أن النبي والإمام لا يملكان شيئاً من نفسيهما ليمنحاه للآخرين ، فكل ما عندهما هو من عند الله ، ولكن مثلما كان القلب واسطة ايصال الفيض الإلهي لسائر انحاء الجسم ، كان النبي أو الإمام واسطة ايصال الفيوضات الإلهية لسائر أبناء البشر .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما دور الإمام في تكامل الإنسان تكاملاً معنوياً ؟

٢ ـ ما دور الإمام في حماية الشريعة الإسلامية ؟

٣ ـ ما دور الإمام في مسألة قيادة الحكومة ونظام المجتمع ؟

٤ ـ ما معنى اتمام الحجة ؟ وما دور الإمام فيه ؟

٥ ـ ما هي واسطة الفيض ؟ وما هو افضل تشبيه للنبي والإمام بهذا الشأن ؟

* * *

الدرس الثالث

شروط الإمام الخاصة وصفاته

قبل كل شيء ينبغي أن نلتفت إلى نقطة مهمة في هذا البحث : يستفاد من القرآن المجيد بوضوح أن مقام « الإمامة » ارفع مقام يمكن أن يصل اليه انسان ، ارفع حتى من مقام « النبوة » و« الرسالة » فنحن في حكاية النبي إبراهيم ، محطم الأصنام ، نقرأ :

﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾(١) .

أي ان إبراهيم ، بعد أن طوى مرحلة النبوة والرسالة واجتاز بنجاح مختلف ما امتحنه به الله ، ارتقى الى هذه المرحلة الرفيعة ، مرحلة مقام الإمامة الظاهرية والباطنية والمادية والمعنوية في قيادة الناس .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

نبي الاسلام صلى الله عليه وآله كان ، بالاضافة إلى مقام النبوة والرسالة ، في مقام إمامة الخلق وقيادتهم . وهناك عدد آخر من الانبياء بلغوا هذه المرحلة الرفيعة أيضاً .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى اننا نعلم ان الشروط والصفات اللازمة لتحمل مسؤولية منصب من المناصب تتناسب مع الواجبات والمسؤوليات التي ينبغي على المرء تنفيذها وتحملها ، وكلما كان المنصب أرفع ومسؤولياته أصعب ، كانت الشروط والصفات اللازم توفرها في المنتخب لذلك المقام أهم وأثقل .

فمثلاً يشترط الإسلام في من يتسنم منصب القضاء وحتى الشاهد وإمام الجماعة ، أن يكون عادلاً . فإذا كان الذي يريد أن يدلي بشهادة ، أو الذي يريد أن يقرأ الحمد والسورة ، يجب أن يكون عادلاً ، فما بالك بالشروط اللازمة لبلوغ مقام الإمامة الخطير الرفيع !

إن الشروط التالية ، على وجه العموم ، لازمة التوفر في الإمام :

١ ـ العصمة من الخطأ والإثم :

الإمام ، كالنبي ، يجب أن يكون معصوماً ، أي أن يكون مصوناً من كل « خطأ » و« إثم » ، وإلّا ما كان قادراً على أن يكون قائداً ونموذجاً وقدوة وأسوة للناس يعتمدونه ويتبعونه .

لا بد للإمام من أن يستحوذ على قلوب الناس ، فيأتمرون بأمره دون اعتراض . فمن كان ملوثاً بالإثم لا يمكن أبداً أن يبلغ هذا المبلغ في القلوب ولا يكون موضع ثقة الناس واطمئنانهم .

ومن كان في اعماله اليومية عرضة للأخطاء والهفوات كيف يمكن أن يوثق به في إدارة اعمال المجتمع ويطمأن إلى أرائه وتنفيذها بدون أي اعتراض ؟

إذن ، لا شك في ان النبي يجب أن يكون معصوماً ، وهذا الشرط لازم في الإمام أيضاً ، كما ذكرنا .

هذه المقولة يمكن اثباتها من طريق آخر أيضاً ، وهي طريق « قاعدة اللطف » نفسها التي يستند اليها لزوم وجود النبي والإمام ، وذلك لأن الهدف من وجود النبي والإمام لا يتحقق بدون هذه العصمة فيهما ، وما ذكرناه في الدرس السابق عن فلسفة وجودهما يظل ناقصاً .

٢ ـ العلم الغزير :

الإمام ، كالنبي ، هو الملجأ العلمي للناس ، فلا بد أن يكون عارفاً بجميع اصول الدين وفروعه ، وبظاهر القرآن وباطنه ، وبسنة رسول الله وبكل ما له علاقة بالاسلام معرفة تامة ، وذلك لأنه حافظ الشريعة وحاميها ، كما هو قائد الناس ومرشدهم .

إن الذين يرتبكون إذا ما واجهوا مشكلة معقدة ، أو انهم يرجعون إلى الآخرين يطلبون عندهم الحلول ، لأن ما عندهم من علم يقصر عن الاجابة على اسئلة المجتمع المسلم ، ليس لهم أن يتحملوا مسؤولية إمامة الأمة وقيادتها .

الخلاصة هي ان الإمام يجب أن يكون أعلم الناس وأوعاهم لدين الله ، وان يملأ الفراغ الذي يتركه النبي بأسرع ما يمكن لكي يستمر

الاسلام الصحيح الخالي من كل انحراف في مسيرته .

٣ ـ الشجاعة :

الإمام يجب أن يكون أشجع أفراد المجتمع ، إذ أن القيادة بغير شجاعة غير ممكنة : الشجاعة عند مواجهة الحوادث الصعبة المرة ، الشجاعة عند الوقوف بوجه الاقوياء الغلاظ الظالمين ، الشجاعة في صد الاعداء الداخليين والخارجيين .

٤ ـ الزهد والتحرر :

من المعلوم أن الذين يميلون إلى مباهج الدنيا وزخرفها سرعان ما ينخدعون ويسهل اغراؤهم بالانحراف عن طريق الحق والعدالة بوساطة الترغيب احياناً والترهيب احياناً اخرى . وشخص هذا شأنه يكون في الواقع « أسيراً » للدنيا ، بينما الإمام يجب أن يكون « أميراً » بالنسبة لمتاع الدنيا وبهرجها . انه يجب أن يكون متحرراً من أسر أهواء النفس ومنطلقاً من قيود الثورة والجاه ، لكي لا يستطيع احد اغراءه ويؤثر فيه ويحمله على الاستسلام والمساومة .

٥ ـ الجاذبية الاخلاقية :

يقول القرآن في رسول الله صلى الله عليه وآله :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾(١) .

---

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩ .

إن النبي الذي هو إمام وقائد معاً ليس هو وحده الذي يجب أن يملك ذلـك الخلق الرفيـع الذي يجـذب اليه النـاس كمـا يجـذب المغنـاطيس الحديد . لا شك أن كل خشونة وسـوء خلق مما يثيـر النفوروالتبـاعد في الناس يعتبر من العيوب الكبيرة في النبي أو الإمام لذلك فإن الأنبياء والأئمة منزهون عن هذا العيب ، وإلّا كان كثير من فلسفة الـوجود عبثـاً لا طائـل تحته .

هذه هي أهم الشروط التي ذكر كبار العلماء انها يجب أن تتوفر في الإمام .

بـديهي أن هناك صفـات اخرى غيـر هذه الصفـات الخمس يجب توفرها ايضاً في الإمام ، إلّا أن هذه أهمها .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما الدليل على أن الإمامة ارفع مقام يمكن أن يبلغه إنسان ؟

٢ ـ هل كان نبينا وسائر الانبياء أولي العزم أئمة أيضاً ؟

٣ ـ إذا لم يكن الإمام معصوماً فما المشكلات التي تحدث جراء ذلك ؟

٤ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام ذا علم غزير ؟

٥ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام أشجع الناس وأزهدهم وأشدهم تحرراً وأحسنهم اخلاقاً وجاذبية ؟

الدرس الرابع

من المسؤول عن تعيين الامام ؟

يعتقد بعض المسلمين من أهل السنة أن النبي صلى الله عليه وآله قد أغمض عينيه عن هذه الدنيا دون أن ينصب خليفة بعده، ويعتقدون ان هـذه المهمة تقـع على عاتق « المسلمين أنفسهم » فهم الـذين عليهم أن يختاروا قائدهم بطريق « إجماع المسلمين » باعتباره أحد الأدلة الشرعية .

ويضيفون إلى ذلك قولهم إن ذلك قد حصل فعـلاً واختير الخليفـة الأول بإجماع الأمة .

ثم اختار الخليفة الأول الخليفة الثاني .

وعيّن الخليفـة الثاني شـورى مؤلفـة من ستـة اشخـاص يختـارون أحدهم . وكانت هذه الشورى تتـألف من علي عليه السـلام ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص .

كان الخليفة الثاني قد اشترط أنه إذا انقسمت الشورى كل ثلاثة في

طرف ، فإن الطرف الذي فيهم عبد الرحمٰن بن عوف (صهر عثمان) هو الذي يختار الخليفة . وهذا ما حصل ، إذ الاكثرية المؤلفة من سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمٰن بن عوف وطلحة اختاروا عثمان .

وفي اواخر عهد عثمان نهض الناس لاسباب مختلفة ضده ، وكان ان قتل قبل ان يستطيع تعيين احد أو شورى .

وعلى أثر ذلك أقبل الناس برمتهم متجهين إلى الإمام علي عليه السلام ، وبايعوه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، باستثناء معاوية الذي كان عامل عثمان على الشام ، لأنه كان واثقاً أن علياً لن يبقيه في منصبه . فرفع راية المعارضة ، فكان مصدر حوادث مشؤومة ودموية في التاريخ ادت إلى اراقة دماء الكثيرين من الابرياء .

هنا تبرز أسئلة كثيرة لا بد منها لالقاء الضوء على البحوث العلمية والتاريخية ، سنورد بعضاً منها :

١ ـ هل للأمة ان تختار خليفة رسول الله ؟

ليس من الصعب الجواب على هذا السؤال ، فنحن إذا اعتبرنا الإمامة بمعنى الحكم الظاهري على مجتمع المسلمين ، فإن اختيار الحاكم بالرجوع إلى آراء الناس أمر متداول .

ولكن إذا كانت الإمامة بالمعنى الذي شرحناه من قبل والذي استقيناه من القرآن الكريم ، فلا شك في أنه ليس لأحد الحق في تعيين خليفة النبي سوى الله ورسوله (وبأمر من الله) .

إذ أن شرط الإمامة بحسب هذا التفسير هو العلم الوافر بجميع

اصول الدين وفروعه ، ذلك العلم الذي ينبع من مصدر سماوي ويستند إلى علم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لكي يستطيع الحفاظ على الشريعة الاسلامية .

الشرط الآخر هو معصومية الإمام ، أي أن يكون مصوناً صيانة إلهية ضد كل خطأ وإثم لكي يستطيع ان يتحمل مسؤولية مقام الإمامة وقيادة الأمة قيادة معنوية ومادية وظاهرية وباطنية ، كما يجب أن يكون متمتعاً بالزهد والتحرر والتقوى والجرأة ، مما هو لازم لمن يتصدى للاضطلاع بمهمات هذا المنصب الجليل .

إن تمييز هذه الصفات في شخص ما ليست مستطاعة إلا بوساطة الله ورسوله ، فهو الذي يعلم في من وضع صفة العصمة ، وهو الذي يعلم في من يتوفر حد النصاب من العلم والزهد والتحرر والشجاعة والجرأة اللازمة لمقام الإمامة .

إن الذين عهدوا باختيار الإمام والخليفة الى الناس قد غيروا في الحقيقة المفهوم القرآني للإمامة ، وقصروا هذا المفهوم على الحكم العادي وإدارة شؤون الناس الدنيوية ، وإلاّ فإن شروط الإمامة بمعناها الجامع الكامل لا تعرف إلاّ عن طريق الله تعالى ، لأنه هو العالم بهذه الصفات .

إن القضية أشبه بانتخاب النبي ، فالنبي لا يمكن أن ينتخبه الناس بالتصويت ، بل الله هو الذي يختاره ، ويتعرف عليه الناس عن طريق معجزاته ، لأن الصفات اللازم توفرها في النبي لا يعرفها إلا الله .

٢ ـ ألم يعين النبي أحداً ليخلفه ؟

إن الـدين الاسلامي ، ولا شـك ، دين « عالمي » و« خـالـد » ولا يقتصر على زمان ولا مكان معينين ، كما يصرح القرآن بذلك .

ولا شك أيضاً في ان الدين الاسلامي لم يكن قد تجاوز شبه الجزيرة العربية عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومن جهة اخرى نجـد أن النبي أمضى ثلاث عشـرة سنة من عمـره الشريف في مكة يحارب الشرك وعبادة الأصنام ، والسنوات العشر التالية التي بدأت بالهجـرة واستغرقت فتـرة تفتح الاسـلام ، أمضاهـا رسول الله صلى الله عليه وآله في الغـزوات والحروب التي فـرضها على المسلمين اعداؤهم .

وعلى الرغم من أن الرسول الأكرم لم يترك لحظة من عمره الشريف دون ان يستغلها لنشر الدعوة والتعاليم الاسلامية والسعي لتعريف الاسلام الفتي بجميع ابعاده . ولكن الذي لا شك فيه أن تحليل كثير من المسائل الاسـلاميـة كـان يتـطلب إلى زمـان اطـول ، فكـان لا بـد لشخص مثـل النبي (ص) أن يضطلع بهذه المهمة بعده .

وفضلاً عن ذلك ، فـإن التنبؤ بمستقبل الأمـة ، واعداد المقـدمات للاستمرار في إدامة مدرسة الاسلام ، كان من أهم الأمور التي لا بـد أن يفكر فيها كل قائد . ولا يمكن ابداً أن يسمح لهذه المسـألة الأسـاس أن يلفها النسيان .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، نـلاحظ أن رسول الله صلى الله عليـه

وآله كان احياناً يصدر تعليمات خاصة في كثير من الامور البسيطة العادية في الحياة اليومية ، فكيف يمكن ان يهمل قضية مهمة كقضية الخلافة والزعامة والإمامة ولا يضع لها منهاجاً خاصاً ؟

كل هذه النظرات الثلاث دليل واضح على أن النبي الكريم لا يمكن أن يهمل تعيين الخليفة من بعده . ولسوف نذكر إن شاء الله روايات إسلامية مؤكدة تلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع وتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يغفل طوال حياته عن هذه المسألة المصيرية ، على الرغم من المساعي السياسية التي جرت بعد الرسول كي تدخل في اذهان الناس ان رسول الله لم يعين خليفة بعده .

أيصدق احد أن رسول الله (ص) لم يترك المدينة لبضعة أيام (مثل ذهابه إلى غزوة تبوك) إلّا بعد أن عين من يقوم مقامه فيها ، ولكنه لا يعين احداً ليخلفه بعد مغادرة الدنيا نهائياً ، بل يترك الأمة نهب الاختلافات والاضطرابات والحيرة ، دون أن يضمن للاسلام استمراريته على يد هاد ومرشد يعتمده ؟

لا يشك احد ان عدم تعيين خليفة ينطوي على أخطار كبيرة على الإسلام اليافع ، إن العقل والمنطق يحكمان بان امراً كهذا يستحيل صدوره من نبي الاسلام .

إن الذين يقولون أنه عهد بذلك إلى الأمة عليهم أن يبينوا أدلتهم ويثبتوا ان رسول الله (ص) قد صرح بذلك علانية ، ولكن ليس ثمة دليل من هذا القبيل .

٣ ـ الاجتماع والشورى :

لنفرض ان رسول الاسلام أغمض عينيه عن هـذا الأمر الحيـوي ، وان المسلمين هم المطلوب منهم ان يختاروا خليفة رسول الله عن طريق الاجمـاع . ولكننا نعلم ان « الاجمـاع » يعنيّ اتفـاق المسلمين ، ولكننـا نعلم أيضاً أن اجماعاً كهذا لم يحصـل عند انتخـاب الخليفة الأول ، إلاّ اللهم ما حصل عند اجتماع عدد من الصحابة الذين كـانوا في المـدينة ، حيث قرروا قرارهم ، مع ان سائـر المسلمين في سائـر بلاد الاسـلام لم يشـاركوا مـطلقاً في هـذا الاجتماع ولا في الإدلاء بـآرائهم ، بـل ان في المدينة نفسها كان كثيرون ، كالإمام علي عليه السـلام وبني هاشم ، لم يحضروا ذلك الاجتماع . وعليه ، فإن إجماعاً كهذا لا يمكن قبوله .

* ثم إذا كان هذا الاسلوب هو الصحيح الذي يجب اتباعه ، فلماذا لم يتبعه الخليفة الأول في انتخاب خليفته ؟ لمـاذا عين بنفسه خليفتـه ؟ فإذا كان يجوز للفرد أن يعين خليفة ، فقد كان النبي أولى اذن بذلك من أي فرد آخر ، وإذا كانت البيعة العامـة التي تلي الانتخاب تحـل المشكلة ، فإن ذلك وارد أيضاً بالنسبة للنبي ، وعلى وجه أفضل .

ثم فضلاً عن ذلك تبرز المشكلة الثالثـة بالنسبـة للخليفة الثـالث ، وهي لماذا خالف الخليفة الثاني الاسلوب الـذي اتبعه الخليفـة الأول في انتخاب الخليفة الثاني نفسه ، وكسر السنّة التي أتت به إلى الخلافة ، أي أنه لم يلتزم الاجماع ولا التعيين الفردي ، بل جاء بمجلس الشورى ليقوم بذلك ؟

إذا كانت « الشورى » صحيحة ، فلماذا تقصر على اشخاص ستة بعينهم ، وان يكتفي برأي ثلاثة من ستة ؟

هذه اسئلة لا بد أن تخطر ببال كل باحث ومحقق يتعامل مع التاريخ الاسلامي ، وبقاؤها دون جواب يدل على أن تلك الاساليب لم تكن هي الطريق الأمثل لنصب الإمام .

٤ ـ الإمام علي (ع) أليق الجميع :

لنفرض أن نبي الاسلام لم يعين احداً يخلفه من بعده ولنفرض أن اختيار الخليفة كان على عاتق الأمة ، فهل يجوز عند الانتخاب أن نتجاوز الأعلم والأتقى والأكثر تميزاً عن الآخرين من جميع الوجوه ، لنبحث عن الخليفة بين من هم يأتون بعده في المرتبة ؟

لقد صرح كثير من علماء المسلمين ، بما فيهم علماء أهل السنة ، بأن علياً كان أعلم الناس بالدين الاسلامي ، كما أن آثاره الباقية منه تؤكد هذا القول . يقول التاريخ أنه كان ملجأ الأمة في كل مشكلة علمية ، وان الخلفاء كانوا يرجعون إليه إذا ما واجهتهم معضلة دينية معقدة .

وكان في الشجاعة والجرأة والتقوى والزهد والصفات البارزة الاخرى أسمى منزلة من غيره . وعليه ، إذا فرضنا ان انتخاب الخليفة كان موكولاً إلى الناس انفسهم ، فإن علياً كان اليق الموجودين وأجدرهم بالخلافة (هنالك بالطبع الكثير من الادلة والاسانيد الاخرى الواسعة بهذا الشأن مما لا مجال لذكرها في هذا الموجز) .

* * *

فكــر وأجــب

١ ـ لمــاذا ليس للنــاس أن يختــاروا الإمــام وخليـفــة رسول الله (ص) ؟

٢ ـ هـل يقول العقـل والمنطق أن النبي الكـريم قد عين خليفته من بعده أم لا ؟

٣ ـ كيف تم اختيار الخلفاء الثلاثة الأول ؟

٤ ـ هل كانت اساليب انتخابهم مطابقة للمـوازين العلمية الاسلامية ؟

٥ ـ كيف كان علي (ع) أليق الجميع للخلافة ؟

الدرس الخامس

القرآن والإمامة

القرآن هذا الكتاب السماوي ، خير مرشد وهاد في كل امر ، وفي الإمامة ايضاً ، فهو يبحثها من مختلف الجوانب :

١ ـ القرآن يرى الإمامة اختياراً الهياً :

سبق ان قرأنا حكاية النبي إبراهيم (ع) محطم الاصنام في البحوث السابقة وعرفنا ان القرآن يعتبر ان مقام الإمامة والقيادة لا ينالها إبراهيم (ع) إلّا بعد نيله مرتبة النبوة والرسالة واداء امتحانات كبرى ، ففي الآية ١٢٤ من سورة البقرة يقول :

﴿ وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ .

هنالك قرائن قرآنية وتاريخية مختلفة تؤكد انه نال مرتبة الإمامة بعد ان حارب عبدة الاصنام في بابل ، وبعد هجرته إلى الشام ، وبنائه

الكعبة ، واخذ ابنه اسماعيل ليذبحه قرباناً لله .

فـإذا كانت النبـوة والرسـالة من جـانب الله ، فمن الأولى أن يكون تعيين مقام الإمامة ـ الذي يعتبر أعلى مراحل التكامل في قيادة الأمة ـ من جـانب الله ايضاً فهـو ليس من الأمور التي يمكن أن يـوكل تنفيـذهـا إلى الناس . ولذلك فإن الله يقول مخاطباً ابراهيم :

﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ .

كذلك يقول القرآن في الآية ٧٣ من سورة الانبياء وهو يتحدث عن جمع من الانبياء العظام : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب :

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ .

وفي القرآن آيات اخرى شبيهة بهذه تدل كلها على أن هذا المنصب الهي وان الله هو الذي يعين من يشاء لهذا المقام .

كما أننا في الآية نفسها التي ينال فيها ابراهيم مقام الإمامة ، نقرأ أن ابـراهيم طلب هذا المنصب لـذريته ، ولكن جـواب الله كـان **﴿ لا ينـال عهدي الظالمين ﴾** أي أن طلبـك قد اجيب إلا فيمـا يخص الظالمين من ذريتك ، فإنهم لن يصلوا إلى هذا المقام الرفيع .

فإذا اخذنا بنظر الاعتبار أن تعبير « ظالم » في اللغة عموماً وفي لغة القرآن يشمل مساحة واسعة من المعاني ، بما فيها الذنوب كالشرك الظاهر والخفي وكل ظلم للنفس وللآخرين ، وإذا أخذنـا أيضاً بنـظر الاعتبار ان معرفة هذه الحالات معرفة تامة لا تتأتى لأحد سـوى الله ، لأنه هـو وحده العالم ببواطن الناس ونياتهم ، يتبين لنا جلياً أن تعيين الإمام لمقام الإمامة

لا يكون إلّا بأمر من الله .

٢ ـ التبليغ :

نقرأ في الآية ٦٧ من سورة المائدة ما يلي :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

تدل لهجة هذه الآية على ان الكلام يدور على مهمة خطيرة موضوعة على عاتق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنها مهمة تثير ما يقلق البال ، وقد تواجه معارضة بعض الناس ، ولذلك تطمئن الآية خاطر الرسول بقولها **﴿ والله يعصمك من الناس ﴾** مع التوكيد على ضرورة أداء المهمة .

لا شك أن هذه المسألة المهمة لم تكن تتعلق بقضايا التوحيد والشرك ومحاربة الاعداء من اليهود والمنافقين وغير ذلك ، لأن هذه المسائل كانت كلها قد حلت قبل نزول هذه الآية من سورة المائدة .

ثم ان ابلاغ احكام الاسلام للناس لم يكن يوماً مصحوباً بمثل هذا القلق والتوجس ، بينما يتبين من الآية أن المهمة كانت على قدر من الأهمية بحيث انها لا تقل وزناً عن اداء الرسالة برمتها ، بحيث لو أنه لم يؤد تلك المهمة لكان كأنه لم يؤد الرسالة نفسها . فهل هناك ما يمكن أن تكون له مثل هذه الأهمية سوى مسألة تعيين خليفة رسول الله ؟ خاصة وان الآية قد نزلت في أواخر عمر النبي ، أي في الوقت المناسب لتعيين من يخلف النبي من بعده ، للاطمئنان على استمرار النبوة والرسالة .

ثم أن هناك روايات كثيرة عن فريق كبير من اصحاب

رسول الله (ص) ، منهم « زيد بن أرقم » و« أبـو سعيد الخـدري » و« ابن عباس » و« جابر بن عبد الله الانصاري » و« أبو هريرة » و« حذيفة » و« ابن مسعود » ، وبعض هذه الروايات قد وصل الينا عن احد عشر طريقاً ، نقلها كثير من علماء أهل السنة من المفسـرين والمحدثين والمؤرخين ، وكلهـا تقول أن هذه الآية نزلت بحق علي (ع) يوم الغدير[1] .

وسـوف نشرح حكـاية « الغـدير » ان شـاء الله في بحث الروايـات والسنة ، إلّا أننا هنا نكتفي بالقول بأن هذه الآية تكشف عن ان النبي كان قد امره الله ، اثناء عودته من حجة الوداع ، أي آخر حجة له في عمره ، ان يعلن عن تنصيب علي (ع) خليفة له من بعده بصورة رسمية وعلى ملأ من المسلمين .

٣ ـ آية إطاعة أولي الأمر :

في الآية ٥٩ من سورة النساء نقرأ :

﴿ يـا أيها الـذين آمنوا أطيعـوا الله واطيعوا الـرسـول وأولي الأمـر منكم ﴾ .

هنا نلاحظ أن إطـاعة أولي الأمـر قد جـاءت الى جانب إطـاعة الله ورسوله بدون أي قيد أو شرط . فهل المقصود من أولي الأمر هم الحكام في كل عصر وفي كل محيط ؟ فمثلاً هل على المسلمين في هذا العصـر وفي مختلف البلدان ان يطيعوا حكامهم بدون قيد ولا شرط ؟ (كما يقول

(١) انظر في ذلك «إحقاق الحق» و«الغدير» و«المراجعات» و«دلائل الصدق».

بعض مفسري أهل السنة .) .

إن هـذا التفسير لا ينسجم مـع أي منطق ، إذ أن أكثـر الحكام في مختلف العصـور كانـوا حكامـاً منحرفين ، ملوثين بـالاثم ويتبعون الـظلم والظالمين .

فهل المقصود اذن إطاعة الحـاكم على شرط أن لا يكـون حكمهم مخالفاً لاحكام الاسلام ؟ هذا أيضاً لا يأتلف مع اطلاق الآية .

فهل المقصود هم صحابة الـرسول (ص) ؟ هـذا المفهوم أيضـاً لا يتلاءم مع المفهوم العام الواسع الذي تنطوي عليه الآية والخاص بمختلف العصور .

بناءً على ذلك يتبين لنا بوضـوح ان المقصود هـو القائـد المعصوم الموجود في كـل عصر وزمـان ، فهو الـذي تجب اطاعتـه بدون قيـد ولا شرط ، وأمره كأمر الله ورسوله ، واجب التنفيذ .

إن الأحاديث الكثيرة الواصلة الينا من مصادر اسلامية متعددة بهـذا الشأن والتي تفسر « أولي الأمر » بالإمـام علي (ع) والأئمة المعصـومين ، دليل آخر يؤيد هذا الادعاء[٢] .

٤ ـ آية الولاية :

نقرأ في الآية ٥٥ من سورة المائدة :

﴿ إنمـا وليكم الله ورسولـه والذين آمنـوا الـذين يقيمـون الصـلاة

---

(٢) لمزيد من الإيضاح أنظر «تفسير نمونة» ج٣ ص٤٣٥ . .

ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

باستعمال « إنما » الدالة على الحصر ، يحصر القرآن ولاية المسلمين ورعايتهم بثلاثة : الله ، والرسول ، والذين آمنوا ويعطون الزكاة اثناء ركوعهم .

لا شك اولاً ان «الولاية» هنا لا تعني المحبة بين المسلمين ، لأن تبادل المحبة بين عامة المسلمين لا يستوجب هذه القيود والشروط ، فالمسلمون اخوة يحب بعضهم بعضاً ، وإن لم يدفعوا الزكاة اثناء الركوع . وبناءً على ذلك ، فالولاية هنا تعني القيادة والإمامة المادية والمعنوية ، خاصة انها جاءت في مصاف « ولاية الله » و« ولاية الرسول » .

كما أنه من الواضح أيضاً ان هذه الآية ، بالاوصاف التي وردت فيها ، تشير إلى شخص معين بذاته ، وهو الذي كان راكعاً عندما أعطى الزكاة ، وإلّا فليس هناك ما يدعو الإنسان إلى أن يعطي زكاته عندما يصلي وعند الركوع من صلاته . وهذا في الواقع علاقة ، وليس صفة عامة .

مجموع هذه القرائن يدل على ان هذه الآية إشارة عميقة المعنى إلى حكاية علي (ع) ، وهي أنه فيما كان راكعاً في صلاته سمع فقيراً يطلب الصدقة من المصلين ، إلّا أن أحداً لم يسعفه بشيء فمد الأصبع الصغير من يده اليمنى ، اثناء ركوعه ، إلى ذلك الفقير مشيراً إليه أن يأخذ خاتماً ثميناً كان يلبسه في إصبعه ، فأخذه الفقير وانصرف ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد لحظ ما جرى بجانب عينه . وعند انتهاء الصلاة رفع

راسه إلى السماء وقال :

« اللهم إن أخي موسى سألك فقال : ﴿ **رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أشدد به ازري * وأشركه في أمري** ﴾ ، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : ﴿ **سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما** ﴾ اللهم وأنا محمد نبيك وصفيّك اللهم فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهر . . . » .

لم يكد رسول الله (ص) ينتهي من دعائه حتى نزل جبرائيل بالآية المذكورة .

وانه لمما يلفت النظر ان كثيرين من كبار مفسري أهل السنة ومحدثيهم ومؤرخيهم يؤيدون كون الآية قد نزلت في علي (ع) . وهناك جماعة من اصحاب رسول الله (ص) في نحو عشرة اشخاص نقلوا هذا الحديث عن رسول الله (ص) مباشرة .

إن الآيات النازلة في الولاية كثيرة ، اكتفينا بإيراد أربع منها في هذا الدرس .

* * *

فكـر وأجب

١ ـ من الذي له أن يعين الإمام وينصبه في نظر القرآن ؟

٢ ـ ما هي الظروف التي احاطت بنزول آيـة التبليغ، وما محتواها ؟

٣ ـ من هم الذين يكون من المعقول أن نطيعهم بدون قيد ولا شرط ؟

٤ ـ كيف نستدل من آية ﴿ **إنّما وليكم الله** ﴾ انها تشير إلى القيادة والإمامة ؟

٥ ـ مـا الـذي يمكن ان نستنتجـه من مجمـوع الآيـات الخاصة بالولاية ؟

الدرس السادس

الامامة في السنة

عند مطالعة الكتب الخاصة بالاحاديث الاسلاميـة ، وعلى الأخص كتب المصـادر عند اخـواننا أهـل السنة ، يـواجه المـرء حشداً كبيـراً من الاحاديث النبوية التي تثبت إمامة علي (ع) وخلافته بوضوح لا مزيد عليه .

وإن المرء ليأخذه العجب من أنه مع كثرة هذه الأحاديث التي لا تدع مجالاً للشك في المسألة ، كيف حاول بعضهم ان يختار طريقاً غير طريق أهل البيت !

إن هذه الأحاديث التي تؤكد بعضها مئـات الأسانيـد (مثل حـديث الغدير) ويؤكد بعضها الآخر عشرات الأسـانيد ، وهي واردة في عشـرات الكتب الاسلامية المشهورة ، من الوضوح بحيث اننا لو تغاضينا عن أقاويل هـذا وذاك ، وأهملنا التقـاليد ، تكـون القضية على درجـة من الجلاء لا نحتاج معها إلى أي دليل آخر .

إننا نذكر فيما يلي نماذج لعدد من الأحاديث المعروفة من بين الوافر الكثير منها ، طالبين من الذين يريدون الاطلاع أكثر على هذا الموضوع أن يرجعوا إلى المصادر التي سنذكرها لهم[1] .

حديث الغدير :

يقول الكثير من المؤرخين إن رسول الله صلى الله عليه وآله أدى فريضة الحج في آخر سنة من سنوات عمره الشريف . وبعد الانتهاء من الحج ، رجع ومعه جماعات غفيرة من اصحابه القدامى والجدد والمسلمين المولعين به الذين كانوا قد اجتمعوا من مختلف نقاط الحجاز ليلحقوا برسول الله (ص) في أداء فريضة الحج . وعند وصولهم إلى مكان بين مكة والمدينة اسمه (الجحفة) ، تقدمهم نحو (غدير خم) حيث كانت الطريق تتفرق ، فيتفرق عندها الناس كل إلى وجهته .

ولكن قبل أن يتفرق الناس من هناك إلى انحاء الحجاز ، أمر الرسول الناس بالتوقف ودعا الذين سبقوه إلى الرجوع ، وانتظر حتى لحق به الذين كانوا في الخلف . كان الجو حاراً جداً ومحرقاً ، ولم يكن في تلك الصحراء المترامية ما يستظل به . أدى المسلمون صلاة الظهر مع رسول الله (ص) . وعندما اراد الناس الانصراف الى خيامهم فراراً من حرارة الجو ، اخبر النبي (ص) ان عليهم أن يستمعوا إلى بلاغ مهم جديد من جانب الله في احدى خطبه المسهبة .

---

(١) لمزيد من الشرح راجع كتاب «المراجعات» و«الغدير» .

أقيم لرسول الله منبر من أحداج الإبل ، فارتقاه ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وقال من جملة ما قال :

. . . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا . أنا مسؤول وأنتم مسؤولون . ترى كيف تشهدون لي ؟

فرفع الناس اصواتهم قائلين :

نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً .

فقال النبي صلى الله عليه وآله :

اتشهدون بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وان الله سيبعث من في القبور يوم القيامة ؟

فقالوا جميعاً: نعم نشهد بذلك .

فقال : اللهم اشهد ! ثم سألهم : أيها الناس ، أتسمعون صوتي ؟ قالوا : نعم .

وساد الجمع صمت لم يسمع خلاله شيء سوى صوت هبوب الريح واخيراً قال النبي صلى الله عليه وآله :

أنبئوني ما تفعلون بعدي بهذين الثقلين العظيمين اللذين سأتركهما بين ظهرانيكم؟

فقام رجل من بين الجمع وقال:

أي ثقلين تعني يا رسول الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :

الثقل الأول هو الثقل الأكبر ، كتاب الله ، القرآن ، ما ان أخذتم به لن تضلوا . والثقل الثاني هو عترتي ، آل بيتي . ولقد أخبرني اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، إن سبقتموهما هلكتم ، وإن تخلفتم عنهما هلكتم .

ثم نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى أطرافه كأنه يبحث عن شخص ، فلما وقع بصره على علي عليه السلام انحنى وأمسك بيده ورفعها حتى بان بياض إبطيهما ، فرآه الناس وعرفوه .

وارتفع صوت النبي صلى الله عليه وآله وهو يقول: أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم .

فقال:

إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أولى بهم من أنفسهم . فمن كنت مولاه فعليّ مولاه .

وكرر هذا القول ثلاث مرات . وقال بعض الرواة انه كرره أربع مرات ثم رفع رأسه الشريف الى السماء وقال:

اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ثم قال: ألا هل بلَّغت؟

قالوا: نعم .

قال: فليبلّغ الشاهد الغائب .

وقبل ان يتفرق الجمع نزل جبرائيل الأمين بالآية التالية على رسول الله صلى الله عليه وآله:

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . . . ﴾[1] .

فقال النبي صلى الله عليه وآله:

الله أكبر ، الله أكبر ، على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي والولاية لعليّ من بعدي .

فحصل هرج ومرج بين الناس وراحوا يتزاحمون لتهنئة عليّ عليه السلام بالولاية . وكان منهم أبو بكر وعمر ، اللذان تقدما إلى عليّ عليه السلام يقولان: بخ بخ لك ياابن أبي طالب ، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة!

هذا الحديث أورده عدد كبير من علماء الاسلام في كتبهم ، بعض بصورة مسهبة وبعض باختصار شديد ، وبشيء من الاختلاف في بعض الألفاظ . ويعتبر من الاحاديث المتواترة التي لا يمكن لأحد أن يشك في صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلى درجة ان العلاّمة

---

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(الأميني) في كتابه « الغدير » يذكر اسم مئة وعشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ممن ذكروا هذا الحديث ، وثلاثمائة وستين عالماً وكتاباً ورد فيه هذا الحديث أيضاً ، ومنها كتب الأخوة من أهل السنّة في التفسير والتاريخ والحديث . بل ان جمعاً كبيراً من علماء الاسلام ألَّفوا الكتب الخاصة بهذا الحديث ، منها كتاب العلّامة الأميني « الغدير » المتعمق والنادر المثال ، فإنه يشير فيه الى ستة وعشرين عالماً من علماء الاسلام ممن ألفوا الكتب الخاصة بحديث الغدير .

ولقد سعى بعض ممن لم يستطيعوا بثّ الشكوك حول صحة أسانيد هذا الحديث ، إلى إلقاء الشكوك في دلالته على الإمامة والخلافة ، واعتبار كلمة «مولى» تعني «الصديق» مع ان التدقيق في مضمون الحديث والظروف الزمانية والمكانية التي أحاطت بالحديث وقرائن أخرى تدل بحق على ان الهدف لم يكن سوى الإمامة والولاية التي تعني القيادة بكل ما فيها من معان :

أ ـ ان آية التبليغ التي سبق أن ذكرناها ، والتي نزلت قبل حادثة الغدير ، تدل بلهجتها الحادة وما فيها من القرائن على ان الكلام لم يكن بشأن الصداقة العادية ، إذ ان هذا لم يكن مما يستوجب كل تلك الأهمية والتوكيد . كما ان الآية الخاصة بإكمال الدين التي نزلت بعد آية التبليغ تدل دلالة قاطعة على ان الموضوع كان على درجة عظيمة من الأهمية ، كموضوع القيادة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ب ـ الطريقة التي وصفت بها الحديث ، بكل ظروفه والصحراء المحرقة التي ألقيت فيها تلك الخطبة المسهبة ، وأخذ الاقرار من الناس

في ذلك الجو وذلك المكان ، كلها تدل على صحة ما نذهب إليه .

ج ـ التهاني والتبريكات التي قدمت لعلي عليه السلام من جانب مختلف طبقات الحاضرين ، والقصائد الشعرية التي قيلت بالمناسبة في ذلك اليوم وبعده ، تدل على ان الحدث واقعي وانه يخص تنصيب عليّ عليه السلام في مقام الولاية والإمامة ، ولا شيء غير ذلك .

***

فكر وأجب

١ ـ اشرح حكاية الغدير .

٢ ـ كم عدد أسانيد حديث الغدير عن رسول الله صلى الله عليه وآله وفي كم كتاباً من الكتب الاسلامية المشهورة ورد هذا الحديث؟

٣ ـ لماذا لفظة « المولى » في حديث الغدير تعني القيادة والإمامة ، لا الصداقة؟

٤ ـ ما الدعاء الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله بحق عليّ عليه السلام بعد حادثة الغدير؟

٥ ـ أين تقع « الجحفة » و« الغدير »؟

الدرس السابع



حديث « المنزلة » وحديث « يوم الدار »

يورد كثير من كبار مفسري أهل السنة والشيعة حديث « المنزلة » عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف ، والتي تتعلق بذهاب موسى عليه السلام أربعين ليلة الى ميعاد الله وخلافة هارون له .

مضمون الحديث كما يلي :

تحرّك رسول الله صلى الله عليه وآله نحو تبوك (وهي تقع في شمال جزيرة العرب وتحادد امبراطورية الروم) . كان النبي صلى الله عليه وآله قد أخبر بأن امبراطور الروم قد جاء بجيش عظيم يريد به أن يهاجم الحجاز ومكة والمدينة ، لكي يخنق الثورة الاسلامية في مهدها قبل أن يصل برنامجها الانسان والتحرري الى تلك المنطقة . فتحرك النبي صلى الله عليه وآله إلى تبوك ، تاركاً علياً بمكانه فقال علي : أتتركني بين النساء والأطفال ، ولا تسمح لي بالاشتراك في الجهاد معك؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

« ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ انه لا نبي بعدي ».

هذه العبارة مذكورة في أشهر كتب الحديث عند أهل السنة، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم، انما الاختلاف بينهما هو ان صحيح البخاري يورد الحديث كله، بينما صحيح مسلم يورد الحديث كله مرة، ويورد عبارة « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي » مرة اخرى، كتعبير عام وكلّي[1].

كما جاء هذا الحديث في عدد كبير من كتب أهل السنة منها « سنن ابن ماجة » و« سنن الترمذي » و« مسند أحمد » وغيرها. والذين يروون الحديث عن الصحابة يزيد عددهم على العشرين، منهم (جابر بن عبدالله الأنصاري) و(أبو سعيد الخدري) و(عبدالله بن مسعود) و(معاوية).

ينقل (أبو بكر البغدادي) صاحب « تاريخ بغداد » عن « عمر بن الخطاب »: أنه رأى رجلاً يشتم علياً عليه السلام، فقال له عمر: لا أراك إلاّ من المنافقين، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

« إنّما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ انه لا نبي بعدي »[2].

---

(١) «صحيح البخاري» ج٦ ص٣ وصحيح مسلم، ج١ ص٤٤ وج٤ ص١٨٧.
(٢) «تاريخ بغداد» ج٧ ص٤٥٢.

ومما يستلفت النظر في أشهر كتب الحديث المعتبرة ان هذا الكلام لم يقله رسول الله صلى الله عليه وآله بمناسبة غزوة (تبوك) فقط ، بل انه كرره سبع مرات في سبع مناسبات مختلفة ، مما يدل على مفهومه العام . ومن تلك المناسبات :

١ ـ « يوم المؤاخاة » الأولى في مكة ، أي في اليوم الذي عقد فيه عهد الأخوة بين أصحابه ، واختار علياً عليه السلام لاخوّته ، وذكر هذه العبارة نفسها .

٢ ـ « يوم المؤاخاة » الثانية بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، إذ تكررت الحالة وكرر رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العبارة .

٣ ـ في اليوم الذي أمر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بغلق أبواب البيوت التي كانت تفتح على مسجد الرسول ، واستثنى باب بيت علي عليه السلام ، مكرراً هذه العبارة نفسها .

٤ ـ في غزوة تبوك ، كما سبق .

وفي ثلاث مناسبات اخرى تذكرها كتب أهل السنّة أيضاً ، وبناءً على ذلك ، لا يبقى مجال للشك في صحة ورود حديث المنزلة لا في أسانيده ، ولا في مفهومه العام .

محتوى حديث المنزلة :

إذا نظرنا الى الحديث المذكور نظرة عابرة ، وأغفلنا أحكامنا السابقة ، أمكننا أن نستنتج أن جميع المناصب التي كانت لهارون في بني إسرائيل من جانب موسى ، باستثناء النبوة ، كان لعلي عليه السلام مثلها ،

وذلك لأنه ليس في الحديث أي قيد ولا أي شرط .

وعليه يمكن أن نصل إلى النتائج التالية :

١ ـ كان علي عليه السلام الأفضل في الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، بمثلما كان هارون في بني إسرائيل .

٢ ـ كان علي عليه السلام وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ومعاونه الخاص ، وشريكه في قيادته الأمة ، إذ ان القرآن أثبت هذه المناصب لهارون (سورة طه ، الآيات ٢٩ ـ ٣٢) .

٣ ـ كان علي عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى في حياته ، ولم يكن أي شخص آخر قادراً على الاضطلاع بتلك المهمة ، وهكذا كان مقام هارون بالنسبة لموسى .

حديث يوم الدار :

جاء في كتب التاريخ الاسلامي ان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر بإعلان دعوته السرية في السنة الثالثة من البعثة ، كما جاء في الآية ٢١٤ من سورة الشعراء :

﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .

فدعا الرسول صلى الله عليه وآله أقرباءه الى بيت عمّه أبي طالب . وبعد تناول الطعام ، قال :

« يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله عزّ وجلّ والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا » . ثم قال : « من يؤاخيني ويؤازرني ويكون

وليّي ووصيي بعـدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟ » فسكت القوم ، فأعادها ثلاثاً . كل ذلك يسكت القوم ، ويقول عليّ: أنا . فقال في المرة الثالثة: « أنت » . فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمّر عليك . وروي عن أبي رافع: أنه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا (أي شبعوا) وسقاهم عسل فشربوا كلهم حتى رووا . ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين وأنتم عشيرتي ورهطي وان الله لم يبعث نبياً إلاّ جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله ، فأيّكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري ووصيي ويكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي؟ فسكت القوم . فقال: ليقومن قائمكم أو ليكونن من غيركم ثم لتنـدمن . ثم أعاد الكـلام ثلاث مرات . فقام عليّ عليه السلام فبايعه فأجابه ثم قال: ادن منّي . فدنا منه ففتح فاه ومجّ في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثدييه ، فقال أبو لهب: بئس مـا حبوت بـه ابن عمّك ان أجـابك فمـلأت فـاه ووجهـه بـزاقـاً . فقـال النبي (ص) ملأته حكماً وعلماً» .

هذا الحديث يعرف باسم « حديث الدار » ، وهو واضح في دلالته بما يكفي . أما من حيث أسانيد الحديث ، فقد ذكـره كثيرون من علمـاء أهل السنة ، مثـل « ابن أبي جريـر » و« ابن أبي حاتم » و« ابن مـردويه » و« أبي نعيم » و« البيهقي » و« الثعلبي » و« الطبري » و« ابن الأثير » و« أبي الفداء » وغيرهم[٣] .

---

(٣) لمزيد من الاطلاع راجع «المراجعات» ص١٣٠ وما بعدها، و«إحقاق الحق» ج٤ ص٦٢ وما بعدها.

ولو أننا نظرنا الى هذا الحديث نظرة عابرة أيضاً لتبينت لنا حقائق ولاية علي عليه السلام وخلافته ، لأنه صريح في هذا الموضوع .

***

فكر وأجب

١ ـ ما « حديث المنزلة » ، وكم مرة قيل؟

٢ ـ ما المقامات التي يثبتها حديث المنزلة للإمام علي عليه السلام؟

٣ ـ ما المنزلة التي كانت لهارون بالنسبة لموسى ، بموجب القرآن؟

٤ ـ مَنْ مِن العلماء نقلوا حديث المنزلة؟

٥ ـ أعد ذكر حديث يوم الدار ومحتواه وسنده والنتائج المستنتجة منه .

الدرس الثامن

حديث الثقلين وسفينة نوح

اسناد حديث الثقلين

من الأحـاديث المشهورة والمعـروفة بين علمـاء السنّة والشيعـة هو « حديث الثقلين » .

هذا الحديث ينقله عدد كبير من الصحابة عن رسـول الله صلى الله عليه وآله مبـاشرة ، ويقـول بعض كبار العلمـاء ان رواة هذا الحـديث لا يقلّون عن ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[1] .

كما أورده عدد كبير من المفسرين والمحدثين في كتبهم ، بحيث لا يمكن الشك في كونه من الأحاديث المتواترة .

يشير العالم الكبير السيد هاشم البحراني في كتابه « غاية المـرام »

(١) «السيرة الحلبية» ج٣٣ ص٣٠٨ .

الى هذا الحديث ويسنده الى ٣٩ سنداً من علماء أهل السنّة ، و٨٠ سنداً من علماء الشيعة . أما (مير حامد حسين) العالم الهندي الكبير ، فقد تعمق في تتبع هذا الحديث ، فوجده مذكوراً عند مائتي عالم من علماء أهل السنّة ، وقد جمع بحوثه حول هذا الحديث في ستة مجلدات ضخام!

ومن بين الصحابة المشهورين الذين ذكروا هذا الحديث: « أبو سعيد الخدري » و« أبو ذر الغفاري » و« زيد بن أرقم » و« زيد بن ثابت » و« أبو رافع » و« جبير بن مطعم » و« حذيفة » و« ضمرة الأسلمي » و« جابر ابن عبدالله الأنصاري» و« أم سلمة » وغيرهم .

أصل الحديث ، كما يرويه أبو ذر الغفاري ، كما يلي :

« لما صدر النبي (ص) من حجة الوداع قال على المنبر: يا أيها الناس إني مسؤول وإنكم مسؤولون . . . إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[٢] .

هذا الحديث روته مصادر أهل السنّة المعتبرة ، مثل « صحيح الترمذي » و« النسائي » و« مسند أحمد » و« كنز العمال » و« مستدرك الحاكم » وغيرهم .

جاء في بعض الروايات تعبير « الثقلين » وجاء في روايات أخرى تعبير « الخليفتين » ، وليس بين هذين من حيث المفهوم فرق كبير .

واللافت للنظر في هذا ان الكثير من الأحاديث الاسلامية المختلفة

---

(٢) نقلا عن «ينابيع المودة» ص٣٧، المنقول من جامع الترمذي .

تقول ان رسول الله صلى الله عليه وآله قد كرر هذا الكلام على الناس مرات عديدة:

ففي رواية « جابر بن عبدالله الأنصاري » تقرأ أن رسول الله صلى الله عليه وآله قاله في يوم عرفة من أيام الحج .

والراوي « عبدالله بن حنطب » يقول انه قاله في « الجحفة » وهو مكان بين مكة والمدينة حيث يحرم الحجاج منه .

وتقول (أم سلمة) إنه قاله في غدير خم .

وجاء في روايات اخرى إنه قاله في أواخر أيامه المباركة وهو على فراش المرض .

وفي رواية اخرى انه قاله من على المنبر في المدينة[٣]

ونقرأ في « الصواعق المحرقة » للعالم السني الكبير « ابن حجر »: ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد علي ورفعها وقال:

« علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[٤]!

وهكذا يتبين ان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أكد هذا المفهوم مرات عديدة باعتباره مبدأ أساساً ، اذ كان ينتهز كل فرصة مواتية لبيان هذه الحقيقة المصيرية البنّاءة لكي لا يطويها النسيان .

---

(٣) «المراجعات» ص٤٢ .
(٤) «الصواعق المحرقة» ص٧٥ .

محتوى حديث الثقلين

هنا لا بد من ملاحظة عدة نقاط :

١ ـ الاشارة الى القرآن والعترة كثقلين أو كخليفتين ، تدل على ان على المسلمين أن يظلوا متمسكين بهما دائماً ، وخاصة اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما جاء في الحديث الشريف:

نص الحديث: « ما ان تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً » . فان الأمر يزداد توكيداً وثبوتاً .

٢ ـ قرن « القرآن » بـ« العترة » متجاورين دليل على انه مثلما ان القرآن لن تناله يد التحريف أبداً ويبقى مصوناً من كل تحريف ، كذلك تكون عترة رسول الله صلى الله عليه وآله في مقام العصمة .

٣ ـ جاء في بعض الروايات ان الله يوم القيامة يحاسب الناس على كيفية ارتباطهم بهذين التذكارين العظيمين .

٤ ـ لا شك اننا مهما يكن تفسيرنا للعترة وأهل البيت ، فان علياً عليه السلام يكون من أبرز مصاديقها ، إذ ان كثيراً من الروايات تقول إنه لم يفترق عن القرآن ، ولا القرآن افترق عنه .

وهنالك روايات اخرى تقول إنه عند نزول آية المباهلة ، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، قائلاً: هؤلاء أهل بيتي[٥] .

---

(٥) «مشكاة المصابيح» ص٥٦٨ ط دلهي ، «الرياض النضرة» ج٢ ص٢٤٨ (نقلاً عن مسلم والترمذي).

٥ ـ على الرغم من أن المسائل الخاصة بيوم القيامة ليست واضحة لنا نحن الذين نعيش محصورين بين جدران هذا العالم ، إلا ان ما يستفاد من الروايات ينبىء بأن « حوض الكوثر » نهر خاص في الجنة ذو مميزات كثيرة ويختص بالمؤمنين الصادقين وبالرسول الكريم وأئمة أهل البيت وأتباعهم .

يتضح من كل ما قلناه ان مرجع الأمة وقائدها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو عليّ عليه السلام ، والأئمة من بعده من أهل هذا البيت .

حديث سفينة نوح:

من التعبيرات اللافتة للإنتباه والواردة في كتب أهل السنّة والشيعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله هو حديث « سفينة نوح » المعروف .

في هذا الحديث يقول أبو ذر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مَثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[٦] .

هذا الحديث من الأحاديث المشهورة التي توجب على الناس اتباع علي عليه السلام وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بعده .

فإذا عرفنا ان سفينة نوح كانت ملجأ ووسيلة النجاة من ذلك الطوفان العظيم الذي شمل العالم ، اتضحت لنا هذه الحقيقة ، وهي انه إذا هبّت الأعاصير والطوفانات بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فما على الأمة إلّا

---

(٦) «مستدرك الحاكم» ج٣ ص١٥١ .

أن تتمسك بأذيال الولاء لأهل البيت ، إذ لا سبيل لها إلى النجاة بغيرهم .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما محتوى حديث الثقلين؟ وما الامتيازات التي يمنحها لأهل البيت عليهم السلام؟

٢ ـ من هم الذين نقلوا حديث الثقلين؟

٣ ـ ما معنى « الثقلين »؟ وهل جاء في الأحاديث تعبير غيره؟

٤ ـ ما المناسبات التي ذكر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الحديث؟

٥ ـ أذكر أسانيد حديث سفينة نوح ومحتواه؟

الدرس التاسع

الأئمة الاثنا عشر

روايات الأئمة الاثني عشر :

بعد إثبات الإمامة والخلافة المباشرة لـلإمام أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، يأتي دور الكلام على إمامة سائر الأئمة .

إن البحث المكثف حول هذا الموضوع يكون كما يلي :

أولاً ، في متناول أيدينا اليوم كتب عديدة لأهل السنّة والشيعة تنقل الروايات التي تتحدث صراحة عن خلافة « الاثني عشر إماماً وخليفـة بعد رسول الله (ص) » .

هـذه الأحاديث مـروية في أهم كتب أهـل السنّة ، مثـل « صحيـح البخاري » و« صحيح الترمذي » و« صحيح مسلم » و« صحيح أبي داود » و« مسند أحمد » وأمثالها .

في كتاب « منتخب الأثر » مئتان وواحد وسبعون حديثاً بهذا الشأن ،

معظمها منقول من كتب أهل السنّة وسائر المصادر الشيعية .

وكمثال على ذلك نقرأ في « صحيح البخاري » . وهو من أشهر كتب أهل السنّة ، ما يلي :

يقول جابر بن سمرة: سمعت رسول الله (ص) يقول « يكون اثنا عشر أميراً » ثم قال كلمة لم أسمعها . فقال أبي انه قال: « كلهم من قريش »[1] .

وقد ورد هذا الحديث في « صحيح مسلم » هكذا: قال جابر سمعت رسول الله (ص) يقول:

« لا يَزالُ الإسلامُ عَزيزاً إلى اثنيْ عشرَ خليفَة ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال؟ فقال: كلهم من قريش »[2] .

وفي « مسند أحمد » عن عبدالله بن مسعود ، الصحابي المعروف ، انه قال: سئل رسول الله (ص) بشأن الخلفاء ، فقال:

« إثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل »[3] .

محتوى هذه الأحاديث:

هذه الأحاديث ـ التي يرى بعضها ان (عزة الاسلام) منوطة (بالاثني عشر خليفة) ويرى بعضها الآخر ان حياة الدين وبقاءه الى يوم القيامة موكولان بهم ، وانهم كلهم من قريش ، وفي بعضها كلهم من بني هاشم ـ

(١) «صحيح البخاري» ج٩ كتاب الامام ص١٠٠ .
(٢) «صحيح مسلم» كتاب الامارة، باب الناس تبع قريش .
(٣) «مسند أحمد» ج١ ص٣٩٨ .

لا تنطبق على أي مذهب سوى المذهب الشيعي وذلك لأن توجيهها بسيط وواضح بحسب معتقدات أهل التشيع ، في الوقت الذي يصل فيه علماء أهل السنّة في توجيهها إلى طريق مسدود .

هل المقصود هم الخلفاء الأربعة الأول إضافة الى خلفاء بني أمية وبني العباس؟

نحن نعلم ، بالطبع ، انه لا الخلفاء الأول كانوا اثني عشر ، ولا بانضمام خلفاء بني أمية وبني العباس إليهم بلغوا هذا العدد . ان العدد اثني عشر لا ينطبق على أي منهم .

ثم ان من بني أمية خلفاء مثل « يزيد » ومن بني العباس مثل « المنصور الدوانيقي » و« هارون الرشيد » ، ممن لا يشك أحد فيما ارتكبوه من جرائم وظلم وطغيان ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارهم خلفاء للنبي (ص) ومدعاة لعزة الاسلام ورفعته مهما تساهلنا في تبسيط الموازين .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، فاننا لن نجد العدد اثني عشر يتمثل في أي مجموعة منهم سوى في أئمة الشيعة الاثني عشر .

يحسن بنا هنا أن نترك الكلام لأحد علماء السنة المعروفين ليشرح لنا الموضوع .

يقول سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي في كتابه « ينابيع المودة » :

« قال بعض المحققين ان الأحاديث الدالة على كون الخلفاء

بعـده صلى الله عليه وآلـه وسلّم إثني عشر قـد اشتهرت من طـرق كثيـرة فبشرح الزمان وتعريف الكـون والمكان علم ان مـراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن ان يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابـه لقلتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلّا عمر بن عبد العزيز ولكونهم من غير بني هاشم لأن النبي صلّى الله عليـه وآلـه وسلم قـال كلهم من بني هـاشم في روايـة عبد الملك عن جابر واخفاء صـوته صلى الله عليـه وسلم في هذا القـول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم ، الآيـة ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى** ﴾[٤] وحديث الكساء فلا بـد من أن يحمل هـذا الحـديث على الأئمـة الاثني عشـر من أهـل بيتـه وعترته صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم صلى الله عليه وسلم وبالوراثة واللدنية كـذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق ويؤيد هذا المعنى أي ان مراد النبي صلى الله عليه وسلم الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهده ويرجحه حـديث الثقلين والأحـاديث المتكـررة المـذكـورة في هـذا الكتـاب وغيرها »[٥] .

---

(٤) سورة الشورى ، الآية : ٢٣ .
(٥) «ينابيع المودة» ص٤٤٦ .

ومن الجدير بالذكر أنني في زياراتي للحجاز وفي أحاديثي مع علمائها ، سمعت منهم تفسيراً آخر لهذا الحديث يبين كيفية وصولهم الى طريق مسدود في هذه المسألة . قال الرجل:

« ربما يكون المقصود بالاثني عشر خليفة ، الخلفاء الأربعة الأول في صدر الاسلام ، والباقي سوف يظهرون في المستقبل »!

وعلى هذا فانهم يغفلون التوالي بين هؤلاء الخلفاء الاثني عشر ، والمفهوم من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله .

اننا نقول: ما الذي يدعو الى ان نهمل التفسير الواضح البيّن للحديث ، كالتفسير المنسجم في توالي أئمة الشيعة الإثني عشر ، ونلقي بأنفسنا في متاهات لا مخرج لها؟

تعيين الأئمة بالإسم:

مما يلفت النظر ان بعض الروايات المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله والتي وصلتنا من علماء أهل السنّة ، تذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم الصريح وتبيّن صفاتهم وفضائلهم .

يقول الشيخ سليمان القندوزي ، العالم السنّي المعروف في كتابه المذكور « ينابيع المودة »:

جاء رجل يهودي يدعى نعثلاً الى رسول الله (ص) ، وكان من بين الأسئلة التي ألقاها عليه انه سأله عن أوصيائه وخلفائه من بعده ، فقال رسول الله (ص):

« إن وصيّي عليّ بن أبي طالب ، وبعده سبطاي الحسن والحسين يتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين .

إذا مضى الحسين فإبنه علي ، فإذا مضى علي فإبنه محمد ، فإذا مضى محمد فإبنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فإبنه علي ، فإذا مضى علي فإبنه محمد ، فإذا مضى محمد فإبنه علي ، فإذا مضى علي فإبنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فإبنه الحجة محمد المهدي ، فهؤلاء إثنا عشر »[٦] .

وفي الكتاب نفسه ، نقلاً عن كتاب « المناقب » ، حديث آخر جاء فيه ذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم واللقب ، ويشير الى غيبة الامام المهدي (عج) وإلى نهضته وانه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما ملئت جوراً وظلماً[٧] .

أما الأحاديث الواردة بهذا الخصوص عن طرق الشيعة فكثيرة تفوق حد التواتر، فتأمّل!

من مات ولم يعرف إمامه . . . :

نقرأ في كتب أهل السنّة حديثاً عن رسول الله (ص) انه قال:

« من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية »[٨] .

هذا الحديث نفسه ورد في كتب الشيعة بهذه الصورة:

---

(٦) المصدر نفسه، ص٤٤١ .

(٧) المصدر نفسه، ص٤٤٢ .

(٨) المعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوية، ج٦ ص٣٠٢ .

« من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية »[٩] .

يدل هذا الحديث دلالة بيّنة على ان الامام المعصوم موجود في كل عصر وزمان وان من الـواجب معرفتـه ، وان عدم معـرفته على درجـة من الضرر بحيث انه يضع الانسان عند تخوم الكفر والجاهلية .

فهـل المعنيون بـالأئمة في هـذا الحديث هم القـائمون على رأس الحكم ، من أمثال جنكيزخان وهارون الرشيد والحكام العملاء؟

لا شك ان الجواب يكون بالنفي ، وذلك لأن الغالبيـة العظمى من هؤلاء أناس منحرفون وظالمون وأحيانـاً يكونـون عملاء للغـرب أو الشرق وينفذون سياساتهم الاستكبارية ، فلا شك في ان معرفتهم وقبول إمامتهم يرسلان الانسان الى « دار البوار » في جهنم .

يتضح من ذلك ان هناك في كل عصر إمامـاً معصومـاً ، وانه يجب البحث عنه ومعرفته وقبوله كقائد وهاد .

إن إثبات إمامة كل إمام يتم ـ بالإضافة الى الطريق المذكور ـ بطريق النصوص والروايات الواردة عن كل إمام سـابق بالنسبـة للإمـام اللاحق ، وكذلك عن طريق معجزاتهم .



---

(٩) «بحار الأنوار» ج٦ ص١٦ الطبعة القديمة .

فكـر وأجب

١ ـ مـا هي الكتب التي وردت فيها الـروايـات الخـاصـة بالأئمة الاثني عشر؟

٢ ـ ما محتوى هذه الروايات؟

٣ ـ كيف تفسّر هذه الأحاديث تفسيرات غير مناسبة؟

٤ ـ هل جاء في أحاديث أهل السنّة أسماء الأئمـة الاثني عشر كلهم؟

٥ ـ ما الطرق الاخرى لإثبات الأئمة الاثني عشر؟

الدرس العاشر

الامام المهدي (عج)
الامام الثاني عشر والمصلح العالمي العظيم

١ ـ نهاية الليلة الظلماء

عنـدما نلقي نـظرة على أوضاعنـا الحاضـرة ونلاحظ تصـاعد نسبـة الجرائم وحوادث القتل والحروب وإراقة الدماء والمصادمات والمنازعـات الدولية واستمـرار اتساع نـطاق المفاسـد الأخلاقيـة ، يبرز في ذهننـا هذا السؤال: هل سيستمر الـوضع على هـذه الحال؟ وهـل يزداد انتشـار هذه الجـرائم والمفاسـد حتى تجر البشـرية الى حـرب دائميـة تهلك الحـرث والنسل؟ أم ان الانحرافـات العقائـدية والمفـاسد الأخـلاقية ، كمستنقـع عفن ، سيبتلع الانسانية ابتلاعاً؟

أم ان هناك بصيص ضوء من أمل في النجاة والاصلاح؟

الجواب الأول هو الذي يقول به المتشائمـون والماديـون ، وهو ان

مستقبل العالم مظلم ، ولا يخلو كل زمان من احتمال الخطر .

أما الذين يؤمنون بمبادىء الأديان السماوية ، وخاصة المسلمون ، والشيعة منهم على الأخص ، فيجيبون بجواب آخر عن هذا السؤال ، فيقولون :

إن وراء هذه الليلة الحالكة السواد صبح أمل مشرق ، وإن هذه السحب الدّكن ، وهذه الأعاصير المهلكة والسيول المدمرة سوف تزول في النهاية ، وتسطع الشمس في سماء صافية وجو صحو .

إن هذه الدوامات المخوفة لا تبقى في طريقنا دائماً ، وإن في الأفق القريب دلائل على وجود ساحل النجاة يطالع الناظرين .

ان العالم ينتظر مصلحاً عظيماً يغير بثورته وجه العالم لصالح الحق والعدالة .

وبالطبع يطلق اتباع كل دين اسماً خاصاً على هذا المصلح المنتظر ، مصداقاً لقول الشاعر :

عباراتنا شتّى وحسنك واحد　　وكل الى ذاك الجمال يشير

٢ ـ الفطرة وظهور المصلح العظيم

ان الإلهامات الباطنية ، التي تكون أمواجها أقوى أحياناً من أحكام العقل ، لا تقتصر على تعريفنا على الله فقط ، بل هي قادرة على أن تكون دليلنا في جميع معتقداتنا الدينية ، بما فيها هذه المسألة أيضاً .

ودلائل ذلك هي :

أولاً : الرغبة العامة في العدالة العالمية . فالناس في العـالم كله ، على ما بينهم من اختلافات ، يحبون ، بلا استثناء ، السلام والعدالة . اننا جميعاً ننادي بهذا ونجاهد في سبيله ونطلب العدالة والسلام العالميين بكل وجودنا .

ليس هناك دليل أفضل من ان انتظار ظهور هذا المصلح العظيم انما هو أمر فطري ، وذلك لأن أي مطلب يريده الناس كافة دليل على فطريته ، فتأمل!

كل حب أصيل وفطري يحكي عن وجود محبوب خارجي وجـذاب كيف يمكن أن يخلق الله هذا التعطش في داخل الانسان دون أن يخلق في خارجه الينبوع الذي يصبو نحوه ليرتوي منه؟

لهذا نقول ان فطرة الانسان وطبيعته التي تبحث عن العدالة تصرخ بأعلى صوتهـا ان الاسلام والعـدالة سـوف يسودان العـالم كله في نهايـة المطاف ، وان مظاهر الظلم والجور والأنانية سوف تـزول ، وان البشريـة ستتـوحد في دولـة واحدة وتعيش تحت رايـة واحدة في جـو من التفـاهم والطهارة .

ثانياً: ان الأديان والمذاهب عموماً تنتظر مصلحاً عالمياً كبيراً . انك تكاد تجد في جميع الأديان فصلاً يحدثك عن هذا الأمر إن الاعتقاد بظهور منج عظيم ، يكـون بلسمـاً لجـراح البشـريـة المؤلمـة ، لا يقتصـر على المسلمين ، بل هناك مستندات وأدلة تؤكد كونه اعتقاداً عاماً وقديماً آمنت

به الأقوام والأديان في الشرق وفي الغرب ، إلّا ان الاسلام ، لكونه الدين الكامل ، يؤكد هذا الأمر توكيداً أكبر .

ففي كتاب « زند » من كتب الزرادشتيين المعروفة ، يرد ذكر الصراع الدائم بين اتباع الله واتباع الشيطان ، ثم يقول:

« بعد ذلك ينتصر الإلهيون على الشيطانيين الذين ينقرضون . . . وان عالم الوجود ينال سعادته الأصيلة ويجلس ابن آدم على كرسي حسن الحظ . . . » .

وفي كتاب « جاماسب نامه » لزرادشت تقرأ ما يلي :

« يخرج رجل من أرض النازيين (العرب) ، عظيم الرأس ، عظيم الجسد ، عظيم الساق ، على دين جده ، في جيش كثير . . . ويملأ الأرض عدلاً » .

وجاء في كتاب « وشن جوك »من كتب الهنود الصينيين :

« وأخيراً ترجع الدنيا الى رجل يحب الله وهو من عباده المخلصين » .

ونقرأ في كتاب للهنود اسمه « باسك » :

« دور العالم ينتهي الى ملك عادل في آخر الزمان ، يكون رائداً للملائكة والجن وبني آدم ، ويكون الحق معه ، ويكون بيده كل كنوز البحار والأرضين ، والجبال ، يخبر عما في السماء والأرض ، ولا ترى الأرض رجلاً أعظم منه » .

وفي « مزامير » داود من كتاب « العهد القديم » (التوراة وما ألحق به) تقرأ:

« يقطع دابر الأشرار ، أما المتوكلون على الله فسوف يرثون الأرض » .

« والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها دائماً » .

وهناك كلام يشبه هذا في كتاب « اشعيا النبي » من كتب التوراة .

وفي الفصل ٢٤ من إنجيل متّى نقرأ:

« كالبرق يخرج من المشرق ويكون ظاهراً حتى المغرب . ابن الانسان سيكون كذلك أيضاً » .

وفي الفصل ١٢ من إنجيل لوقا نقرأ:

« شدوا أحزمتكم ، واشعلوا مصابيحكم ، وكونوا كمن ينتظر سيده ، حتى إذا ما جاء في أي وقت وطرق الباب تسرعون لفتحه »!

جاء في كتاب « علائم الظهور »:

« في كتب الصينيين القدامى ، وفي معتقدات الهنود ، وعند الأهالي الاسكندنافيين ، وحتى عند المصريين القدامى وأهالي المكسيك وأمثالهم ، يسود الاعتقاد بظهور مصلح عالمي » .

٣ ـ الأدلة العقلية:

أ ـ نستخلص من نظام الخلق ان البشر يجب في النهاية ان يخضعوا لقانون العدالة ويستسلموا للنظم العادلة المصلحة الثابتة .

وذلك لأن عالم الوجود ، بالقدر الذي نلاحظه ، عبارة عن مجموعة من النظم . ان وجود هذه القوانين المنظمة التي تحكم العالم بأسره لدليل على وحدة هذا النظام وترابطه .

وتعتبر قضية النظام والقانون والمنهج والتخطيط من أهم مسائل هذا العالم الرئيسة والجادة . فابتداءً من المنظومات الشمسية العظيمة حتى الذرة التي يمكن ان توضع ملايين منها على رأس إبرة ، كلها تخضع لنظام دقيق .

مختلف أجهزة جسم الانسان ، ابتداءً من بناء الخلية العجيب حتى طريقة عمل الدماغ ، وشبكة الاعصاب ، والقلب والرئتين ، كلها تتبع نظاماً دقيقاً وتعمل أشبه بأجهزة الساعة الدقيقة ، كما يعبر عن ذلك أحد العلماء ، بحيث ان أدق الحاسبات الالكترونية لا تكون شيئاً مذكوراً بجانبها .

فهل في هذا العالم الدقيق يمكن للانسان ـ الذي هو جزء من كل ـ أن يظهر بمظهر الرقعة المخالفة في اللون وفي التنظيم ليعيش فيه في حياة كلها حرب وإراقة دماء وظلم؟

هل يمكن لحالة الظلم والفساد الاخلاقي والاجتماعي ، التي تعتبر ضرباً من الفوضى وانعدام النظام ، ان تسود المجتمع البشري حتى الأبد؟

النتيجة هي ان مشاهدة نظام الوجود تلفت نظرنا إلى ان المجتمع البشري لا بد له في النهاية أن يطأطىء رأسه أمام النظام والعدالة ، وان يعود مرة اخرى الى المسير الأصلي الذي خلق للسير فيه .

ب ـ مسيرة المجتمعات التكاملية . وهـذه دليل آخـر على مستقبل البشرية الواضح ، اذ اننا لا يمكن أن ننكر ان المجتمع البشري ، منذ أن عرف نفسه ، لم يتوقف في مرحلة معينة ، بل كان دائم السير والتحرك الى الامام .

فمن حيث الجوانب الماديـة ، المسكن واللباس والغـذاء ، وطرق النقل والمواصلات ، والأفكار التوحيدية ، كان الانسان في وقت ما يعيش في أبسط ظروفها . ولكنه الآن بلغ مرحلة تحير العقول وتغشي العيـون ، ولا شك ان هذا سوف يواصل حركته الصعودية .

أما من حيث العلوم والثقافات فقد كان الانسان يسير سيراً تصاعدياً أيضاً فهو في كل يوم يكتشف شيئاً جديداً ويفتح فتحاً جديداً .

ان هذا « القانون التكاملي » سيشمل في النهاية الجوانب المعنـوية والأخلاقية والاجتماعية أيضاً ، ويتقدم بالانسان نحو قانـون عادل وسـلام عادل ثابت ، وفضائل أخلاقية ومعنوية . إن ما نراه اليوم من تفشي المفاسد الأخلاقية وتفاقمها ، إنمـا هو وسيلة تمهـد الطريق لانضـاج ثورة تكـاملية شاملة .

اننا بالـطبع لا نقـول ان علينا أن نشجـع الفساد ، ولكننـا نقول ان الفساد إذا جاوز الحد أدى الى ثورة أخلاقية . فعندما يصـل الانسان الى طرق مسدودة ويجد عواقب غير محمودة ناشئة من آثامه ، وعندما يـرتطم رأسه بالصخور ، وتبلغ روحه التراقي ، عندئذٍ يكون في الأقـل على أهبة الاستعداد لتقبل المبادىء التي يعرضها عليه القائد الإلهي .

القرآن وظهور المهدي:

في كتابنا السماوي العظيم آيات كثيرة تبشّر بهذا الظهور العـظيم ، نكتفي بواحدة منها فقط .

في الآية ٥٥ من سورة « النور » نقرأ:

﴿ وعد الله الذين آمنـوا منكم وعملوا الصالحـات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ .

تبين هذه الآية بجلاء ان الحكم على الأرض سيخرج في النهاية من أيدي الجبارين والظالمين ، وسيكون الحكم بيد المؤمنين الصالحين .

وفي اثر الآية المذكورة والـوعد الـذي فيها ، يعـد الله ثلاثـة وعود اخرى:

﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .

في تفسير هذه الآية قال الامام علي بن الحسين عليه السلام:

« هم والله شيعتنا يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا وهو مهدي هذه الأمة »[1] .

(١) تفسير «مجمع البيان» الآية ٥٥ من سورة النور.

المهدي في كتب الحديث :

إن الأحاديث التي تشير الى الحكومة العالمية القائمة على السلام والعدل ، والتي يؤسسها أحد أهل بيت رسول الله (ص) اسمه « المهدي » أحاديث كثيرة وردت في كتب الشيعة والسنّة ، وهي من الكثرة بحيث تعدّت حدود التواتر أيضاً .

أما الكلام على انه هو الامام الثاني عشر ، وخليفة رسول الله (ص) والتاسع من أولاد الامام الحسين (ع) ، وانه ابن الامام الحسن العسكري (ع) فهو كثير في المصادر الشيعية .

فمن حيث القسم الأول ، أي التواتر الوارد في كتب أهل السنّة في أحاديث ظهور المهدي ، يكفي ان نقول ان علماء أهل السنّة يشيرون الى ذلك صراحة الى الحدّ الذي نقرأ في الرسالة التي أصدرتها مؤخراً « رابطة العالم الاسلامي » - وهو أكبر مركز ديني في الحجاز - ما يلي :

« انه آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي (ص) في أحاديث صحاح ، والأحاديث عن المهدي نقلت عن كثير من الصحابة عن رسول الله (ص) » .

وبعد ذكر أسماء عشرين من الصحابة الذين نقلوا أحاديث النبي (ص) عن المهدي ، تستطرد الرسالة قائلة :

« وهناك آخرون كثيرون نقلوا هذه الأحاديث وبعض علماء أهل السنّة ألّفوا الكتب الخاصة في الأخبار الواردة عن المهدي ، منهم أبو نعيم الأصفهاني ، وابن حجر الهيثمي ، والشوكاني ، وادريس المغربي ، وأبو

العباس بن عبد المؤمن » .

ثم يضيف بعد ذلك :

« جمع من علماء أهل السنّة القدامى والمحدثين يصرحون بأن الأخبار عن المهدي متواترة » .

بعد ذكر أسماء عدد من هؤلاء تختتم الرسالة كلامها بالقول :

« أعلن فريق من الحفاظ والمحدثين ان أخبار المهدي فيها الصحيح وفيها الحسن، وهي في المجموع من المتواتر قطعاً ، وان الاعتقاد بقيام المهدي صحيح وواجب ، وهذا من عقائد أهل السنّة والجماعة المسلّم بها ، ولا ينكره إلا كل جاهل وصاحب بدعة » .

أما أحاديث الشيعة:

يكفي هنا أن نعلم ان هناك المئات من الأحاديث بهذا الشأن عن رواة مختلفين ، عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع) بما يتجاوز حد التواتر ، وهو عند الشيعة من ضروريات الدين ، بحيث انه لا يمكن لأحد أن يعتنق المذهب الشيعي دون أن يطلع على عقيدتهم بظهور المهدي وخصائص ذلك وعلائم الظهور وكيفية حكومته ومناهجها المختلفة .

لقد أكب كبار علماء الشيعة منذ القرون الأولى حتى اليوم على كتابة الكتب العديدة بهذا الخصوص جمعوا فيها الأحاديث المتعلقة بالمهدي (عج) .

إننا هنا نكتفي بذكر بعض الأحاديث من باب المثال ، تاركين لمن

يريد الاستزادة ان يرجع الى كثير من الكتب المهمة التي ألفت في هذا الموضوع ، منها كتاب « المهدي » تأليف العالم الكبير السيد صدر الدين الصدر .

قال رسول الاسلام (ص) :

« لو لم يبق من الدهر إلّا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[٢] .

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

« إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع الجور في أيامه وأمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها ورد كل حق الى أهله . . . وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمد (ص) فحينئذٍ تظهر الأرض كنوزها وتبدي بركاتها ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ولبره لشمول الغنى جميع المؤمنين »[٣] !

ملاحظة : نعم انه في زمان غيبة امام العصر (أرواحنا فداه) يستمر خط الامامة والولاية متمثلاً في نواب الامام . وقد جاء بحث ذلك في كتاب « حكومت اسلامي » تحت عنوان « ولايت فقيه » .

* * *

(٢) جاء هذا الحديث في أغلب كتب الشيعة وأهل السنّة .

(٣) «بحار الأنوار» ج١٣ الطبعة القديمة .

فكر وأجب

١ ـ ما الاختلاف في نظرة الذين يعبدون الله والماديين بالنسبة لمستقبل العالم؟

٢ ـ هل يمكن ان نعلم بظهور المهدي بالفطرة؟ كيف؟

٣ ـ هل هناك دليل عقلي على الظهور؟ ما هو؟

٤ ـ ما يقول القرآن بهذا الشأن؟

٥ ـ كيف هي دراسة السنّة في هذا الموضوع؟

الفهرس

معرفة العدل الإلهي



سلسلة أصول الدين
٤

معرفة العدل الإلهي

تأليف
ناصر مكارم الشيرازي

ترجمة
جعفر صادق الخليلي



الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م



لبنان - بيروت - بئر العبد خلف محطة دياب

تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+)

ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com

المقدمة

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان عموماً يؤمن بما تهواه نفسه وتميل إليه حسب فطرته من الأصول والعقائد التي يعتنقها ويلتزم بها .

ومما لا شكَّ فيه أن المسلم خصوصاً الذي يؤمن بالإسلام ديناً بحسب فطرته يؤمن بأصول عقائد الدين الإسلامي .

ولكنه بالرغم من تمسكه وإيمانه بأصول الدين إلا أنه قد تواجهه الكثير من المشاكل إذا ما جوبه ببعض الشكوك والشبهات التي قد تؤدي الى زعزعة إيمانه وتمسكه بهذه العقائد ، لعدم فهمه واستيعابه لها فهماً عميقاً وبالاستدلال والإثبات المنطقي .

لذا فإن هذا الكتاب من نفحات آية الله ناصر مكارم الشيرازي يمتاز بكونه يمنح الإنسان المسلم تلك القوة التي ترسخ بذاته إيمانه وتمسكه بأصول الدين وعقائد الإسلام . ويمتاز الكتاب أيضاً ببساطته وسلاسته التي

تجعل منه كتاباً في متناول عامة الناس وخاصتهم .

نسأل المولى العليّ القدير التوفيق والسداد لما فيه الخير والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر

الدرس الأول

ما هو العدل

* ـ لماذا اعتبر العدل ، من بين سائر صفات الله ، جزءاً رئيساً من أصول الدين ؟

* ـ الفرق بين «العدالة» و«المساواة» .

* * *

١ ـ لماذا اختير العدل من بين سائر الصفات ؟

قبل الخوض في هذا البحث لا بد من ان يتضح لنا : لماذا اعتبر العلماء العظام صفة العدالة ، التي هي واحدة من صفات الله ، «أصلاً» من «أصول الدين الخمسة» ؟

ان الله «عالم» و«قادر» و«عادل» و«حكيم» و«رحمان» و«رحيم» و«أزلي» و«أبدي» و«خالق» و«رزاق» ، فلماذا اختاروا «العدالة» دون سائر صفات الله لتكون أحد أصول الدين الخمسة ؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة عدة نقاط :

١ ـ ان للعدالة ، من بين سائر صفات الله ، أهمية خاصة بحيث ان كثيراً من الصفات الأخرى يعود عليها ، لان «العدالة» بمعناها الواسع ، هي وضع الأمور في مواضعها ، وعلى ذلك فان صفات أخرى مثل «حكيم» و«رزاق» و«رحمان» وأمثالها تعتمد على العدالة في معانيها .

٢ ـ كما ان «المعاد» يستند على «العدل الإلهي» ، وكذلك ترتبط رسالة الأنبياء ومسؤولية الأئمة بعدالة الله أيضاً .

٣ ـ ظهر في صدر الاسلام خلاف بشأن مسألة عدالة الله ، فقد أنكر بعض المسلمين (وهم الأشاعرة) عدالة الله كلياً ، وقالوا : ان «العدالة» و«الظلم» لا معنى لهما بالنسبة لله ، فكل عالم الوجود ملكه وله ، وكل ما يفعله فهو العدالة بعينها ، لقد أنكر هؤلاء حتى «الحسن» و«القبح» العقليين ، قائلين ان عقولنا لا تستطيع ان تدرك هاتين الصفتين مطلقتين ، بل أنها لا تدرك حُسْنَ الحَسَن ولا قبح القبيح (وكثير غير هذه الاخطاء) .

وفريق آخر من أهل السنة (وهم المعتزلة) ومعهم الشيعة ، قالوا بعدالة الله وبأنه لا يظلم أبداً .

وللتمييز بين هذين الفريقين ، اطلقوا على الفريق الثاني اسم (العدليين) أو «العدلية» لانهم اعتبروا «العدل» عنوان مدرستهم وأصلاً من أصول الدين ، ومنهم الشيعة ، وأطلقوا على الفريق الآخر اسم «غير العدليين» .

ولكي يميز الشيعة انفسهم عن بقية «العدليين» اعتبروا الإمامة أصلاً

آخر من أصول الدين .

وعليه ، أصبح «العدل» و«الإمامة» من مميزات مذهب الشيعة الإمامية .

٤ ـ بما ان فروع الدين ليست سوى اشعاعات أصول الدين ، وان اشعة عدالة الله شديدة التأثير في المجتمع البشري ، اصبحت العدالة الإجتماعية من أهم اسس المجتمع الإنساني ، إن اختيار العدالة كأصل من أصول الدين إشارة إلى إحياء العدل في المجتمعات البشرية ومكافحة كل أنواع الظلم .

ومثلما كان توحيد ذات الله وصفاته وعبادته نوراً دعا للوحدة والاتحاد في المجتمع الإنساني لتمتين وحدة الصفوف ، كانت قيادة الانبياء والائمة مثلاً «للقيادة الحقة» في المجتمعات الإنسانية وعليه ، فان أصل عدالة الله السائدة في كل عالم الوجود ، إشارة إلى ضرورة تطبيق العدالة في المجتمع البشري على الأصعدة جميعها .

إن عالم الخليقة العظيم قائم على العدالة ، لذلك لا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني بغير العدالة .

٢ ـ ما هي العدالة ؟

للعدالة معان مختلفة :

أ ـ معنى العدالة العام والشامل هو ، كما قلنا : وضع الأمور في مواضعها ، أي التوازن والتعادل ، وهذا المعنى هو المهيمن على عالم الخليقة برمته ، على المنظومات الشمسية ، على الذرة ، على بناء كيان

الانسان وجميع الحيوان والنبات ، وهذا هو المعنى الذي ورد في الحديث النبوي الشريف : «بالعدل قامت السماوات والأرض» .

فمثلاً ، لو اختل تعادل القوتين الجاذبة والدافعة في الكرة الأرضية ، وزادت احداها على الأخرى ، لانجذبت الأرض نحو الشمس واحترقت وتلاشت ، أو لخرجت عن مدارها وتلاشت في الفضاء الفسيح .

والعدالة هي انك إن سقيت شجيرة الورد وأشجار الاثمار فقد سكبت الماء في موضعه ، وهذا هو العدل بعينه ، وإن أنت سقيت الاشواك والطفيليات ، فقد ارقت الماء في غير موضعه ، وهذا الظلم بعينه .

ب ـ وثمة معنى آخر للعدل ، وهو «مراعاة حقوق الناس» ، ويقابل «الظلم» وهو الاستئثار بحقوق الآخرين ، أو انتزاع حق شخص واعطائه لآخر لاحق له فيه ، أي المحاباة ، أي اعطاء بعض حقهم ، ومنعه عن بعض آخرين .

بديهي ان المعنى الثاني «خاص» والمعنى الاول «عام» ، وان كلا معنيي «العدل» يصدقان بحق الله ، غير ان المعنى الثاني هو المقصود في بحثنا هذا ، في أغلبه .

معنى «عدل» الله هو أنه لا يسلب أحداً حقه ، ولا يأخذه من بعض ليعطيه لبعض آخر ، ولا هو يحابي بين الأشخاص ، فهو عادل بكل معاني الكلمة ، ولسوف نتعرف على دلائل عدالته في الدرس القادم .

ان الله منزه عن «الظلم» سواء اتمثل بأخذ حق أحد ، أم إعطاء حق

أحد لآخر ، أم بالاجحاف والمحاباة .

أنه لن يعاقب من يعمل الصالحات ، ولا يثيب المسيء ، ولا يأخذ أحداً بذنب أحد ، ولا يحرق الأخضر بجرم اليابس أبداً .

وإذا كان جميع افراد مجتمع ما مذنبين ، سوى شخص واحد ، فان الله يفصل حساب هذا الشخص عن الآخرين ، ولا يضعه في العقاب في مصاف المذنبين .

أما مقولة «الاشاعرة» بان الله اذا أرسل الانبياء إلى الجحيم ، والمذنبين إلى الجنة ، لا يكون ظالماً ، فهي مقولة جزاف ، قبيحة ، مخجلة ولا أساس لها ، وإن كل شخص لم يغلف عقله التعصب والخرافات يشهد بقبح هذا القول .

ج ـ الفرق بين «المساواة» و«العدالة» :

إن النقطة المهمة الأخرى التي لا بد من الإشارة إليها في هذا البحث هي ما يجري احياناً من الخلط بين «المساواة» و«العدالة» على اعتبار ان العدالة هي تطبيق المساواة ، ولكن الأمر ليس كذلك .

المساواة ليست شرطاً من شروط العدالة ، بل العدالة هي إعطاء كل حق لمستحقه وأخذ الاولويات بنظر الاعتبار .

فالعدالة بين تلاميذ صف واحد ، مثلاً ، ليست في منح جميعهم درجات متساوية ، وليست العدالة بين عاملين في اعطائهما اجوراً متساوية ، بل العدالة هي ان ينال كل تلميذ الدرجة التي تستحقها معلوماته

ولياقته العلمية ، وان ينال كل عامل اجرته بحسب أهمية العمل الذي يؤديه .

والعدالة في عالم الطبيعة تدخل ضمن هذا المعنى الواسع ، فلو أن قلب حوت (البالن) الذي يزن طناً واحداً قد ساوى قلب عصفور لا يكاد يزن اكثر من بضعة غرامات ، ما كان ذلك عدلاً ، ولو تساوت جذور شجرة ضخمة مع جذور نبتة صغيرة لما كان ذلك عدلاً ، بل لكان ظلماً فاضحاً .

فالعدالة ، اذن هي ان ينال كل كائن نصيبه بموجب ما يتطلبه استحقاقه واستعداده ولياقته .

* * *

فكر وأجب

١ ـ لماذا اعتبرت العدالة ، من بين سائر صفات الله ، أصلاً من أصول الدين ؟

٢ ـ من هم الأشاعرة ؟ ماذا تعرف عن معتقداتهم ؟

٣ ـ ما هي تأثيرات الاعتقاد بالعدل الإلهي على المجتمع الإنساني ؟

٤ ـ ما هي معاني العدالة ؟ اشرحها .

٥ ـ هل العدالة تعني المساواة ؟

الدرس الثاني

دلائل عدالة الله

١ ـ الحسن والقبح العقليان :

لا بد لنا مبدئياً ان نعرف ان عقلنا يدرك إلى حد كبير «حسن» الاشياء و«قبحها» وهذا هو ما يطلق عليه العلماء اسم الحسن والقبح العقليين .

فمثلاً ، نحن نعلم ان العدل والإحسان أمران حسنان ، وإن الظلم والبخل أمران قبيحان ، وحتى قبل ان يتحدث الدين عن هذه الأمور فاننا نعرفها ، على الرغم من وجود أمور أخرى لا تكفي معلوماتنا لادراكها ، بل لا بد لنا ان نستعين بارشاد الأنبياء والقادة الإلهيين .

ولذلك إذا ما أنكر فريق الاشاعرة المسلمون الحسن والقبح العقليين ، وقالوا بأن طريق معرفتهما ، حتى في حالات واضحة مثل العدل والظلم ، هو حكم الشرع والدين ، فانما هم على خطأ مبين .

وذلك لأن عقلنا اذا لم يكن قادراً على ادراك الحسن والقبح فكيف

يكون لنا ان نعلم بان الله لا يمنح الكاذب القدرة على الإتيـان بمعجزة ؟ لكننا اذا ادركنا ان الكذب قبح ، ويستحيل صدوره عن الله ، ادركنا أيضاً ان وعد الله حق ، وقولـه صدق ، فـلا يمكن ان يؤيد الكـذب بأن يمنـح الكاذب القدرة على القيام بمعجزة .

هنا يمكن الاعتماد على ما ورد في الشرع والدين ونستنتج من هذا ان الاعتقاد بالحسن والقبح العقليين أمر ديني .

***

نعود الآن إلى دلائل العدالة الإلهية ، ولادراك هذه الحقيقة يجب ان نعرف :

٢ ـ ما هو مصدر الظلم ؟

مصدر الظلم يمكن ان يكون أحد الأمور التالية :

أ ـ الجهل : قد نجد ظالماً لا يدري أنـه يظلم فعـلاً ، لا يعلم أنه يدوس بقدمه حقوق الآخرين ، أنه جاهل بما يفعل .

ب ـ الحاجة : قد يطمع المرء في ما يملكه الآخرون ، فيوسوس له الشيطان ان يستحوذ عليها ، ولولا الحاجة لمـا كان هنـاك ما يحمله على الظلم .

ج ـ الانانية والحقد والانتقام : يحدث احياناً ان لا تكون الاسباب المذكورة سابقاً هي الدافع على الظلم ، بل يكـون السبب هو الأنـانية أو الحقـد أو حب الانتقام ، فيعتـدي على حقوق الآخـرين ، أو قـد يكـون السبب هو حب الاحتكار .

د ـ العجز والضعف : يحدث احياناً ان لا يكون المرء راغباً في التقصير بحق الآخرين ، ولكنه لا قدرة له على الامتناع عن ذلك فيرتكب الظلم .

غير ان هذه الصفات القبيحة والنقائص لا وجود لها في ذات الله المقدسة ، لانه عالم بكل شيء ، وغني عن كل شيء ، وقادر على كل شيء ورحيم بالعالمين رؤوف ، فلا حاجة له بالظلم .

ان الله لا متناهي الوجود ، ولا تحد كماله حدود ، ولا يصدر عنه سوى الخير والعدل والرأفة والرحمة ، ولكنه اذ يعاقب المسيئين فذلك بسبب اعمالهم ، كالذين يستعملون المواد المخدرة أو يشربون المشروبات الكحولية ، فيصابون بمختلف الأمراض القاتلة نتيجة لذلك .

يقول القرآن المجيد : ﴿ **هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون** ﴾[1] .

***

٣ ـ القرآن وعدالة الله :

يولي القرآن الكريم هذه المسألة اهتماماً كبيراً ، إنه في أحد المواضع يقول : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾[2] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ **ان الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾[3] ، وفي موضع الحساب والجزاء يوم القيامة يقول : ﴿ **ونضع**

---

(١) سورة النمل ، الآية(٩٠) .
(٢) سورة يونس ، الآية(٤٤) .
(٣) سورة النساء ، الآية(٤٠) .

الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾[٤] .

(بديهي ان القصد من الموازين هنا هو وسائل القياس ، لا الموازين الاعتيادية) .

٤ ـ الدعوة إلى العدل :

قلنا إن صفات الانسان ينبغي ان تكون انعكـاساً عن صفـات الله ، بحيث تنعكس صفات الله على المجتمع الإنساني برمته ، وبناءً على ذلك فان القرآن ، بقدر توكيده العدالـة الإلهية ، يؤكـد أيضاً سيـادة العدل في المجتمع وفي كل فرد فيه ، كثيراً ما يشير القرآن إلى الظلم باعتباره سبب فناء المجتمعات البشرية ، ويرى عاقبة الظالمين من أفظع العواقب .

في معرض بيان مصائر الاقوام السالفة يطلب القـرآن من الناس ان يعتبروا بتلك الاقوام وكيف انها بسبب ظلمها وفسادها نزل عليها العـذاب الإلهي وقضي عليهـا ، فيدعـوهم إلى ان يتجنبـوا مصيـراً كمصـائـر تلك الاقوام .

يصرح القرآن باحد مبادئه الرئيسة فيقـول : **﴿ ان الله يأمـر بالعـدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾**[٥] .

من اللافت للنظر أنه مثلما ان الظلم عمل قبيح ، فان تقبـل الظلم والخضوع له عمل خطأ أيضاً في نظر الاسلام ، كما جاء في الآية ٢٧٩ من

---

(٤) سورة الانبياء ، الآية(٤٧) .
(٥) سورة النحل ، الآية(٩٠) .

سورة البقرة : ﴿ **لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ .

ان الاستسلام للظالمين يعني القبول بـالظلم ونشـره واعانـة الظالم عليه .

***

فكر وأجب

١ ـ هـل يستطيع عقلنا ان يـدرك الحسن والقبح بـدون تدخل الشرع ؟

٢ ـ ما هو مصدر الظلم ؟ مـا الدليـل العقلي على عدالـة الله ؟

٣ ـ ما الذي يقـوله القـرآن بشأن عـدالة الله وتنزيهه عن الظلم ؟

٤ ـ ما هو واجب الانسان في قبال العدل والظلم ؟

٥ ـ هل الاستسلام للظلم والخضوع له إثم أيضاً ؟

الدرس الثالث

فلسفة الكوارث والآفات

منذ القديم كان فريق من الجهال يعترضون على عدالة الله ، ويوردون حالات يعتقدون أنها لا تأتلف مع عدالة الله ، بل أنهم لم يعتبروها أدلة تنفي العدالة عن الله فحسب ، بل قالوا أنها دليل على عدم وجود الله ذاته!

من تلك الحالات التي يستدلون بها على ذلك هي «الطوفانات» و«الزلازل» والكوارث العامة الأخرى ، وكذلك «التفاضل» الموجود بين الافراد ، ووجود الآفات والامراض التي تصيب الانسان والنبات وسائر الكائنات في عالم الوجود .

وقد يرد هذا البحث ضمن موضوع معرفة الله في قبال الماديين ، وقد يرد في بحث الله عموماً ، ونورده نحن هنا ، ولكي ندلك على مدى خطل هذه الافكار عند التحليل الدقيق ، لا بد ان يكون لنا بحث مسهب

بهذا الشأن وان ندرس الأمور التالية بدقة :

١ ـ الحكم النسبي وقلة المعرفة :

أننا نستند عادة في اصدار احكامنا وتمييز المصاديق على علائقنا بالأشياء ، كقولنا ان الشيء الفلاني قريب أو بعيد ، بالنسبة لموقعنا نحن ، أو نقول ان فلاناً ضعيف أو قوي بالقياس إلى حالتنا النفسية أو الجسمية ، كذلك هي حال اغلب الناس عند اصدار احكامهم على القضايا الخاصة بالخير والشر والكوارث والآفات .

فمثلاً ، إذا نزل المطر في منطقة ، فليس يعنينا تأثيره في المجموع العام ، بل لا تتعدى نظرتنا محيط حياتنا وبيتنا ومزرعتنا ، أو مدينتنا في الحد الاقصى ، فاذا كان لهذا المطر تأثير إيجابي قلنا أنه نعمة من الله ، واذا كان تأثيره سلبياً ، اطلقنا عليه اسم «البلاء» .

عندما يهدمون عمارة توشك على الانهيار لكي يعيدوا بناءها ، ولا يكون نصيبنا من ذلك سوى الغبار الذي يدخل خياشيمنا أثناء مرورنا بالمكان ، نقول : ما أسوأ هذا! على الرغم من ان المستقبل القريب سوف يشهد بناء مستشفى حديث على انقاض العمارة المتهدمة يستفيد منه الناس ، أو على الرغم من ان لهطول المطر في المثال السابق تأثيراً مفيداً من حيث المجموع .

اننا في احكامنا السطحية المألوفة نعتبر لسعة الحية شراً ، بغير ان نعلم ان هذه اللسعة وما فيها من سم إنما هي وسيلة دفاع في هذا الحيوان ، وان هذا السم نفسه يصنع منه دواء شاف قد ينقذ حياة الآلاف

من بني البشر .

وعليه ، إذا كان علينا ان لا نقع ضحايا للخطأ ، فلا بد لنا ان نلقي نظرة على معلوماتنا المحدودة لكي لا نقيم أحكامنا على مجرد العلائق التي تربط الاشياء بنا وإنما ينبغي ان ننظر إلى الأمر من جميع الجوانب بحيث تكون احكامنا جامعة شاملة .

ان جميع حوادث العالم ، من حيث الاساس ، اشبه بسلسلة مترابطة الحلقات ، ان العاصفة التي تهبّ اليوم في مدينتنا ، والامطار الغزيرة التي تهطل ، حلقات في هذه السلسلة المديدة التي ترتبط بحوادث تجري في مناطق أخرى ، وكذلك ترتبط بحوادث جرت في «الماضي» وأخرى سوف تجري في «المستقبل» .

وعليه ، فان وضع الاصبع على نقطة صغيرة واصدار حكم حاسم بشأنها بعيد عن العقل والمنطق .

ان ما يفعله الخلق «شر مطلق» ، ولكن اذا كان الأمر من جهة خيراً ومن جهة شراً ، مع الغلبة للخير - كالعملية الجراحية المؤلمة من جهة والمفيدة من جهات أخرى - يعتبر خيراً نسبياً .

وللتوضيح نعود إلى مثال الزلزلة : صحيح أنها تؤدي إلى الدمار في مكان معين ، ولكننا اذا اخذنا بنظر الاعتبار علائق هذه الظاهرة المتسلسلة بأمور أخرى في الطبيعة لتغير حكمنا .

هل الزلزلة ترتبط بحرارة باطن الأرض والابخرة المتكونة فيه ؟ أم أنها ترتبط بقوة جاذبية القمر التي تجذب ما على الأرض من جوامد نحوه ؟

أم أنها ترتبط بكليهما ؟ إن للعلماء نظريات مختلفة بهذا الخصوص .

ولكن مهما يكن السبب ، فلا بد لنا ان ننظر إلى الآثار الأخرى لهذه الظاهرة ، من ذلك ، مثلاً ، يجب ان نعرف تأثير حرارة باطن الأرض في تكوين منابع النفط الذي يعتبر من أهم مصادر الطاقة في عصرنا ، وكذلك في تكوين الفحم الحجري وأمثالهما ، وعليه فان حرارة باطن الأرض خير نسبي .

كذلك الأمر مع المد والجزر الحاصلين بتأثير جاذبية القمر لمياه البحار ، إذ أن لهما أهمية كبرى في حركة مياه البحار والابقاء على حياة المخلوقات البحرية ، وكذلك في ارواء السواحل الجافة في المناطق التي تصب فيها المياه العذبة في البحر ، هذا أيضاً خير نسبي .

من هذا ندرك ان أحكامنا النسبية ومعلوماتنا المحدودة هي التي تظهر امثال هذه الحوادث بصورة نقاط مظلمة على صفحة الخليقة ، وكلما تعمقنا في التأمل والتفكير في العلائق التي تربط هذه الحوادث ببعض ادركنا أهميتها .

يقول لنا القرآن المجيد : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً** ﴾[1] .

فلا ينبغي لنا بعلمنا القليل هذا ان نتعجل اصدار الأحكام .

٢ ـ الحوادث المنغصة والتحذيرات :

أننا جميعاً نعرف اشخاصاً عندما غرقوا في نعمة ركبهم «الغرور»

(١) سورة الإسراء ، الآية(٨٥) .

و«حب الـذات» فنسـوا ، وهم في هـذه الحـالـة ، الكثيـر من واجبـاتهم الإنسانية .

كما اننا جميعاً نعرف اشخاصاً اذا ما كان بحر حياتهم هادئاً وكـانوا متنعمين بالراحة والدعة ، انتابتهم حالة من «السبات والغفلة» ، وهي حالة ان دامت عندهم ادت إلى تعاستهم وشقائهم .

لا شك ان بعضاً من الحوادث المنغصة هدفه وضع حد لتلك الحالة من الغرور وإلى إيقاظ الإنسان من سبات غفلته .

لا بد أنكم سمعتم بان سواق السيارات المجربين يشكون من الطرق الممهدة الصافية المستقيمة الخالية من كل اعوجاج وارتفاع وانخفـاض ، قائلين ان هذه الطرق خطرة ، وذلك لان رتابتها تحمل السائق على الشعور بالنعاس ، وفي هذه الحالة يكمن الخطر .

لـذلـك نجـد هـذه الـطرق في بعض البلدان وقـد اصـطنعـوا لهـا الانحناءات والمرتفعات والمنخفضات للحيلولة دون وقوع السواق في مثل تلك الحالات .

ان خطر سير حياة الانسان لا تختلف عن ذلك ، فاذا خلت الحيـاة من المنعطفات والالتواءات والمنخفضات ، واذا لم يعتورها احياناً بعض المنغصات ، استولت على الانسان تلك الحالة من نسيان الله والغفلة عن ذكره وعن القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه .

اننا ، بالطبع ، لا نقول ان على الانسان ان يصطنع لنفسه الحوادث المنغصة وان يستقبل الاحزان ، وذلك لان امثال هذه الحوادث كانت دائماً

موجودة في حياة الانسان ، ولكننا نريد التذكير بأن فلسفة جانب من هـذه الحوادث هي الوقوف بوجه الغرور والغفلة والنسيان التي هي اعدى اعداء سعادته ، نكرر القول بأن هذه هي فلسفة بعض تلك الحوادث ، لا كلها ، اذ ان هناك حوادث أخرى سوف نتحدث عنها إن شاء الله .

يقول كتابنا السماوي العظيم : ﴿ **فأخـذناهم بـالبأسـاء ، والضراء لعلهم يتضرعون** ﴾[٢] .

فكـر وأجب

١ ـ من هم الذين طرحوا الكوارث والآفـات في البحوث العقائدية ؟

٢ ـ هات نماذج للكوارث والآفات ، وهـل صادفتـك في حياتك ؟

٣ ـ ماذا نقصد بالحكم النسبي والمطلق ، وما هو «الشـر المطلق» و«الخير النسبي» ؟

٤ ـ هل الأعاصير والزلازل مضرة دائماً ؟

٥ ـ كيف يمكن ان تكون لمنغصات الحياة آثار إيجابية في نفسية الانسان ؟

---

(٢) سورة الانعام ، الآية(٤٢) .

الدرس الرابع



حكمة المنغصات في حياة الانسان

قلنا ان فريقاً من المعارضين العيّابين تناولوا الحوادث المنغصة وظهور الآفات والمشكلات والاحباطات التي تصيب الانسان في حياته ، وجعلوها ذريعة لانكار عدالة الله ، بل حتى انكار وجود الله ذاته .

في البحث السابق حللنا بعضاً من تلك الحوادث واشرنا إلى فلسفتين اثنتين لها ، والآن نواصل البحث مرة أخرى .

٣ ـ الانسان يتربى في أحضان المشكلات :

نكرر مرة أخرى ان الانسان ينبغي الاّ يخلق بيده المشكلات والمنغصات لنفسه ، ولكن كثيراً ما يحدث ان تكون الحوادث الصعبة والمنغصة سبباً في تقوية ارادتنا وزيادة قدرتنا على التحمل ، كالفولاذ الذي يدخلونه النار الحامية ليسقوه فيزداد قوة وصلابة اننا ندخل أتون هذه الحوادث لنخرج أكثر تجربة وأصلب عوداً .

الحربِ حدث سيِّىء، ولِكن رب حرب ضروس طويلة الامد كشفت عن مواهب الشعب الكامنة ، وأبدلت تشتته وحدة ، وأسرعت في جبران نواقصه .

يقول أحد المؤرخين الغربيين المعروفين : «ان كل حضارة لامعة ظهرت على امتداد التاريخ في مكان ما ، ظهرت بسبب تعرض ذلك الشعب لهجوم دولة عظمى خارجية ، فأيقظت قواه الكامنة وحشدتها» .

بديهي ان تأثر جميع الاشخاص والمجتمعات بحوادث الحياة المرة ليس بمستوى واحد ، فبعض ينتابهم اليأس ويستولي عليهم الضعف والتشاؤم ، فيكون تأثرهم سلبياً ، وبعض آخر لهم الاستعداد والاهلية ليتفاعلوا مع تلك الحوادث تفاعلاً إيجابياً ، فيكون ذلك سبباً في تحريك مواهبهم ومؤهلاتهم فتفور وتغلي وتسرع لاصلاح نقاط الضعف فيهم .

ولكن بما ان معظم الناس يصدرون احكاماً سطحية في مثل هذه الحالات ، فانهم يرون المنغصات ويتذوقون مرارتها ، دون الالتفات إلى آثارها الإيجابية البناءة .

اننا لا ندّعي بأن جميع الحوادث المرة لها مثل هذه التأثيرات في الانسان ، ولكن لقسم منها ، في الاقل ، مثل هذه التأثيرات .

لو انك درست سير حياة نوابغ العالم للاحظت انهم في غالبيتهم قد كبروا وترعرعوا في خضم المشكلات والمصاعب ، إنك قلما تجد بين المتنعمين المرفهين من أظهر شيئاً من النبوغ في حياته ووصل إلى مراكز رفيعة ، ان القادة العسكريين العظام هم أولئك الذين شهدوا حروباً طويلة

صعبة ، والعقول الاقتصادية المتفكرة هي التي صارعت تقلبات الاسواق والازمات الاقتصادية في العالم ، والسياسيون العظام الاقوياء هم الذين استطاعوا منازلة المشكلات السياسية العويصة ، باختصار ، ان المشكلات والآلام هي التي تربي الانسان في احضانها ، نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾[1] .

٤ ـ المشكلات سبب العودة إلى الله :

قرأنا في الدروس السابقة ان لكل جزء من اجزاء وجودنا هدفاً معيناً ، فالعين خلقت لهدف ، والاذن خلقت لهدف آخر ، وكذلك القلب والدماغ والاعصاب خلقت ولكل منها هدف ، وحتى خطوط رؤوس أصابعنا لها في خلقها هدف وحكمة .

اذن ، كيف يمكن ان يكون كل وجودنا بدون هدف ولا حكمة ؟

كذلك قرأنا في الدروس السابقة ان الهدف ليس سوى بلوغ الانسان التكامل من جميع الوجوه .

لا شك في ان الوصول إلى هذا التكامل يتطلب برامج تعليمية وتربوية عميقة تستغرق كل كيان الانسان ، لذلك فان الله سبحانه وتعالى ، فضلاً عن كونه قد وهب الانسان فطرته التوحيدية الطاهرة ، ارسل الأنبياء العظام والكتب السماوية للإضطلاع بمهمة قيادة الانسان في مسيرته التكاملية .

---

(١) سورة النساء ، الآية(١٩) .

وفي غضون ذلك ، يريه الله احياناً انعكاسات ذنوبه ويواجهه ببعض المشكلات والآلام في حياته ، للوصول به إلى التكامل عن طريق انكشاف عواقب اعماله القبيحة المشؤومة ، فيندم ويعود بتوجهه إلى الله ، في هذه الحالة يكون بعض المشكلات والحوادث المؤلمة رحمة من الله ونعمة ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : **﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾**[٢] .

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا الذي قلناه ، تكون نظرتنا إلى الحوادث المؤلمة باعتبارها «شراً وبلاءً» وأنها تخالف العدالة الإلهيـة ، نظرة بعيـدة كل البعد عن المنطق والدليل العقلي ، إذ اننا كلما ازددنا تعمقـاً في هذا الموضوع ازداد امامنا وضوح ما فيه من حكمة وما وراءه من فلسفة .

* * *

---

(٢) سورة الروم ، الآية(٤١) .

فكر وأجب

١ ـ ما الهدف من خلقنا ؟ وكيف نصل إليه ؟

٢ ـ كيف يزداد الانسان خبرة وصلابة عن طريق مواجهة المشكلات ومقاومتها ؟

٣ ـ هل سمعتم أو قرأتم عن اشخاص قويت شكيمتهم واشتدت عزائمهم وبلغوا مناصب مهمة ، بسبب احتمالهم المشكلات القاسية ؟ احكوا لنا ما تعرفونه عنهم ؟

٤ ـ ما الذي يقوله القرآن بشأن نتائج ذنوبنا ؟

٥ ـ من يتوصل إلى نتائج إيجابية من الحوادث المؤلمة ؟ ومن الذي يصل منها إلى نتائج سلبية ؟

الدرس الخامس



عودة الى الحكمة في الآفات والكوارث

لما كانت قضية الآفات والكوارث والحوادث المؤلمة تعتبر مشكلة مستعصية بوجه دارسي مسألة معرفة الله والتوحيد ، فلا بد لنا من العودة مرة أخرى لبحث هذه القضية وتحليلها ومواصلة ما أوردناه بخصوص الحكمة في بعض الافات والمصاعب .

٥ ـ التقلبات والمشكلات تهب الحياة روحاً وحيوية :

لعل من الصعب على الكثيرين ان يدركوا ان النعم والعطايا إذا استمرت على وتيرة واحدة تفقد قيمتها وأهميتها .

لقد ثبت اليوم علمياً اننا إذا وضعنا جسماً في حجرة مدورة ملساء تماماً وسلطنا عليه نوراً قوياً من جميع الجهات لما امكنت رؤية ذلك الجسم ، لان وجود الظل الممتد من الجسم بسبب الضوء هو الذي يعين لنا ابعاد الجسم ويفصله عما يحيط به ، وعندئذ نستطيع ان نراه .

كذلك هي حال عطاءات الحياة ، فهي لا يمكن ان ترى بغير الظلال الخفيفة والثقيلة ، ولولا المرض في بعض فترات الحياة لما عرفنا لذة السلامة ، اننا على أثر ليلة من الحمى الشديدة المحرقة والصداع القاتل الاليم ، يكون احساسنا بطعم السلامة صباحاً بعد انقطاع الحمى وزوال الصداع من اللذة والحلاوة بحيث اننا كلما تذكرنا تلك الليلة العصيبة ادركنا قيمة درة السلامة الثمينة التي اعطيناها .

إن الحياة نفسها ، حتى المسرفة في الرفاهية والرخاء ، تكون مملة وعديمة الروح وقاتلة ، لو أنها مضت على وتيرة واحدة ، كثيراً ما لوحظ ان بعض الناس يعانون الألم والعذاب بسبب رتابة حياتهم المرفهة الخالية من كل منغص وقلق إلى درجة ان بعضهم يقدم على الانتحار ، أو لا يكف عن الشكوى من حياته .

إنك لن تجد مهندساً معمارياً يبني جدران غرفة للجلوس مثلما يبني جدران السجن رتيبة مسطحة ، بل أنه يضيف على تلك الجدران من الانعطافات والانحناءات المناسبة ليخرجها من الرتابة .

لماذا يتميز عالم الطبيعة بكل هذا الجمال ؟

لماذا تثير فينا الغابات على سفوح الجبال ، والانهار المنسابة بين الاشجار تلتوي في المنحنيات كالأفعى ، هذا الشعور بالبهجة ؟

ان أحد الاجوبة هو : لأنها ليست رتيبة .

ان نظام «النور» و«الظلام» ، وتعاقب الليل والنهار الذي يشير إليه القرآن في عدد من آياته ، من أهم آثاره كسر رتابة الحياة الانسانية ، اذ لو

ظلت الشمس تسطع من مكان واحد في السماء على الكرة الأرضية ، بغير ان تغير موضعاً ولا ان تخلي مكانها لاستار الليل الذهبية ، وبصرف النظر عن المشكلات الأخرى ، لانتاب البشر التعب والملل .

فعلى هـذا الاعتبار لا منـدوحة لنـا من الاعتراف بـان قسمـاً ، في الاقل ، من حوادث الحياة المؤلمة لهـا تأثيـرها في اضفـاء الحيويـة على الحيـاة ، فتجعلها حلوة يمكن تحملهـا ، وتبـرز نعمهـا وقيمهـا ، وتتيـح للإنسان الفرصة لكي يستفيد مما وهبه الله باقصى ما يستطيع .

٦ ـ المشكلات المصطنعة :

النقطة الأخرى التي نرى ضرورة الإشارة إليها في ختام هذا البحث هو ان كثيراً من الناس يخطئـون في معرفـة علل هذه الحـوادث المنغصة والصعاب ، فيضعون الظلم الذي يرتكبه الظالمون على حساب عدم عدالة الخليقة .

يقولون مثلاً : لماذا تكثر الاحجار في طريق الأعرج ؟ لمـاذا تكون ضحايا الزلازل في المدن أقل ما هي في القرى والارياف ؟ فـأي عدالـة هذه ؟ إذا كان لا بد من توزيـع كارثـة ما على النـاس ، فلماذا لا تتـوزع بالتساوي ؟ لماذا يتوجه نصل الحـوادث الحاد إلى المستضعفين دائمـاً ؟ لماذا تنتشر الأمراض الوبائية بين هؤلاء أكثر من انتشارها بين غيرهـم ؟

هؤلاء لا يدركون ان هذه الأمور لا علاقة لها بعالم الخليقة وبعدالة الله ، بل هي من نتائج ظلم الانسان لاخيه الانسان واستعماره واستغلاله .

لو لم يكن القرويون من ضحايـا ظلم المدنيين ويعيشـون في الفقر

والحرمان بسبب ذلك ، بل كانوا قادرين على تشييد دورهم بالمتانـة التي يشيد بها المدنيون دورهم في المدينة ، لما وقعت اكثرية ضحايا الزلازل في القرية .

ولكن عنـدما لا يكـون بمقـدورهم ان يبنـوا دورهم إلّا بـالـطين أو بالحجر والاخشاب ، دون ان تصل أيـديهم إلى السمنت والحديـد ، بل يضعون كتل الطين أو الحجر في صفوف بعضاً فوق بعض ، فلا شك أنها ستكون عرضة للإنهيار عند هبوب أية ريح أو أية زلزلة خفيفـة ، وفي هذه الحالة لا يمكن ان نتوقع مصيراً افضل لهم ، ولكن ما علاقة هذا بعـدالة الله ؟

إننا لا يجوز لنا ان نعترض قائلين : ان الله قد اعـطى بعض الناس مائة نعمة ونعمة ، واجلس آخرين على تراب الذلة ، فذاك يسكن في قصر منيف ، وهذا في كوخ ضعيف!

هذه الانتقادات ينبغي ان توجه إلى الـوضع الاجتمـاعي الذي فقـد توازنه واختل نظامه وسار في اتجاه غلط ، يجب النهوض لوضع حد للظلم الاجتماعي وفقدان العدالة في المجتمع ، وللقضاء على الفقر والحرمان ، ولإعادة حقوق المستضعفين لاصحابها ، لكي لا تحدث هذه الظواهر .

لـو ان جميع طبقـات الشعب نالـوا الغذاء الكـافي والعلاج الـطبي اللازم ، لاستطاعوا جميعاً ضمان صحتهم ومقاومة الأمراض .

ولكن عندما تكـون الحالـة الاجتماعيـة في نظام اجتمـاعي غلطاً ، فيوفر الحكم عليـه لطبقـة من الطبقـات كل الامكـانات بحيث ان كـلابها

وقططها تحظى بالعناية الطبية وبالعلاج والدواء ، بينما لا يتوفر لطبقة أخرى حتى الحد الأدنى البدائي من العناية الصحية للإهتمام بمواليدها الجدد ، فان نسبة الوفيات بين أفرادها ستكون حتماً مرتفعة ويرى الانسان الكثير من تلك المشاهد المؤلمة .

ففي امثال هذه الحـالات ، بدلاً من تـوجيه النقـد إلى افعال الله ، علينا ان نوجهه إلى افعالنا :

علينا ان نقول للظالم : لا تظلم :

وعلينا ان نقول للمظلوم : لا تخضع للظلم!

وعلينا ان نسعى لكي ينال جميع افراد مجتمع ما الحد الادنى ، في الاقل ، من العناية الصحية والعلاجية والغـذائية ، ومن السكنى والثقـافة والتعليم والتربية .

لذلك ليس لنا ان نلقي بتبعة ذنوبنا وآثامنا على عاتق نظام الخليقة ، متى فرض الله تعالى علينا حياة كهذه ؟ اين أمرنا بمثل هذا النظام ؟

صحيح ان الله قد خلقنا احراراً ، لان الحرية هي أسـاس التكامـل والتقدم ، ولكننا نحن الذين نسيء استغلال هذه الحريـة ونستسيغ انـزال الظلم بالآخرين ، فتظهر نتائج هذا الظلم بصورة اضطرابات اجتماعية .

ولكن الذي يؤسف له ان يأخذ هذا خطأ بخناق جماعات كثيرة من الناس ، حتى شوهدت آثار ذلك في شعر بعض الشعراء المعروفين .

يقول الله في كتابه المجيد : ﴿ **ان الله لا يـظلم الناس شيئـاً ولكن**

الناس انفسهم يظلمون ﴾[1] .

وهكذا نصل إلى نهاية بحثنا في فلسفة الآفات والكوارث ، على الرغم من الكثير الذي يمكن ان يقال في هذا الموضوع إلا ان الذي قلناه يكفي لهذا البحث المكثف القصير .

* * *

فكر وأجب

١ ـ لماذا اجرينا البحث في فلسفة الآفات ، والكوارث على امتداد ثلاثة دروس ؟

٢ ـ ما الاثر السيىء الذي تتركه الحياة الرتيبة ؟ هل سبق لك ان رأيت شخصاً يتألم من حياته المرفهة ؟

٣ ـ ماذا تعرف عن فلسفة النور والظلام في عالم الخلق ؟

٤ ـ هل سبب مصائب المجتمع هو نظام الخليقة ، أم ان لنا يداً في بعضها أيضاً ؟

٥ ـ هل هناك وسيلة صحيحة للقضاء على المشكلات الإجتماعية ؟ ما هو واجبنا نحو المستضعفين ؟

الدرس السادس

الجبر والتفويض

من المسائل التي لها علاقة بالعدل الإلهي هي مسألة الجبر والتفويض (أو الجبر والاختيار) .

يرى الجبريون أن الانسان في أعماله وأقواله وسلوكه ليس مختاراً وأن حركات أعضائه أشبه بالحركات الجبرية في أقسام جهاز من الأجهزة الآلية .

هذه الفكرة تثير في الذهن هذا السؤال : ترى كيف تنسجم هذه الفكرة مع الاعتقاد بالعدل الإلهي ؟ ولعل هذه هي الفكرة التي حدت بالأشاعرة ، ـ الذين سبق أن قلنا إنهم ينكرون الحسن والقبح العقليين ـ إلى القبول بفكرة الجبريين عن انكار عدالة الله ، إذ ان مع القبول بفكرة الجبريين لا يعود هناك للعدالة الإلهية أي مفهوم .

ولتوضيح هذا الأمر لا بد من التطرق بدقة إلى عدة من المواضيع :

١ ـ مصدر الاعتقاد بالجبرية :

كل شخص يدرك في قرارة نفسه أنه حر في اتخاذ ما يشاء من قرارات ، فمثلاً يقرر أن يقدم عوناً مادياً لصديقه الفلاني ، أو لا يقدم له شيئاً ، أو أنه عندما يكون عطشان ويرى الماء أمامه ، له الحرية في أن يشرب أو لا يشرب ، أو أن فلاناً قد أساء إليه ، فله أن يغفر له أو لا يغفر ، إن كل شخص يميز بين اليد التي ترتعش بسبب الشيخوخة واليد التي تتحرك وفق إرادة صاحبها .

إذن ، فإذا كانت مسألة حرية الإرادة شعور عام في الإنسان ، لماذا يتوجه نفر من الناس إلى المدرسة الجبرية ؟

بديهي ان لذلك أسباباً متعددة ، نورد لكم هنا واحداً منها : يلاحظ الانسان ان للمحيط تأثيراً في الافراد ، وكذلك التربية ، والتلقين ، والاعلام ، والثقافة الاجتماعية ، كل هذه تؤثر في فكر الانسان وروحه ، كما أن الحالة الاقتصادية تكون احياناً باعثاً على سلوك معين في الانسان ، ولا يمكن أيضاً إغفال العامل الوراثي .

هذه الظروف بمجموعها تجعل الانسان يظن أن لا خيار له فيما يفعل ، وإنّما هي العوامل الذاتية من الداخل ومن الخارج تضع يداً بيد وتحملنا على القيام ببعض الأعمال التي ربما لم نكن لنقدم عليها لولا تلك العوامل .

هذه أمور يمكن ان توصف بأنها مما يفرضها المحيط أو الظروف

الاقتصادية أو التعليم والتربية أو الوراثة ، وهي من العـوامل المهمـة التي تدفع بالفلاسفة نحو الجبرية .

٢ ـ النقطة الرئيسية في خطأ الجبريين :

إن النقطة الرئيسة التي يغفل عنها هؤلاء هي أن القضية ليست قضية «الدوافع» و«العلل الناقصة» ، بل هي قضية «العلة التامة» وبعبارة أخرى ، ما من أحد ينكر تأثير «المحيط» و«الثقافة» و«العامل الاقتصادي» في تفكير الانسان وأفعاله ، ولكن القضية هي اننا مع كل تلك العوامل نظل قادرين على اتخاذ القرار بغير إجبار ، بل بمحض اختيارنا .

إننا ندرك بكل جلاء أننا حتى في محيط طاغوتي غلط ، مثل النظام الطاغوتي الشاهنشاهي (في إيران) سابقاً ، حيث توفرت كل وسائل الانحرافات ، لم نكن مجبرين على الانحراف ، وفي ذلك المحيط وتلك الثقافة كنا نستطيع أن لا نرتشي ، وأن لا نرتاد مواخير الفساد ، وأن لانحيا حياة متحللة .

لذلك علينا أن نفصل بين «الظروف» و«العلة التامة» ولهذا كثيراً ما نرى اشخاصاً ترعرعوا في محيط عائلي مرفه ، أو في محيط اجتماعي منحط ، أو انهم ورثوا موروثات سيئة ، ومع ذلك فانهم فصلوا طريقهم عن طريق الآخرين ، بل ثار بعضهم حتى ضد المحيط الذي عاشوا فيه ، فلو كان الانسان ابن محيطه وثقافة زمانه وإعلام عصره ، لكان على الجميع ان يخضعوا لذلك المحيط ، ولما كانت هناك أية ثورة ضد المحيط في محاولة لتغييره .

يتضح من كل هذا ان العوامل المذكورة ليست عوامل مصيرية حاسمة ، بل هي عوامل ممهدة ، فالمصير الأصل هو الذي يصنعه الانسان بارادته وقراره ، وهذا أشبه ما يكون بحالنا في عزمنا على الصيام في صيف قائظ حارق ، فان كل ذرة في كياننا تطلب الماء بالحاح ، ولكننا ، إطاعة لأمر الله ، نتغاضى عن كل ذلك ونستمر في صيامنا ، ولكن قد يكون هناك من يضعف أمام العطش فلا يصوم .

الخلاصة هي ان وراء جميع العوامل والدوافع عاملاً مصيرياً اسمه حرية الانسان في اتخاذ قراره .

٣ ـ العامل الاجتماعي والسياسي في المذهب الجبري :

الحقيقة هي ان مسألة «الجبر والتفويض» قد أسيء استعمالها إساءة بالغة على امتداد التاريخ ، واستطاعت عوامل ثانوية كثيرة أن تقوي جانب الجبر وانكار حرية إرادة الانسان من تلك العوامل :

أ ـ العامل السياسي :

كثير من الحكام الجبارين المعاندين الذين سعوا لإطفاء مشاعل ثورة المستضعفين لادامة حكمهم غير المشروع ، كانوا يتعهدون فكرة الجبرية ويشيعونها ، قائلين : إننا لا نملك حرية الاختيار ، وإن يد القدر وجبرية التاريخ تمسك بمصائرنا ، فإذا كان بعض اميراً ، وبعض اسيراً ، فذاك حكم القضاء والقدر والتاريخ .

لا يخفى ما لهذا الاتجاه في التفكير من تأثير في تخدير طبقات الشعب وفي تأييد استمرار السياسات الاستعمارية ، بينما الحقيقة هي ان

مصائرنا ، عقلاً وشرعاً ، في أيدينا ، وان القضاء والقدر بمعنى الجبر وسلب الارادة لا وجود له ، فالقضاء والقدر الإلهي قد تعين بحسب حركتنا وإرادتنا وإيماننا وسعينا .

ب ـ العامل النفسي :

هناك اشخاص ضعفاء وكسالى غالباً ما يكون الاخفاق نصيبهم في الحياة ، ولكنهم لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة المرة ، وهي ان كسلهم أو أخطاءهم هي السبب في اخفاقهم ، لذلك ، ولكي يبرئوا أنفسهم ، يتمسكون بأذيال الجبرية ، ويضعون اوزارهم على عاتق مصيرهم الاجباري ، لعلهم بهذا يعثرون على وسيلة تمنحهم شيئاً من الهدوء الكاذب ، فيعتذرون قائلين : ماذا نفعل ؟ لقد حيك بساط حظنا منذ اليوم الأول ، باللون الاسود ، وليس بمقدور مياه زمزم وكوثر ان تحيل سواده بياضاً ، اننا كتلة من الهمة والاستعداد ، ولكن مع الاسف ، ان الحظ لا يحالفنا!

ج ـ العامل الإجتماعي :

يحب بعض الناس ان يكونوا احراراً في التمتع وإشباع اهوائهم وارتكاب ما تشاء لهم رغباتهم الحيوانية ان يرتكبوا من الجرائم والآثام ، وفي الوقت نفسه يقنعون أنفسهم بأنهم ليسوا مذنبين ، ويخدعون المجتمع بأنهم أبرياء ، وهنا يلجأون إلى عقيدة الجبرية ، فيسوغون مباذلهم بقولهم بأنهم في أعمالهم ليسوا مختارين!

ولكننا ، بالطبع ، نعلم ان كل هذا كذب محض ، بل إن الذين

يتذرعون بهذا العذر يؤمنون بأنه واه ولا أساس لـه ، إلاّ أن انغماسهم في اللذائذ الزائلة لا تسمح لهم باعلان هذه الحقيقة .

لذلك لا بد لنا في سعينا لبناء المجتمع بناءً سليمـاً أن نكافـح هذه المعتقـدات الجبريـة والمقولات عن المصـائـر الإجبـاريـة التي يستغلهـا المستعمرون ، وتتخذ وسيلة لتسويغ الاخفاق الكاذب ولإفشاء الفساد في المجتمع

***

فكـر وأجب

١ ـ ما الفرق بين «الجبر» و«التفويض» ؟

٢ ـ ما هي أهم ادعاءات الجبريين ؟

٣ ـ ما رأيك في تأثير المحيط والثقافة والوراثة ؟

٤ ـ ما هي العوامل «السياسية» و«النفسية» و«الاجتمـاعية» التي تؤيد عقيدة الجبريين ؟

٥ ـ ما هو واجبنا تجاه هذه العوامل ؟ .

الدرس السابع



أجلى دليل على حرية الإرادة والاختيار

١ ـ الوجدان العام في البشر يدحض الجبرية :

على الـرغم من ان الفلاسفـة والعلماء الإلهيين اكثـروا البحث في مسألة حرية إرادة الإنســان ، ولهم على ذلك أدلـة مختلفة ، ولكننـا لكي نختصـر الطريق ، نتنـاول أوضح الأدلـة على حـريـة إرادة الانسـان وهـو الوجدان الإنساني العام :

إذا استطعنا ان ننكر كل شيء فليس بامكاننا ان ننكر هذه الحقيقة ، وهي ان جميـع المجتمعات البشـرية ، سـواء أكانت تعبـد الله أم كـانت مادية ، شرقية أم غربية ، قديمة أم حـديثة ، غنيـة أم فقيرة ، متقـدمةٍ ام متخلفة ، ومهما تكن ثقافتها ، فانها جميعـاً وبدون استثنـاء تؤيد ضـرورة وجـود «قانـون» يسود المجتمعـات البشريـة أي إن الفـرد (مسؤول) أمـام القانون وإن الذي يخالف القانون يجب أن «يعاقب» بشكل ما .

أي إن سلطة القانون ومسؤولية الافراد ، ومعاقبة المتخلف أمور يتفق بشأنها جميع عقلاء العالم ، اللهم إلّا الاقوام المتوحشة التي لم تعترف بهذه المسائل الثلاث .

ان هذه المسألة التي نطلق عليها اسم (الرأي العام العالمي) تعتبر أوضح دليل على حرية إرادة الإنسان وتمتعه بحرية الاختيار .

كيف يمكن أن نصدق أن انساناً يكون مجبراً في إرادته وعمله ولا يملك حرية في الاختيار ، ثم نعتبره مسؤولاً أمام القانون ، فاذا نقض القانون اتينا به إلى قاعة المحكمة واستنطقناه ، لماذا فعل هذا ، ولماذا لم يفعل ذاك ؟ وبعد ان تثبت خروجه على القانون نحكم بسجنه أو باعدامه .

هذا أشبه بجلبنا الصخور ، التي تتهاوى من الجبال فتقتل الناس في الطرقات ، إلى المحكمة لمحاكمتها!

صحيح ان الانسان يختلف كثيراً في الظاهر عن صخرة من الصخور ، ولكننا إذا انكرنا حرية إرادة الانسان ، فلن يكون لهذا الاختلاف الظاهري أي أثر ، فكلاهما يكونان تحت تأثير عوامل قهرية مجبرة ، فالصخرة المحكومة بقانون الجاذبية تسقط على الناس في الطريق ، والانسان المجرم أو القاتل يكون تحت تأثير عوامل قهرية مجبرة أخرى فبناءً على عقائد الجبريين ، ليس هناك أي فرق بين هذين من حيث النتيجة ، فكلاهما لم يقم بما قام به باختياره ، فلماذا يحكم أحدهما دون الآخر ؟

إننا على مفترق طريقين : أمّا أن نقول بخطأ الرأي العام في

العالم ، ونعتبر كل القوانين والمحاكم ومعاقبة المجرمين عبثاً في عبث ، بل ظلما فادحاً ، وإمّا أن ننكر ما يذهب إليه الجبريون واتباعهم .

لا شك ان الرأي الأخير هو الأرجح !

وإنه لمن الغرابة بمكان أن نجد الذين ينحون في عقائدهم وأفكارهم الفلسفية منحى الجبريين ويوردون الأدلة عليها ، ينحازون إلى جانب حرية الإرادة عند دخولهم في معترك الحياة! فهم إذا اعتدى أحد على حقوقهم أو ألحق بهم ضرراً وأذى ، يرون أنه جدير بالتوبيخ والعتاب ، وقد يشكونه إلى المحاكم ، بل ربما ثاروا وهاجوا ولم يهدأوا حتى ينال غريمهم العقاب القانوني!

حسن ، فإذا كان الانسان حقاً غير مختار فيما يفعل ، وان ما يفعله ليس بإرادته ، فلم كل هذا التوبيخ والعتاب والشكوى والهياج ؟

على كل حال ، إن هذا الرأي العام لعقلاء العالم دليل حي على حقيقة كون الانسان يؤمن في اعماقه بحرية الإرادة ، وكان دائماً كذلك ، بل إنه لا يستطيع أن يحيا يوماً واحداً بخلاف ذلك ، وبغير أن يدير عجلة حياته على محور هذا الإيمان .

يقول الفيلسوف الاسلامي العظيم (الخواجة نصير الدين الطوسي) في بحث الجبر والتفويض ، في عبارة قصيرة : « ... والضرورة قاضية باسناد أفعالنا إلينا»[1] .

---

(١) كتاب «تجربة العقائد» في حديث الجبر والاختيار .

٢ ـ تضاد منطق «الجبرية» ومنطق «الدين» .

ان الكلام المذكور آنفاً كان على تضاد الجبرية مع الرأي العام عند عقلاء العالم ، سواء الذين يدينون بدين والذين لا دين لهم اطلاقاً .

إلّا أن هناك دليلاً آخر حديث عن وجهة النظر الدينية تبطل مذهب الجبرية ، وهو ان الاعتقادات الدينية لا يمكن ان تنسجم مع المذهب الجبري ، اذ ان القبول به يصيب العقائد الدينية بالعطب والشلل .

كيف يمكن القول بعدالة الله ـ وهي التي اثبتناها بجلاء في الدروس السابقة ـ ثم نقول أنها لا تناقض العقيدة الجبرية ؟ كيف يمكن القول بان الله يجبر انساناً على القيام بعمل ، ثم يعاقبه على ما فعل ؟ ليس هذا من المنطق في شيء!

وبناءً على ذلك ، اذا قبلنا بالمدرسة الجبرية ، لا يكون هناك معنى للقول بوجود «ثواب» و«عقاب» و«جنة» و«نار» ، كما لا يكون هناك مكان لمفاهيم مثل «صحيفة الاعمال» و«السؤال» و«الحساب الإلهي» و«ما جاء في القرآن من ذم المسيئين والثناء على المحسنين» ، وذلك لأن رأي الجبريين يقول : لا المحسن كان مختاراً عندما أحسن ، ولا المسيء كان مختاراً عندما أساء .

ثم إننا إذا تغاضينا عن كل ذلك ، فاننا عند أول اتصال لنا بالدين نواجه «التكليف والمسؤولية» ولكن أيمكن أن نكلف شخصاً بأي تكليف ونحمله مسؤولية ذلك اذا لم يكن له الخيار فيما يفعل ؟

أيجوز أن نأمر شخصاً في أصابعه ارتعاش لا إرادي بان لا يفعل

ذلك ؟ أم هل يجوز أن نطلب من شخص يتدحرج على سفح جبل شديد الانحدار أن يتوقف ولا ينحدر ؟

ولهذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام يصف ما يقوله الجبريون : « . . تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان»[٢] .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما هو أوضح دليل على بطلان الجبر ؟

٢ ـ اشرح الرأي العام العالمي حول مبدأ حرية الإرادة .

٣ ـ هل مؤيدو الجبرية يلتزمون الجبرية في التطبيق العملي ؟

٤ ـ هل ينسجم الاعتقاد بالجبر مع مبدأ العدالة الإلهية ؟ لماذا ؟

٥ ـ كيف تكون حرية الإرادة هي أساس القبول بالتكاليف والمسؤوليات ؟

---

(٢) أصول الكافي (ج١ ، ص١١٩) باب «الجبر والاختيار» .

الدرس الثامن

ما معنى «الامر بين الامرين» المدرسة الوسط

١ ـ «التفويض» في قبال «الجبر»

بإزاء الاعتقاد بالجبر ، الذي يقع في جانب «الافراط» هنالك اعتقاد آخر باسم «التفويض» ، ويقع في جانب «التفريط» .

يرى الذين يعتقدون بالتفويض ان الله قد خلقنا وترك كل شيء بيدنا ولا يعود أي دخل له في أعمالنا وأفعالنا ، وبناءً على ذلك يكون لنا الحرية كاملة والاستقلال التام فيما نفعل بلا منازع !

لا شك في ان هذا لا يتفق ومبدأ التوحيد ، إذ ان التوحيد قد علمنا أن كل شيء ملك لله ، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ، بما في ذلك أعمالنا التي نقوم بها مختارين وبملء حرية إرادتنا ، وإلاّ فذلك شرك .

وبعبارة أوضح : ليس بالإمكان القول بوجود إلهين ، أحدهما هو الإله الكبير ، خالق الكون ، والآخر الإله الصغير ، أي الإنسان الذي

يعمل مستقلاً وبكل حرية بحيث ان الله الكبير لا يستطيع أن يتدخل في أعماله! هذا ، بالطبع ، شرك وثنائية في العبادة ، أو إنه تعدد في المعبود ، فعلينا إذن أن نعتبر الانسان صاحب اختيار فيما يفعل ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن الله حاكم عليه وعلى أعماله .

٢ ـ المدرسة الوسط :

انِ النقطة المهمة والدقيقة هنا هي أن لا يختلط علينا الأمر فنحسب هذين الأمرين متناقضين ، الدقة في الأمر هي إننا نؤمن بـ(عدالة) الله إيماناً تاماً ، وأن نؤمن في الوقت نفسه بحرية عباد الله ومسؤوليتهم ، وبـ(التوحيد) وشمول حكمه عالم الوجود كله وهذا هو ما يعبر عنه أنه (الأمر بين الأمرين) ، أي الأمر الوسط بين معتقدين متطرفين غير صحيحين .

ولما كان هذا الموضوع على شيء من التعقيد ، فسنورد مثالاً توضيحياً :

افرض أنك تقود قطاراً كهربائياً في سفرة ، فلا بد أن يكون هنالك سلك كهربائي قوي يمتد فوق القطار ، تنزلق عليه الحلقة المتصلة بالقطار ، فيتحرك هذا بانتقال طاقة كهربائية قوية من محطة لتوليد الكهرباء إلى ماكنة القطار باستمرار ، بحيث لو انقطع التيار لحظة واحدة لتوقف القطار فوراً .

بديهي أنك قادر أن تتوقف أثناء الطريق حيثما تشاء ، ولك ان تزيد من سرعة القطار أو أن تخفف منها ، ولكنك على الرغم من حريتك هذه ، فان الشخص القائم على إدارة محطة توليد الكهرباء قادر في أية لحظة أن

يوقف حركتك ، وذلك لان قدرتك كلها تعتمد على تلك الطاقة الكهربائية التي يتحكم فيها شخص غيرك .

إذا دققنا النظر في هذا المثال نجد أنه على الرغم من حريـة سائق القطار في الحركة والسكون ، إلاّ أنه يقع في قبضة شخص آخر وأن هذين الأمرين لا يتعارضان .

مثال آخر :

افـرض إن شخصاً أصيبت أعصـاب يده بـالشلل على أثـر حـادث مؤسف ، فلا يستطيع تحريكها ، ولكننا إذا أوصلناها بطاقة كهربائية خفيفة أمكن إيصال الحرارة إليها بحيث تتمكن من التحرك .

فإذا ارتكب هذا الشخص بتلك اليد جريمة ، فقتل شخصاً أو صفع أحـداً ، فان مسؤوليـة ذلك لا شـك تكون عليـه ، لأنه كـانت له القـدرة والإرادة ، وان الشخص اذا ملك (القـدرة والارادة) يكـون مسـؤولاً عن أعماله .

ولكن في هذا المثال فان الشخص الذي يوصل القوة الكهربائية إلى يد الجاني فيولّد فيها القدرة يكون هو المسيطر الحاكم عليـه ، في الوقت الذي يكون فيه هذا مالكاً لحرية إرادته واختياره .

فلنعد الآن إلى موضوعنا :

لقد وهبنا الله القدرة والقوة ، ومنحنا العقل والذكاء ، وهي طاقات لا ينقطع وصولها إلينا من الله ، ولو توقف فيض لطف الله عنا لحـظة واحدة وانفصمت رابطتنا به لقضي علينا قضاءً تاماً .

إننا إذا كنا قادرين على إنجاز عمل ، فقدرتنا هي التي وهبها الله لنا وما زالت تصل إلينا باستمرار غير منقطع ، بل إن حرية إرادتنا أيضاً من عنده ، أي أنه هو الذي أرادنا ان نكون احراراً في إرادتنا ، لكي نواصل مسيرتنا نحو التكامل بهذه الهبات الإلهية .

بناءً على ذلك ، فاننا في الوقت الذي نملك فيه حرية إرادتنا واختيارنا ، نظل تحت سيطرة القدرة الإلهية ولا يمكن أن نخرج من نطاق حكمه ، إننا في لحظة القدرة والقوة نكون مرتبطين به تعالى ، ولا يمكن أن نكون شيئاً بدونه ، هذا هو معنى (الأمر بين الأمرين) ، إذ اننا بهذا لا نكون قد وضعنا احداً على قدم المساواة مع الله ليكون شريكاً له ، ولا نكون قد اعتبرنا عباد الله مجبرين في أعمالهم لنقول إنهم مظلومون ، فتأمل!

لقد تعلمنا هذا الدرس من مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، فعندما كان الناس يسألونهم عما إذا كان هناك سبيل بين (الجبر والتفويض) كانوا يقولون : نعم ، أرحب مما بين السماء والارض[1] .

٣ ـ القرآن ومسألة الجبر والتفويض :

يؤكد القرآن المجيد في هذه المسألة على حرية إرادة الانسان بجلاء ووضوح في المئات من الآيات التي تصرح بحرية إرادة الانسان .

أ ـ جميع الآيات التي تتناول الأوامر والنواهي والفرائض تدل على

---

(١) أصول الكافي (ج١ ، ص١٢١) باب «الجبر والقدر والأمر بين الأمرين» .

حرية إرادة الانسان في اختيار سبيله ، اذ لو كان الانسان مجبراً في اعماله لما كان ثمة معنى في الأمر والنهي .

ب ـ جميع الآيات التي تذم المسيئين وتمدح الصالحين دليل على حرية الإرادة ، وإلّا فلا معنى في الذم والمدح اذا كان الانسان مجبراً .

ج ـ جميع الآيات التي تتحدث عن الحساب يوم القيامة ومحاكمة الناس في تلك المحكمة ، ثم الحكم بالعقاب أو بالثواب ، أي النار والجنة ، إن هي إلّا دليل على حرية الانسان في ما يعمل ، لأنه بالفرض والاجبار لا يكون هناك معنى للمحاسبة والمحاكمة ، ويكون إنزال العقاب بالمسيئين ظلماً محضاً .

د ـ جميع الآيات التي تدور حول : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[٢] ، و﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾[٣] .

تدل دلالة واضحة على حرية إرادة الانسان .

هـ ـ ثمة آيات مثل : ﴿ **إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً** ﴾[٤] .

واضحة الدلالة على هذا الأمر .

إلّا ان هناك آيات في القرآن المجيد تعتبر دليلًا على «الأمر بين الأمرين» ، غير ان بعض الجهلاء يخطئون فهمها فيرونها دليلًا على

---

(٢) سورة المدثر ، الآية(٣٨) .

(٣) سورة الطور ، الآية(٢١) .

(٤) سورة الدهر ، الآية(٣) .

(الجبر) ، منها : ﴿ **وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله** ﴾[5] .

من الواضح ان هذه الآية وأمثالها لاتعني تجريد الانسان من حرية الاختيار ، بل تريد أن تؤكد للإنسان إنه في الوقت الذي يكون فيه تام الحرية والاختيار ، لا يخرج عن أمر الله ، كما مر بنا توضيحه .

* * *

فكر وأجب

١ ـ ما معنى «التفويض» ؟ وما النقيصة الكامنة فيه ؟

٢ ـ اشرح بعبارات جلية مبدأ «الأمر بين الأمرين» الذي تعلمناه من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، أيّد شرحك بمثال واضح .

٣ ـ ماذا تقول الآيات التي تتحدث عن مسألة الجبر والتفويض .

٤ ـ إذا نحن قبلنا بعقيدة الجبر ، فما يكون من أمر يوم القيامة والجنة والنار والحساب ؟

٥ ـ هل الآيات التي تشبه : ﴿ **وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله** ﴾ دليل على الجبر ؟

---

(٥) سورة الدهر ، الآية(٣٠) .

الدرس التاسع

الهداية والضلال بيد الله

١ ـ انواع الهداية والضلال :

هذا مسافر غريب بيده عنوان ، فيلتقيك ويسألك أن تدله ، إن أمامك طريقين لدلالته وإرشاده إلى ما يريده :

الأول هو ان تصحبه بنفسك حتى توصله إلى مقصده ، ثم تودعه وتذهب ، وهذا هو الكمال في عمل الخير .

والثاني هو أن تشير بيدك إلى حيث ينبغي أن يتوجه وتريه مختلف العلائم والمعالم في طريقه إلى حيث يريد .

في كلتا الحالتين تكون أنت قد «هديته» إلى هدفه ، ولكن مع اختلاف الحالتين ، فالحالة الثانية هي «إراءة الطريق» والاولى هي «إيصال إلى الهدف» ، والهداية قد وردت في القرآن الكريم وفي أخبارنا الاسلامية بكلا المعنيين .

واحياناً يكون للهداية جانبها (التشريعي) فقط ، أي إنها تتحقق عن طريق التشريعات والقوانين ، وقد يكون لها جانبها «التكويني» وهو «هداية» النطفة في طريق الخلق باتجاه تكوين الانسان الكامل الخلق ، وقد ورد هذان المعنيان في القرآن والاخبار أيضاً ، بمعرفتنا أنواع الهداية (ويقابلها الضلال) نعود إلى الموضوع :

نقرأ في كثير من الآيات أن الهداية والضلال من عمل الله لا شك ان «اراءة الطريق» تكون من قبل الله عن طريق إرساله الأنبياء والرسل ، وانزاله الكتب السماوية لكي يدل الانسان على الطريق .

غير ان «الايصال إلى الهدف» قسراً لا يأتلف ومبدأ حرية الاختيار ، ولكن بما أن الله يضع تحت تصرفنا جميع الوسائل اللازمة للوصول إلى الهدف ، وأنه هو الذي يشملنا بالتوفيق في سيرنا في هذا الطريق : فان هذه الهداية تكون أيضاً ، بهذا المعنى ، من قِبَل الله ، أي عن طريق تهيئة الوسائل واعداد المقدمات ووضعها في متناول الانسان .

٢ ـ سؤال مهم :

هنا يظهر هذا السؤال المهم ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾[١] .

بعض الناس يغفلون عن معاني آيات القرآن وما جاء في تفسيرها وعلاقة بعضها ببعض ، فيبادرون حالما يقرأون هذه الآية إلى الاعتراض ،

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية(٤) .

قـائلين : مادام الله هـو الذي يهـدي من يشاء ويضـل من يشاء فمـا ذنبنا نحن ؟

القضية المهمة هي اننا يجب دائماً ان نـأخذ بنـظر الاعتبار عـلائق الآيات فيما بينها حتى نتعرف على مفاهيمها الحقيقية ، هنا نورد لك نماذج أخرى من الآيات الخاصة بالهداية والضلال لكي نضعها إلى جانب الآيـة المذكورة ، ثم نستنتج منها النتيجة المطلوبة .

وفي الآية ٢٧ من سورة إبراهيم نقرأ : ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ ، وفي الآية ٣٤ من سورة غـافر نقـرأ : ﴿ **كذلـك يضل الله من هـو مسرف مرتاب** ﴾ ، وفي الآية ٦٩ من سورة العنكبوت نقرأ : ﴿ **والذين جاهـدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ .

وهكذا نلاحظ أن «إشـاءة» الله ليست بغير حسـاب ، فهو لا يـوفق أحداً لهدايته ، ولا هو يسحب هدايته من أحد ، بغير حساب .

فالذين يجاهدون في سبيل الله ، ويتقدمون ليصارعوا المشكلات ، ويجـالـدون أهـواءهم النفسيـة ، ويقفـون بصـلابـة في وجـه الاعـداء الخارجيين ، فهو قد وعدهم بهدايته ، وهذا هو العدل بعينه .

أمـا الذين يقيمـون صـرح (الـظلم والجـور) ويسيـرون في طـريق «الاسراف والشك» وإيجاد الريبة والتردد» فان الله يحرمهم من التوفيق إلى الهداية ، وتصبح قلوبهم مظلمة سوداء بسبب أعمالهم تلك ، فلا يكـون من نصيبهم الوصول إلى منزل السعادة ، وهذا هو معنى إن الله يضل من يشاء ، وذلك بـوضعنا أمـام نتائـج أعمالنـا ، وهو العـدالة بعينهـا أيضاً ، فتأمل!

٣ ـ العلم الازلي سبب العصيان :

آخر نقطة اود بحثها في موضوع «الجبر والتفويض» هي الذريعة التي يتذرع بها بعض الجبريين ، وهي علم الله الازلي .

يقولون : هل يعلم الله ان فلاناً يقوم في الساعة الفلانية بجريمة قتل ، أو يشرب الخمر ؟ إذا قلت : لا يعلم فقد أنكرت علم الله ، وإذا قلت : يعلم ، فلا بد لهذا الشخص ان يفعل ما فعل ، وإلّا ظهر علم الله مغايراً للواقع .

ولذلك فلكي يمكن تحقق علم الله ، فان العصاة مجبرون على ارتكاب خطاياهم ، كما أن الصالحين مجبرون على القيام باعمالهم الصالحة!

إن الذين اتخذوا هذه الذريعة ليخفوا وراءها جرائمهم وآثامهم قد فاتتهم في الواقع حقيقة واحدة ، وهي اننا نقول ان الله عالم منذ الازل باننا سنقوم بارادتنا وبملء اختيارنا بالاعمال الصالحة أو الطالحة ، أي إن اختيارنا وإرادتنا معلومان عند الله ، وهذا يعني ان إجبارنا يعني ان علم الله جهل ، فتأمل!

اسمحوا لي ان اجسد هذا الموضوع ببعض الاسئلة : لنفرض أن معلماً يعرف ان الطالب الفلاني الكسلان سوف يسقط في آخر السنة ، وأنه واثق من ذلك كل الثقة استناداً إلى ما لديه من خبرة وتجارب طويلة .

فهل يحق لهذا الطالب ، إذا سقط في النهاية ، ان يأخذ بخناق هذا المعلم بحجة ان تنبؤه ومعرفته أجبرته على السقوط ؟

وإذا ارتفعنا في أمثلتنا ، نقول : لنفرض ان هناك شخصاً معصوماً من الخطأ ، وان هذا الشخص قد علم بان حدثاً جنائياً سوف يقع في اليوم الفلاني ، فيرى من المصلحة أن يتدخل في الأمر ، فهل علم هذا الشخص المعصوم يرفع المسؤولية عن المجرم ويعتبره مجبراً على ارتكاب ما ارتكب ؟

مرة أخرى أفرض أنهم اخترعوا جهازاً يتنبأ بحدوث الحوادث قبل وقوعها بساعات ، فتخبر ، بأن فلاناً سوف يقوم بملء اختياره بالعمل الفلاني في الساعة الفلانية ، فهل هذه المعلومات تكون سبباً في اعتبار الشخص مجبراً على أن يفعل ما يفعل ؟

الخلاصة هي ان علم الله لا يجبر أحداً على القيام بعمل ابداً .

فكر وأجب

١ ـ ما أنواع الهداية ؟ إشرحها ؟

٢ ـ أذكر بعض الآيات التي تنسب الهداية والضلال إلى الله ؟

٣ ـ كيف تفسر الهداية والضلالة الإلهيتين ؟

٤ ـ ما معنى علم الله الأزلي ؟

٥ ـ هل يجردنا العلم الأزلي من حرية إرادتنا ويرفع عنا المسؤولية ؟ إضرب لذلك مثلاً .



الدرس العاشر

العدل الالهي ومسألة الخلود

نقرأ في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن ان عقاب بعض الكفار والآثمين هو (الخلود) في العذاب والنار .

الآية ٦٨ من سورة التوبة تقول : ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها** ﴾ .

وفيما يلي من تلك الآية نفسها يعد الله الرجال والنساء بما يلي : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ .

هنا يبرز أمامنا السؤال التالي : كيف يجوز أن يعاقب شخص ارتكب إثماً خلال عمره ، الذي قد لا يتجاوز ثمانين سنة أو مائة فيعاقب على ذلك بالبقاء في العذاب ملايين السنين أو أكثر ؟

هذا التساؤل ليس مهماً ، بالطبع ، بالنسبة للثواب ، اذ ان بحر

رحمة الله واسع ، وكلما ازداد الثواب كان ذلك أدل على رحمته وفضله ، ولكن بالنسبة للاعمال السيئة ، كيف يمكن ان يعاقب المرء على سيئات محدودة بعذاب خالد ؟ كيف يمكن لهذا ان ينسجم مع العدالة الإلهية ؟ ألا يجب ان يكون هناك نوع من التعادل بين الجريمة والعقاب ؟

الجواب :

للوصول إلى جواب شاف ونهائي لهذا السؤال ينبغي أن نلاحظ الأمور التالية :

أ ـ ان العقوبات يوم القيامة لا تشبه كثيراً العقوبات في هذه الدنيا ، كأن يرتكب أحدهم في هذه الدنيا جريمة السرقة مثلاً فيعاقب بالسجن مدة معينة ، بل ان عقوبات يوم القيامة اكثر ما تكون بهيئة آثار اعمال الانسان وخصائصها .

وبعبارة أوضح ، ان العذاب الذي يعاني منه المذنبون في عالم الآخرة هو نتيجة لأعمالهم التي تصيبهم ، يقول القرآن في تعبير صريح :

﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون ﴾[1] .

ولنضرب مثلاً بسيطاً يجسد هذه الحقيقة :

يندفع شخص ما في تعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية ، وكلما نصحوه بترك هذه المواد السامة التي تضر بمعدته وتضعف قلبه وتحطم أعصابه ، لم يجدوا عنده أذناً صاغية ، بل يمضي بضعة أسابيع أو

---

(١) سورة يس ، الآية(٥٤) .

شهور في الاستمتاع الموهوم بهذه المواد القاتلة حتى تظهر عليه آثار قرحة المعدة وانهيار الاعصاب وامراض القلب ، ويبقى بعد ذلك طوال عمره يعاني الآلام من تلك الامراض ، يئن منها ليله ونهاره .

فهل يمكن أن نعترض هنا فنقول إن هذا الشخص الذي لم يذنب سوى لبضعة أسابيع أو اشهر ، كيف يظل يعاني بقية عمره ولسنوات عديدة تلك الآلام ويتحمل كل ذلك العذاب ؟ لا شك ان الجواب سيكون فوراً : تلك هي نتائج أعماله! وحتى لو اعطي عمر نوح أو اكثر وعاش آلاف السنوات ، فانك كلما رأيته يتألم من تلك الأمراض قلت : هذا العذاب هو الذي أنزله بنفسه بمحض إرادته وكامل وعيه .

إذن «أكثر» عقوبات يوم القيامة من هذا القبيل ، وعليه فلا يبقى أي مجال للإعتراض على عدالة الله .

ب ـ من الخطأ أن يظن بعضهم ان مدة العقاب يجب أن تتناسب مع مدة الذنب ، لان العلاقة بين الذنب وعقابه ليست علاقة زمنية ، بل تتعلق بكيفية الذنب ونتائجه .

فقد يقتل شخص رجلاً بريئاً في لحظة واحدة ، فيحكم عليه بالسجن المؤبد حسب قوانين بعض البلدان ، فهنا نلاحظ أن زمن الذنب لم يتجاوز بضع لحظات ، بينما العقاب يمتد عشرات السنين ، ومع ذلك لا يعترض أحد على ذلك بأنه ظلم وذلك لان القضية هنا ليست قضية دقائق وساعات وأشهر وسنوات ، بل هي قضية كيفية الجرم ونتائجه .

ج ـ «الخلود» في النار والعقاب والأبدي إنما يحيق بالذين يغلقون

أمام أنفسهم جميع منافذ النجاة ، ويغرقون عن عمد ووعي في الفساد والكفر والنفاق ، بحيث ان ظلام الإثم يغطي جميع أرجاء وجودهم حتى يصبحوا قطعة من الكفر والعصيان .

وفي هذا يقول القرآن في تعبير رائع : ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٢) .

وهؤلاء هم الذين قطعوا كل صلة لهم بالله ، واغلقوا في وجوههم جميع نوافذ النجاة والسعادة ، أنهم اشبه بالطائر الذي يقوم عمداً بكسر اجنحته واحراقها ، فيمسي مجبراً على المكوث على الأرض دائماً ، محروماً من التحليق في اجواء السماء العالية .

إذا أخذنا النقاط الثلاث المذكورة بنظر الاعتبار اتضح لنا ان قضية الخلود في العذاب الأبدي الذي يكون من نصيب بعض المنافقين والكفار لا تناقض مبدأ العدالة ، لان الخلود في العذاب جاء نتيجة لاعمالهم هم ، على الرغم من ان الانبياء والرسل قد أبلغوهم أن لتلك الاعمال نتائج مرة ومشؤومة .

لا ريب في ان الذين لم تصلهم دعوة الانبياء ، فارتكبوا ما ارتكبوا من باب الجهل ، فان عقابهم لا يكون بتلك الشدة .

ولا بد من القول بأنه يستفاد من الآيات والاخبار الاسلامية ان بحر رحمة الله من السعة والانفتاح بحيث أنها تغسل بامواجها ذنوب الكثيرين

---

(٢) سورة البقرة ، الآية(٨١) .

من الآثمين :

فبعض بالشفاعة . .

وبعض بالعفو والغفران ،

وبعض لما قاموا به من أعمال صالحة صغيرة ، ولكن الله بعظمته يثيبهم عليها ثواباً عظيماً .

وبعض آخر يقضون فترة العقاب ليتطهروا في بوتقة التصفية الإلهية ، ثم يعودون إلى كنف الرحمة الإلهية .

ولا يبقى إلاّ أولئك المعاندون ، اعداء الله ، الذين أصروا على الظلم والفساد والنفاق حتى استغرقهم ظلام كفرهم وضلالهم كلياً .

فكر وأجب

١ ـ كيف يظن بعضهم أن الخلود في النار يتعارض مع العدل الإلهي ؟

٢ ـ هل تشبه عقوبات العالم الآخر العقوبات في هذه الدنيا ؟ فان لم تكن ، فكيف هي ؟

٣ ـ هل تقتضي العدالة أن يكون هناك تناسب بين فترة الإثم وفترة العقاب ؟

٤ ـ من هم الذين يكون عقابهم الخلود في النار ؟

٥ ـ من هم الذين يشملهم العفو الإلهي ؟

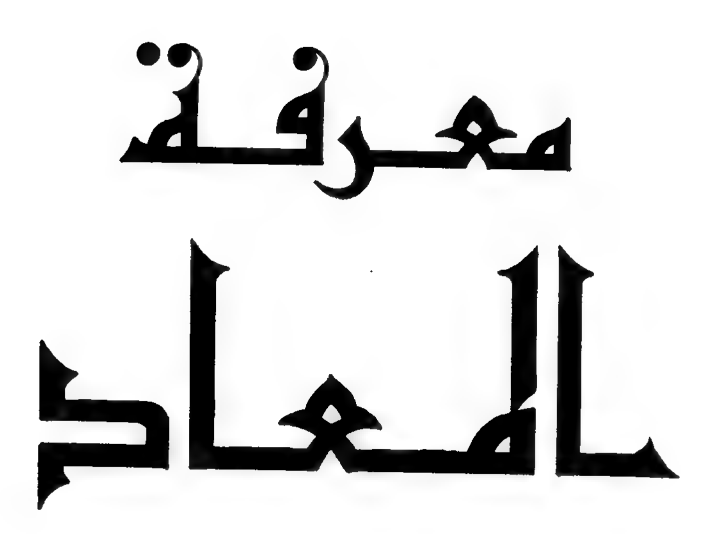
الفهرس

معرفة المعاد



سلسلة أصول الدين

٥



تأليف

ناصر مكارم الشيرازي

ترجمة

جعفر صادق الخليلي

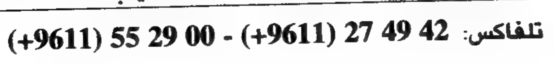


الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



لبنان - بيروت - بئر العبد خلف محطة دياب


تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+)

ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com

المقدمة

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان عموماً يؤمن بما تهواه نفســه وتميل إليـه حسب فطرته من الأصول والعقائد التي يعتنقها ويلتزم بها .

ومما لا شكَّ فيـه أن المسلم خصوصـاً الذي يؤمن بـالإسلام دينـاً بحسب فطرته يؤمن بأصول عقائد الدين الإسلامي .

ولكنه بالرغم من تمسكه وإيمانه بأصول الـدين إلا أنه قـد تواجهـه الكثير من المشاكل إذا ما جوبه ببعض الشكوك والشبهات التي قـد تؤدي الى زعزعة إيمانه وتمسكه بهذه العقائد ، لعدم فهمه واستيعـابه لهـا فهماً عميقاً وبالاستدلال والإثبات المنطقي .

لذا فإن هذا الكتاب من نفحات آية الله ناصر مكارم الشيرازي يمتاز بكونه يمنح الإنسان المسلم تلك القوة التي ترسخ بذاتـه إيمانـه وتمسكه بأصول الدين وعقائد الإسلام . ويمتاز الكتاب أيضاً ببساطته وسلاسته التي

تجعل منه كتاباً في متناول عامة الناس وخاصتهم .

نسأل المولى العليّ القدير التوفيق والسداد لما فيه الخير والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر

الدرس الأول

سؤال مهم: هل الموت نهاية أم بداية؟

معظم الناس يخافون الموت ، فلماذا؟

لقد كان الموت يتراءى دائماً للإنسان في صورة هيولى مرعبة مخوفة تحيل طعم الحياة العذب إلى مثل العلقم في فمه كلما خطر له الموت .

انه لا يخاف اسم الموت فحسب ، بل يرتعب حتى من ذكر اسم المقابر ، فيسعى إلى تزيينها واضفاء البهرجة عليها لعله ينسى ماهيتها الحقيقية .

بالرجوع إلى آداب مختلف شعوب العالم نجد آثار هذا الخوف من الموت بادية للعيان ، فيوصف بهيولي الهلاك ، أو بمخلب الموت ، أو بضربة الأجل ، وبأمثال ذلك .

وإذا أرادوا ذكر اسم ميت ، سعوا إلى تخفيف الموقف على السامع بتعبيرات مثل « أبعدنا الله عن ذلك » أو « أطال الله عمرك » وغير ذلك .

فلا بد أن نعرف إذن ما الذي يدعو الناس إلى أن يخافوا خوفاً دائماً من الموت .

ثم لماذا نجد ، بخلاف ذلك ، أناساً فضلاً عن كونهم لا يخافون الموت ، فانهم يستقبلونه بالابتسامة ويفخرون بمقدمه؟

يحدثنا التاريخ عن أناس كانوا يبحثون عن ماء الحياة واكسير الشباب ، وعن أناس آخرين كانوا يهرعون إلى جبهات الجهاد بشغف ، يواجهون الموت بترحاب باسم ، وقد يتشكون من طول أعمارهم ، لأنهم كانوا متلهفين للقاء الحبيب ورؤية الله . وهذا ما نراه اليوم أيضاً على جبهات الحق ضد الباطل ، وكيف أن هؤلاء يسرعون إلى الاستشهاد وقد وضعوا أرواحهم على أكفهم .

لماذا الخوف؟

بالفحص والتمعن نستنتج أن سبب هذا الخوف من الموت عاملان :

تفسير الموت بالفناء:

ان الانسان بطبيعته يهرب من حالات العدم : فهو يهرب من المرض الذي يعني انعدام الصحة ، ويهرب من الظَلام الذي يعني انعدام النور ، ويهرب من الفقر الذي يعني انعدام الغنى ، بل انه يهرب أحياناً حتى من الدار الخالية ، ومن الانفراد في الصحراء ، لانعدام الرفيق فيهما .

والعجيب انه يرهب الميت نفسه ، فهو يرفض مثلاً ان يبيت مع جسد ميت في غرفة واحدة ، مع انه لم يكن يخاف هذا الميت قبل أن يموت! فما السبب يا ترى في خوف الانسان من العدم وهروبه منه؟

ان السبب واضح ، فالوجود معقود بالـوجود ويـألفه ، ولا يمكن أن يتآلف الوجود والعدم يوماً ، لذلك فمن الطبيعي ان نكون غرباء على العدم ونشعر بالخوف منه .

فإذا نحن قلنا بأن الموت هو نهاية كل شيء ، وان بالموت يبلغ كل شيء خـاتمته ، عنـدئـذٍ يحق لنـا أن نخشـاه وأن نهـرب حتى من اسمـه ومظهره ، لأن الموت يسلبنا كل شيء .

أما إذا اعتبرنا الموت بداية حياة جديدة ، حياة خالدة ، ونراه نافذة تفتح لنا على العالم العظيم ،عندئذٍ يكون من الطبيعي ألّا نخاف الموت ، بل إننا نهنىء الطاهرين الذين يخطون نحوه بثبات مرتفعي الرأس!

الأضابير السود

إننا نعرف أناساً لا يرون في الموت معنى الفنـاء والعدم ، لأنهم لا ينكرون الحياة بعد الموت ، ولكنهم مع ذلك يخـافون المـوت وذلك لأن صحائف أعمالهم قد اسودت إلى درجة أنهم إنما يخافون العقوبات الأليمة التي يتوقعونها بعد الموت .

إن لهؤلاء الحق في أن يخـافـوا المـوت . إنهم أشبـه بـالمجـرمين الخطرين الذين يخافون الخروج من السجن ، لأنهم يعلمون ان خروجهم من السجن يعني تعليقهم على خشبة الاعدام ، فهم ، لذلك ، يتشبثـون بقضبان السجن ، لا لكرههم الحـرية ، إنمـا هم يكرهـون الحريـة التي تقودهم إلى المشنقة .

هكذا حال المسيئين ، فهم يرون انعتاق أرواحهم من هـذا السجن

الضيق مقدمة لتحمل أنواع العذاب القاسي بسبب ما ارتكبوه من أعمال قبيحة ومن ظلم وجور وفساد ، ولذلك فهم يخافون الموت .

أما الذين لا يرون في الموت « فناء » ولا يجدون « أضابير » أعمالهم سوداً ، فما الذي يحملهم على الخوف من الموت؟

إنهم ، بالطبع ، يريدون هذه الحياة بكل كيانهم ويرغبون فيها ، لكي يستثمروها في سبيل حياتهم الجديدة بعد الموت ، ويعدوا أنفسهم لاستقبال الموت الذي يكون في سبيل رضا الله ، ذلك الهدف الذي يدعو للافتخار والاعتزاز .

نظرتان مختلفتان

قلنا إن الناس فريقان: فريق ، وهم الأكثرية ، يخافون الموت ويهربون منه .

وفريق آخر يستقبلون الموت ، الذي يكون في سبيل هدف عظيم ، كالشهادة في سبيل الله ، بأحضان مفتوحة ، أو انهم على الأقل ، إذا أحسوا بدنوّ الموت لا يداخلهم هم ولا غم أبداً .

والسبب هو ان أولئك وهؤلاء مختلفون في النظرة .

الفريق الأول: هؤلاء إما أن يكونوا من الذين لا يؤمنون بوجود عالم بعد الموت ، وإمّا انهم لا يصدقون بوجوده كل التصديق ، ولذلك ينظرون إلى لحظة الموت وكأنها لحظة فراقهم لكل شيء . إن مفارقة كل شيء والخروج من النور إلى الظلام المطلق أمر صعب أليم ، كحال من

يخرجونه من السجن ليقدموه للمحاكمة عن جريمة ثابتة عليه ، فهي حال رهيبة من الخوف .

أما الفريق الثاني: فيرى الموت ولادة جديدة وخروجاً من محيط الدنيا الضيق المظلم ، ودخولاً إلى عالم وسيع نيّر .

إن التحرر من قفص ضيق صغير ، والتحليق في السماء الفسيحة ، والخروج من ذلك المحيط المليء بالخصام والنزاع وضيق النظر والظلم والحقد والحروب ، والدخول إلى عالم قد تطهر من كل هذا التلوث ، لا شك يجعل الموت أمراً مرغوباً فيه عند هذا الفريق الثاني ، فلا يخافون منه . يقول الامام عليّ عليه السلام:

« والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه » .

أو كما قال الشاعر الفارسي :

مرگ اگر مرد است گو نزد من آی	تادر آغوش بگیرم تنگ تنگ!!
من زاو جاني ستانم جاودان	او زمن دلقي ستاندرنگ رنگ!!
(إذا كان الموت رجلاً ، قل: تعال الي	حتى احتضنه احتضاناً شديدا)
(فاني سأتسلم منه روحاً خالدة	ويأخذ مني رداءً حال لونه)

إذن ليس من المستغرب أن نصادف في التاريخ رجالاً مثل الحسين عليه السلام ومثل أصحابه المضحين ، كلما ازدادت لحظة الشهادة قرباً منهم ، ازدادت فرحتهم واشتد شوقهم إلى لقاء الحبيب وتلألأت وجوههم لقرب اللقيا .

وهذا هو نفسه الذي نقرأه في تاريخ حياة الامام علي عليه السلام

العظيمة ، فهو عندما تنزل على مفرقه ضربة سيف ذلـك المجرم الأثيم ، يصيح قائلاً :

« فزت وربِّ الكعبة » .

بديهي أن لا يعني هذا الكـلام حث الناس على إلقـاء أنفسهم في المهالك ، والاغضاء عن هبة الحيـاة العظيمـة التي وهبها الله لهم ، فـلا يستثمرونها للوصول إلى أهدافهم الكبرى . بل المقصود هو حمل الانسان على استغـلال الحيـاة استغـلالاً سليمـاً ، دون أن يعتـورهم الخـوف من انتهائها ، وخصوصاً إذا كانت الغاية هدفاً عظيماً وسامياً .

***

فكر وأجب

١ ـ لماذا يخاف الناس من الموت؟ أذكر الأسباب .

٢ ـ لماذا يستقبل بعض الناس الموت مبتسمين ويعشقون الشهادة في سبيل الله؟

٣ ـ بم يمكن تشبيه لحظة الموت؟ ما شعور المؤمنين المطهرين في تلك اللحظة ، وما شعور المسيئين عديمي الإيمان؟

٤ ـ هل اتفق لك أن رأيت بنفسك أشخاصاً لا يرهبون الموت؟ ما هي انطباعاتك عنهم؟

٥ ـ ما الذي قاله عليّ عليه السلام بشأن الموت؟



الدرس الثاني

المعاد يعطي الحياة مفهومها

إذا تصورنا هذا العالم بدون العالم الآخر لظهر لنا ان عالمنا فارغ ولا معنى له . إنه أشبه ما يكون بافتراض دورة حياة الجنين بدون خروجه من تلك الحياة إلى هذه الدنيا .

ان الجنين الـذي يعيش في رحم امـه ، ويقضي في هـذا السجن الضيق والمظلم شهوراً عدة ، ليأخذه العجب حقاً لو انه أوتي عقلاً وحكمة ليتفكر بهما في أمره وكونه في سجنه ذاك :

لماذا أنا حبيس في هذا السجن المظلم؟

لماذا عليَّ أن أخوض في هذه المياه والدماء؟

ما نتيجة ذلك؟

من الذي أرسلني؟ ولماذا؟

أما إذا قيل له: انك تقضي هنا فترة مؤقتة ، تتشكل فيها أعضاؤك ، فتقوى ، وتصبح قادراً على الحركة والسعي في عالم كبير آخر ، وان قرار خروجك من هذا السجن سوف يصدر بعد انقضاء تسعة أشهر ، فتضع قدمك في دنيا فيها شمس ساطعة ، وقمر منير ، وأشجار خضر ، ومياه جارية ، وكثير من النعم الاخرى ، عندئذٍ سيتنفس الجنين الصعداء ويقول: الآن أدركت فلسفة وجودي في هذا السجن!

فهذه الدنيا مقدمة ، انها منصة القفز ، انها المدرسة التي تعد المرء لدخول الجامعة الكبيرة .

أما إذا قطعت علاقة حياة الجنين بالحياة في هذه الدنيا ، لغرق كل شيء في الظلام ولم يعد له أي معنى ، ولكان السجن رهيباً ومستقبل السجين أليماً .

كذلك هي العلاقة بين الحياة في هذه الدنيا والحياة بعد الموت . ما الداعي الذي يدعونا ان نظل نتقلب في هذه الدنيا سبعين سنة ، أو أقل أو أكثر ، متحملين العذاب والعناء ، نقضي فترة من الزمن نعاني من قلة التجربة والمعرفة حتى ننضج ، ونقضي فترة أخرى ندرس ونتعلم ، وما أن تنتهي مرحلة النضج والتعلم حتى نجد ثلوج الكهولة قد حطّت على رؤوسنا!

ثم ما الهدف من كل هذا؟ ألكي نأكل ونلبس وننام ، ثم لكي نكرر هذا عشرات السنين؟ أفهل هذه السماء الشاسعة . وهذه الأرض الواسعة ، وكل هذه المقدمات والدرس واختزان المعلومات والتجارب ، وكل هؤلاء

الأساتذة والمربين ، لم يكونوا إلّا للأكل والشرب واللبس في هذه الحياة المنحطّة المتكررة؟

هنا تتأكد عبثية هذه الحياة وفراغها عند أولئك الذين لا يؤمنون بالمعاد ، لأنهم لا يمكن أن يتصوروا هذه الأمور التافهة هي الهدف والغاية من الحياة ، وهم في الوقت نفسه لا يعتقدون بوجود حياة بعد الموت حتى تكون هي الغاية .

لذلك نجد أن كثيراً من هؤلاء يلجأون إلى الانتحار للخلاص من حياة كهذه عديمة المعنى والهدف .

أما إذا صدقنا أن الحياة « مزرعة » الآخرة ، وان علينا أن نباشر بالبذر هنا حتى نحصد الغلة في حياة أبدية خالدة .

وإذا علمنا أن الدنيا « جامعة » علينا أن نكتسب منها المعرفة لنعد أنفسنا للعيش في دنيا خالدة ، وأن هذه الدنيا ليست سوى « جسر » للعبور .

عندئذٍ لا تكون هذه الدنيا فارغة ولا عبثاً لا معنى له ، بل سوف نراها فترة تمهيدية وإعدادية لحياة خالدة وأبدية تستحق منا أكثر من كل هذا ، الذي نبذله من أجلها .

نعم ، إن الإيمان بالمعاد يمنح الحياة معنى ومفهوماً ، ويخلصها من « الاضطراب » و« القلق » و« العبثية » .

الإيمان بالمعاد عامل تربوي

ان للاعتقاد بوجود محكمة العدل العظمى في الآخرة تأثيراً كثيراً في الحياة ، بالإضافة إلى ما سبق قوله .

افرض انهم أعلنوا في البلاد أنه إذا ارتكب الناس أي جرم في اليوم الفلاني من السنة فلن يعاقبوا ولن يذكر ذلك في صحيفة أعمـالهم ، وأن لهم أن يقضوا يومهم بكل اطمئنان ، لأن رجال الشرطة سوف يكونون في إجازة ، وسوف تتعطل المحاكم ، وعندما تعود الحياة العادية إلى مجراها الطبيعي في اليوم التالي فان جرائم اليوم السابق سوف تنسى .

لكم ان تتصوروا كيف سيكون حال المجتمع ، في ذلك اليوم!

ان الإيمان بيوم القيـامة هـو الإيمان بـدار عدالـة عظيمـة لا يمكن مقارنتها بمحاكم هذه الدنيا .

أما خصائص محكمة العدل الإلهية فهي :

١ ـ انها محكمة لا تتأثر بالوساطات ، ولا بالمحسوبيات ولا ينخدع قضاتها بالأدلة المزيفة .

٢ ـ انها محكمة لا تحتـاج إلى المراسيم والتشـريفات السـائدة في محاكم الدنيـا ، ولذلـك فليس فيها تـأجيلات وتـأخيرات ، بـل تنظر في القضايا بسرعة البرق وتصدر أحكامها بمنتهى الدقة .

٣ ـ انها محكمة لا تستنـد إلاّ إلى اعمال الشخص نفسـه ، أي ان الاعمال تحضر هناك وتثبت علاقتها بفاعلها بحيث لا يمكن انكارها .

٤ ـ انها محكمة الشهود فيها أعضاء المتهم: يده ورجله وأذنه وعينه ولسانه وجلده، وحتى أرض الدار وأبوابها وجدرانها حيث ارتكب معصية أو أدى فروض الطاعة، وهم شهود لا يمكن إنكارهم كآثار أعمال الانسان الطبيعية.

٥ ـ انها محكمة قاضيها هو الله العليم بكل شيء، والغني عن كل شيء، والعادل الذي لا يضاهي عدله عادل.

٦ ـ وأخيراً، الجزاء في هذه المحكمة ليس محدداً من قبل، بل أكثر ما تحدده أعمالنا نفسها، إذ انها تتشكل وتستقر إلى جانبنا، فتعذبنا أو ترفه عنا وتغرقنا في نعم الله.

إن الإيمان بوجود محكمة كهذه يؤدي بالانسان إلى أن يردد ما قاله الامام عليّ عليه السلام:

«والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجرّ في الأغلال مصفداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. . . .»[1].

إن الايمان بهذه المحكمة هو الذي يحمل انساناً أن يقرب حديدة محماة إلى يد أخيه الذي كان يرغب بالمحاباة في بيت المال، وعندما يرتفع صراخ الأخ يوجه إليه النصيحة قائلاً:

«ثكلتك الثواكل يا عقيل! أتئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه،

---

(١) نهج البلاغة «الخطبة٢٢٤».

وتجرّني إلى نار سجرها جبارها لغضبه . . . » .

أيمكن أن ينخدع انسان له مثل هذا الإيمان؟

أيمكن بالرشوة ابتياع ضمير إنسان كهذا؟

أيمكن بالوعد والوعيد حرف مسيرته من طريق الحق إلى طريق الباطل؟

يقول القرآن المجيد:

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها . . . ﴾[٢] .

وهكذا تنبعث في روح الانسان موجة قوية من الاحساس بالمسؤولية ازاء كل عمل من أعماله تحول بينه وبين الضياع والانحراف نحو الظلم والعدوان .

* * *

(٢) سورة الكهف ، الآية(٤٩) .

فكـر وأجب

١ ـ لو لم يكن هناك عالم آخر بعد هذه الحيـاة الدنيـوية المحددة والمؤقتة ، فما الذي كان سيحدث؟

٢ ـ لماذا يسعى بعض الذين ينكرون المبدأ والمعـاد إلى التخلص من الحياة بالانتحار؟

٣ ـ ما هي الاختلافات بين محكمة يوم القيامة والمحاكم في هذه الدنيا؟

٤ ـ ما تأثير الإيمان بالمعاد على أعمال الانسان؟

٥ ـ ما الذي قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأخيه عقيل؟ ماذا كان عقيل يريد منه؟ ماذا كان جوابه له؟



الدرس الثالث

في أعماقنا مثال لمحكمة يوم القيامة

لما كانت قضية الحياة بعد الموت ومحكمة يوم القيامة العظيمة تعتبر قضية جديدة على انسان يعيش في هذه الدنيا الضيقة المحدودة فان الله أوجد لنا مثالاً مصغراً لتلك المحكمة في هذه الدنيا ، هي محكمة الضمير ، الاّ انها كما قلنا صورة مصغّرة لها .

دعونا نوضح هذا الموضوع :

يحاكم الانسان على الأعمال التي يقوم بها في عدة من المحاكم . أولاها هي المحاكم البشرية العادية ، بكل ما فيها من ضعف ونقص وانحرافات .

وعلى الرغم من ان لهذه المحاكم بعض التأثير في تخفيف نسبة ارتكاب الجرائم ، إلاّ ان الأسس التي أقيمت عليها هذه المحاكم ليست أصلاً قمينة بتحقيق العدالة كاملة ، ولا يمكن أن ينتظر منها ذلك .

فالقوانين الموضوعة والقضاة الفاسدون وتفشي الرشوة والمحسوبيات والمنسوبيات والمناورات السياسية وآلاف الأمور الأخرى تؤدي كلها إلى إضعافها إلى درجة يمكن القول معها بأن عدمها خير من وجودها ، وذلك لأن وجودها يساعد على تنفيذ مآرب المتنفذين المشؤومة .

وحتى لو كانت قوانينها عادلة . وقضاتها متقين وواعين ، فان هناك الكثير من المجرمين القادرين على إخفاء معالم جرائمهم ، أو الماهرين الذين يستطيعون تزييف المستندات والأدلة بحيث لا يجد القاضي طريقه بوضوح ، فيجردون القوانين بذلك من محتواها .

المحكمة الثانية التي يحاكم فيها الانسان هي محكمة « نتائج الأعمال » .

ان لأعمالنا آثاراً ونتائج تصيبنا على المدى القريب أو البعيد . وإذا لم يكن هذا حكماً عاماً ، فانه يصدق في الأقل بالنسبة لكثير من الناس .

لقد رأينا حكومات شيدت حكمها على الظلم والجور والاعتداء وارتكبت كل جريمة شاءت ، ولكنها في النهاية وقعت في فخاخ نصبتها بنفسها وسقطت في شباك هي التي نسجت خيوطها ، فحاقت بها ردود أفعالها ، فانهارت وتلاشت حتى لم يبق لها أثر .

ولما كانت نتائج الأعمال هي العلاقة بين العلة والمعلول والعلائق الخارجية ، فقلما استطاع أحد أن ينجو من مخالبها بالتزوير والتزييف ، كما يفعلون في المحاكم العادية . ولكن كل ما في الأمر ان هذه المحاكم ليست عامة وشاملة ، ولهذا فهي ليست قادرة على جعلنا في غنى عن

محكمة يوم القيامة .

أما المحكمة الثالثة ، وهي أدق وأقسى من محاكم النوع الثـاني ، فهي محكمة الضمير .

في الواقع ، بمثلما ان المنظومة الشمسية بنظامها العجيب قد تمثلت مصغرة جداً في قلب الذرة ، كذلـك يمكن القول بـأن نظام محكمـة يوم القيامة قد تمثل مصغراً في داخلنا .

إن في أعماق الانسان قوة غامضة يطلق عليها الفلاسفة اسم « العقل العملي » ويسميها القرآن « النفس اللوّامة » ، ويصطلح عليها المعاصرون باسم « الضمير » أو « الوجدان » .

فما أن يقوم الانسان بعمل ما ، خيراً كان أم شراً ، حتى تعقد هذه المحكمـة جلسة بـدون ضوضـاء ولا تشريفـات ، ولكن بكـل جـد ووفق الأصول ، وتبدأ المحاكمة ، ويصدر الحكم ، ثواباً أو عقاباً ، يتم تنفيذه بهيئة آثار نفسية .

وقد يكون عقاب المجرمين أحياناً من الشـدة والقسوة بحيث يتمنى المجرم الموت ويستقبله بكـل ترحـاب ويفضله على الحياة ، ويكتب في وصيته: انتحرت تخلصاً من عذاب الضمير!

وأحياناً يكون الثواب على عمل الخير كبيراً يشيع الفرحة والسـرور في نفس فـاعله ويضفي عليه حـالة من الاطمئنـان والهـدوء النفسي ممـا يصعب وصف ما فيه من العذوبة واللذة .

ان لهذه المحكمة خصائص معينة :

١ ـ في هذه المحكمة قاضيها وشاهدها ومنفذ أحكامها والمتفرج فيها واحد ، وهو الضمير الذي يشهد ويقضي ويصدر الحكم ثم يشمر عن ساعد الجد وينفذ الحكم .

٢ ـ في هذه المحكمة بخلاف ما يجري في المحاكم العادية التي يكثر فيها الضوضاء والمظاهر ، وقد تطول فيها محاكمة قضية واحدة سنوات طوالاً ـ تجري المحاكمة بسرعة البرق في أكثر الحالات إلاّ إذا اكتنف القضية بعض الغموض مما يتطلب بعض الوقت لفحص أدلة القضية وإزاحة سجف الغفلة عن نظر القلب ، ولكن بعد التأكد يكون صدور الحكم قطعياً .

٣ ـ الحكم في هذه المحكمة يتم في مرحلة واحدة ، فلا استئناف ولا تمييز ، بل هو حكم نهائي باتّ .

٤ ـ هذه المحكمة لا تصدر أحكام العقوبات فقط ، بل هي تحكم بالمكافأة والإثابة . أي انها محكمة تنظر في قضايا المجرمين والمحسنين معاً ، فتعاقب المسيء وتثيب المحسن .

٥ ـ عقوبات هذه المحكمة لا تشبه عقوبات المحاكم العادية ، إذ ليس فيها سجون حقيقية ، ولا سياط للجلد ، ولا أعواد للشنق ، ولا محرقة للحرق ، ولكن عقابها يكون أحياناً حارقاً وسجنها قاسياً بحيث ان الدنيا على سعتها تضيق بالانسان ، كأضيق سجن انفرادي في سجن رهيب .

وعليه ، فان هذه المحكمة ليست تشبه أياً من المحاكم العادية ، بل هي من نوع محكمة يوم القيامة . إن هذه المحكمة من العظمة بحيث ان القرآن يقسم بها كما يقسم بمحكمة المعاد ، فيقول:

﴿ لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوّامة * أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوّي بنانه ﴾[1] .

بديهي ان هذه المحكمة ، لكونها دنيوية على كل حال ، فيها من النقائص ما لا يجعلنا نستغني عن محكمة يوم القيامة ، وذلك:

١ ـ لأن نطاقها ضيق لا يستوعب كل شيء ، بل تتناسب مع نطاق تفكير الانسان نفسه وإدراكه .

٢ ـ هنالك أشخاص على درجة من المكر والدهاء بحيث انهم يستطيعون أن يخدعوا حتى ضمائرهم ويغشوها .

٣ ـ قد يكون نداء الضمير في بعض المجرمين من الضعف بحيث انه لا يصل إلى مسامعهم .

وهكذا يتبين لنا أن وجود المحكمة الرابعة ، محكمة يوم القيامة ، أمر لا بدّ منه .

* * *

(١) سورة القيامة ، الآيات (١ ـ ٤) .

فكـر وأجب

١ ـ كم محكمة يحاكم فيها الانسان في الواقع ؟

٢ ـ ما هي خصائص المحكمة الأولى ، وما اسمها؟

٣ ـ ما هي مميزات المحكمة الثانية؟

٤ ـ ما هي خصائص المحكمة الثالثة؟

٥ ـ عدّد نقاط ضعف محكمة الضمير ومميزاتها .

الدرس الرابع



المعاد في تجليات الفطرة

يقولون ان معرفة النفس تنبع من الفطرة وجبلة الانسان . . وإذا استطلعنا ضمير الانسان الواعي وغير الواعي لتبين لنا إيمانه وتعلقه بمبدأ فيما وراء الطبيعة يراه هو الذي خلق هذا العالم خلق عليم ، ووفق برنامج ، ومن أجل هدف معين .

إلّا أن هذا لا يقتصر على « التوحيد ومعرفة الله » ، فجميع أصول الدين وفروعه يجب أن تكون في الفطرة أيضاً ، وإلّا فان الانسجام بين أجهزة « التشريع » و« التكوين » لا يتحقق (فتأمّل!) .

ولكننا إذا ألقينا نظرة فاحصة في قلوبنا واستطلعنا أعماق أرواحنا ، لسمعنا بأذن أرواحنا تمتمة تقول: إن الحياة لا تنتهي بالموت ، لان الموت نافذة على عالم البقاء!

ولكي تتجلى لنا هذه الحقيقة لا بد لنا من التنبه إلى النقاط التالية :

١ ـ حب البقاء

اذا كان الانسان قد خلق لكي يموت ويفنى ، فلا بد أن يحب الفناء وان يستمتع بلذة الموت في نهاية عمره . ولكننا نشهد ان ملامح الموت (بمعنى العدم) لم تكن في يوم من الأيام مما يثير البهجة في قلب الانسان ، بل انه ، بخلاف ذلك ، يهرب من رؤية الموت بكل ما أوتي من قوة .

هذه الحقيقة تؤكدها جهود الانسان التي يبذلها لإطالة عمره ، وللبحث عن اكسير الشباب ، وللعثور على ماء الحياة . إن هذا التعلق بأذيال الحياة لدليل على اننا قد خلقنا للبقاء ، لا للموت إذ لو كنا قد خلقنا للفناء لما احببنا الحياة إلى هذا الحد .

ان جميع أنواع الحب البنّاءة الكامنة في أعماقنا تعمل على إيصالنا إلى الكمال والتكامل ، ومن ذلك حب البقاء ، فهو يكمل وجودنا .

لا تنسوا أننا نتابع بحث « المعاد » بعد قبولنا بوجود إله حكيم عليم . اننا نؤمن بأن كل ما أودعه الله في داخلنا كان لحكمة وحساب ، ومن هنا لا بد أن تكون هناك حكمة في هذا الحب الذي نشعر به للبقاء ، وما هذه الحكمة سوى وجود العالم الذي يكون بعد هذا العالم .

٢ ـ يوم القيامة عند الماضين

ان التاريخ الذي يشهد بوجود الأديان على اختلافها عند الأقوام الماضية منذ أقدم الأزمنة ، يشهد كذلك بأن الانسان القديم كان يؤمن أيضاً « بالحياة بعد الموت » .

ان الآثـار الباقيـة من الانسان القـديم ، وخاصـة من انسان مـا قبل التاريخ ، فيما يتعلق بطراز تشييد القبور ، وطـريقة دفن الأمـوات ، لتدل جميعاً على حقيقة كونهم كانوا يعتقدون بالحياة بعد الموت .

وعليه لا يمكن اعتبار هذه العقيدة العميقة الجذور في تاريخ البشر عقيدة بسيطة ، ولا كونها عادة لقنت لهم تلقيناً .

إننا كلما صادفنا في تاريخ الانسان عقيدة ذات جذور عميقة ومستمرة على امتداد العصور ، أدركنا انها عقيدة فطرية ، إذ ان الفطرة وحدها هي التي تستـطيع أن تقـاوم مرور الـزمـان والتقلبـات الاجتمـاعيـة والفكـريـة المختلفة ، وتبقى ثابتة . أما العادات والرسوم الخارجية فما أسرع ما تتبدل أو يلفها النسيان بمرور الزمان .

إنك إذ تلبس الطراز الفلاني من الملابس إنما أنت تساير العادات أو الرسوم المتبعة ، وهذا سـرعان مـا يعتوره التغييـر والتبدل بتقـادم الزمـان وعوامل أخرى كثيرة .

أما حب الأم لطفلها فانه غريزة متمكنة جبلت عليها طبيعتها ، لذلك لا ينتابه أي تبدل مهما تغيرت الظروف والأحوال ، بل تظل شعلته ملتهبة ، لا يخفف منه تعاقب الأيام ، ولا يحول لونه بغبار النسيان ، وكل جاذبيـة نابعة من داخل الانسان فهي من الفطرة الكامنة فيه .

عندما يقول العلماء :

« لقد أثبتت الدراسات الدقيقة ان الأقوام الأولى البدائية من البشـر كانت تؤمن بنوع من الأديـان وذلك لأنهم كـانوا يـدفنون مـوتاهم بـطريقة

خاصة ، ويـدفنون معهم أدوات عملهم ، وبهـذا يمكن إثبات أنهم كـانوا يعتقدون بوجود العالم الآخر »[1] .

ندرك أن تلك الأقوام قد تقبلوا فكرة وجود عالم آخر بعد الموت ، وان أخطأوا السبيل اليه ، ظانين انه لا يختلف بشيء عن عالمهم الأول ، وأن الأدوات التي كـانوا يستعملونهـا في الدنيـا تنفعهم في العـالم الآخـر أيضاً .

٣ ـ ان محكمة (الضمير) دليل آخر على ان فكرة المعاد فطرية .

سبق أن قلنا اننا نشعر بكل وضوح ان هناك في داخلنا محكمة تنظر في أعمالنا وأقوالنا ، تثيبنا على الحسنة منها ، فنحس على أثر ذلك بالراحة والاطمئنان والهدوء النفسي والفرح والنشاط مما لا يتأتى لقلم أن يصفه .

كما أنها تعاقبنا على السيئة منها ، وعلى الأخص الذنوب الكبيرة ، فعقابها عليها يكون من الشدة والقسوة بحيث تحيل الحياة كالعلقم مرارة .

كثيراً ما لوحظ أن مجرمين بعد أن يرتكبوا جريمة كبرى ، كالقتل ، ويفلتون من قبضة العـدالة ، يعـودون ويسلّمون أنفسهم إلى المحكمـة ، ويصعـدون المشانق طـوعاً ، قـائلين انهم يريـدون الخلاص من عـذاب الضمير .

عندما يمعن المرء فكره في هذه المحكمة الباطنية ينتـابه العجب: كيف يمكن أن يـوجد في داخلي مثـل هذه المحكمـة ، وأنا هـذا الكائن

---

(١) علم الاجتماع «بقلم كينگ» ص١٩٤ .

الصغير ، ولا يوجد في عالم الخليقة العظيم محكمة تتناسب معه؟

وبناءً على ما تقدم نستطيع أن نثبت بثلاثة طرق فطرية الاعتقاد بالمعاد وبوجود عالم آخر بعد هذا العالم :

طريق حب البقاء .

طريق التاريخ الذي يؤكد إيمان البشر بهذه الفكرة منذ الأزمنة السحيقة .

طريق المثال المصغر الموجود في باطن الانسان .

* * *

فكر وأجب

١ ـ كيف يمكن تمييز الأمور الفطرية عن غير الفطرية؟

٢ ـ لماذا يحب الانسان البقاء؟ وكيف يعتبر هذا دليلاً على أن المعاد من الأمور الفطرية؟

٣ ـ هل آمنت الأقوام القديمة بالمعاد؟ كيف؟

٤ ـ كيف تقوم محكمة الضمير بمكافأتنا أو بمعاقبتنا؟ أذكر نماذج لذلك .

٥ ـ ما العلاقة بين محكمة الضمير والمحكمة الكبرى يوم القيامة؟

الدرس الخامس

البعث في ميزان العدالة

إذا أمعنا النظر في نظام عالم الوجود وسنن الخلق نجد أن ثمة قانوناً يحكمها جميعاً ويضع كل شيء في مكانه المناسب .

في جسم الانسان نرى هذا النظام العادل قد ركبّ فيه بدرجة من الدقة المتناهية بحيث ان أقل اختلال في توازنه يؤدي به إلى الاصابة بالمرض ، أو إلى الموت .

خذ مثلاً ، تركيب القلب ، أو العين ، أو الدماغ ، تجد أن كل جزء فيها قد ركب في مكانه المناسب بكل دقة وبالقدر اللازم ، إن هذا التنظيم المناسب العادل لا يقتصر وجوده في جسم الانسان ، بل هو سائد في كل اجزاء عالم الخليقة ، إذ : «بالعدل قامت السموات والأرض» .

إن حجم الذرة من الدقة والصغر بحيث أنك تستطيع أن تضع ملايين منها على رأس إبرة ، فتأمل كيف يجب أن يكون تركيبها من الدقة والتنظيم

بحيث يمكن لها أن تديم حياتها ملايين السنين .

إن هذا ناشىء من العدالة في الحسابات الدقيقة لنظام الالكترونات والبروتونات ، وما من جهاز صغير أو كبير يخرج عن دائرة هذا النظام العجيب .

فهل الانسان حقاً كائن استثنائي ؟ وإنه بقعة سوداء في جسد هذا العالم الكبير الأبيض ؟ وأنه لهذا السبب يجب أن يسرح ويمرح حراً ، لا يلتزم نظاماً ويرتكب ما يشاء من ظلم واعتداء ؟ أم ان هناك سراً في هذا الأمر ؟

حرية الإرادة والاختيار :

الحقيقة هي ان الانسان يختلف اختلافاً أساساً عن سائر الكائنات في عالم الوجود ، وهو أنه يملك حرية الإرادة والاختيار .

لماذا خلقه الله حراً ، وأوكل إليه اتخاذ القرارات والقيام بما يشاء من أعمال ؟

السبب هو انه لو لم يكن حراً لما استطاع أن يحقق تكامله ، فهذا الامتياز الكبير هو الذي يضمن تكامله الأخلاقي والمعنوي ، لو أن شخصاً اجبر بالقوة على إعانة المستضعفين والقيام بأعمال أخرى تفيد المجتمع ، فان هذه الأعمال قد تسير في طريقها ، ولكنها لن تكون دافعاً لهذا الشخص على التكامل الاخلاقي والانساني ابداً . أما إذا قام بعشر تلك الاعمال الخيرة بمحض إرادته يكون قد تقدم بالنسبة نفسها على طريق التكامل المعنوي والاخلاقي .

بناءً على ذلك ، فان أول شرط من شروط التكامل المعنوي والاخلاقي هو امتلاك حرية الإرادة والإختيار حتى يقوم الانسان بالسير في هذا الطريق بمحض رغبته وإرادته ، لا بالجبر والإكراه ، كما هي حال عناصر الطبيعة الأخرى ، فالله سبحانه وتعالى لم يهب الانسان هذه الهبة العظيمة إلّا لهذا الغرض السامي .

بيد أن هذه النعمة الكبرى أشبه بالورد الذي يحيط به الشوك ، وهو سوء استغلال الناس لهذه الحرية والتلوث بالظلم والفساد والذنوب .

بديهي ان الله لم يكن يمنعه شيء من أن يعاقب كل ظالم فوراً بعقاب يجعله يقتلع من رأسه كل فكرة عن تكرار ذلك ، كأن يشل يده ، أو يعمي بصره ، أو يخرس لسانه .

صحيح ان أحداً ، في هذه الحالة ، لن يجرأ على إساءة استعمال حريته ولن يقرب الاثم طوال حياته ، غير أن هذه العفة والتقوى تكون إجبارية قسرية ، ولا تعتبر مدعاة لافتخار الانسان واعتزازه ، بل تكون نتيجة الخوف من العقاب الصارم الفوري .

لذلك لا بد أن يكون الانسان حراً وان يجتاز الامتحانات التي يقررها له الله ، وأن لا يعاقب فوراً ، إلّا في حالات استثنائية ، لكي يستطيع ان يكشف عن قيمته في الوجود .

إلّا أن هناك موضوعاً آخر ، وهو انه إذا استمرت الحال على هذا المنوال واختار كل طريقاً ، فان قانون العدالة الإلهية الذي يسيطر على عالم الوجود يكون قد انتقض .

من هنا يتبين لنا أن هناك محكمة ودار عدالة قد عينت للبشر ، وأن على الجميع الحضور فيها بدون استثناء لينال جزاء أعماله بموجب عدالة عالم الخلق .

أيصح أن يقضي أشخاص مثل نمرود وفرعون وقارون وچنگيز أعمارهم يظلمون ويعتدون ويفسدون ، ثم لا يكون وراءهم حساب ولا عقاب ؟

أيجوز أن يقف المجرمون والمتقون على قدم المساواة في كفة ميزان العدالة الإلهية ؟

أو كما يقول القرآن : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** ﴾[1] ، و﴿ **أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾[2] .

صحيح ان بعض المجرمين ينالون عقابهم على أعمالهم في هذه الدنيا ، أو جزءاً من ذلك العقاب ، وصحيح ان مسألة محكمة الضمير مسألة مهمة ، وصحيح أيضاً ان نتائج الذنوب والظلم والتعسف تحيق أحياناً بالإنسان نفسه ، ولكننا بإمعان النظر في هذه الحالات الثلاث ندرك أنها ليست عامة شاملة بحيث تعم كل ظالم ومذنب فينال كل نصيبه من العقاب بما يتناسب وجريمته ، وأن هناك الكثيرين الذين يهربون من مخالب عقاب محاكمات الضمير ونتائج أعمالهم ، أو لا ينالون من العقاب ما يكفي .

---

(١) سورة القلم ، الآيتان (٣٥و٣٦) .
(٢) سورة ص ، الآية(٢٨) .

فلأمثال هؤلاء ، ولكي تكـون هناك محكمـة عدل عـامة لمحـاسبة الناس حتى على مقدار رأس الابـرة من العمل الحسن أو السيىء ، تقـام محكمة العدل يوم القيامة ، وإلّا فان مبدأ العدالة لا يمكن أن يتحقق .

بناءً على ذلك ، فان القبول «بوجود الله» و«عدالته» يستدعي القبول بالبعث ومحكمة يوم القيامة ، ولا يمكن الفصل بين هذين ابداً .

فكر وأجب

١ ـ كيف قامت السموات والارض بالعدل ؟

٢ ـ لماذا وهب الانسان نعمة حرية الارادة والاختيار ؟

٣ ـ ماذا كان سيحدث لو أن المسيئين نـالوا عقـابهم فوراً على جرائمهم في هذه الدنيا ؟

٤ ـ لماذا لا نستغني بثواب أعمـالنا ، وبمحكمـة الضمير وبنتائج أعمالنا ، عن محكمة يوم القيامة ؟

٥ ـ ما العلاقة بين «العدالة الإلهية» و«المعاد» ؟

الدرس السادس

مشاهدة البعث في هذا العالم

يستنتج من الآيات القرآنية أن عبدة الأصنام والكفار في عصر الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله لم يكونوا هم وحدهم الذين يستنكرون مسألة المعاد والحياة بعد الموت ويخشونها ، بل كانت أقوام في عصور سابقة ترى هذا الرأي ، وتسم القائلين به بالجنون ، ونقول : ﴿ **هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد * افترى على الله كذباً أم به جنة** ﴾[1] .

نعم ، يومئذ كان الناس لجهلهم وقصر نظرهم يتهمون من يعتقد بعالم ما بعد الموت وبالحياة الأخروية بالجنون ، أو بالتقول على الله ، قائلين إن الزعم بانبعاث الحياة في المادة الميتة جنون .

---

(١) سورة سبأ ، الآيتان(٧و٨) .

والذي يلفت النظر هو ان القرآن يواجه هـذه الافكار بمجمـوعة من الاستدلالات المختلفة التي تنفع الفرد العادي كما تنفع العالم المتبحر ، كلاً على قدر مستواه العقلي .

وعلى الرغم من ان شرح هذه الاستدلالات القـرآنية يتـطلب كتابـاً منفصلاً ، فاننا نبادر إلى ذكر بعض نماذجها :

١ ـ يخاطبهم القرآن في بعض آياته قائلاً : إنكم تـرون بأم أعينكم مشاهد من المعاد في حياتكم اليومية ، فترون كيف تموت الكائنات وكيف تعود إلى الحياة ، فكيف تشكون في المعاد بعد كل هذا ؟

﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[٢] .

نجيل بانظارنا شتاءً في ملامح الطبيعة فنرى إمارات الموت ورائحته تشيع في كل مكان ، فالاشجار عارية من أوراقها وثمـارها ، تقف خشبـة جرداء جافة ، فلا زهرة ضاحكة ، ولا برعم متفتـح ، ولا نبضات للحيـاة تنبعث من جنبات الصحارى وسفوح الجبال .

ثم يحـل الـربيــع ، ويلطف الجـو ، وينهمــر المـطر المحيي من السماء ، وإذا بحركة الحياة تجتاح الطبيعة بأسـرها وتبـدو جلية للعيـان ، فتنمو النباتات وتورق الاشجار وتبرز البراعم والازاهير ، وتبدأ الطيور تبني أعشاشها بين الأغصان ، وينكشف الانبعاث العارم في كل شيء!

---

(٢) سورة فاطر ، الآية(٩) .

فلولا الحياة بعد الموت ما كنا لنشهد هذا المشهد يتكرر كل عام ، ولو كانت الحياة بعد الموت مستحيلة ، ويعتبر الكلام عليها جنوناً ، لما كان كل هذا يتجسد أمامنا ونراه بأعيننا ونتحسسه بحواسنا .

ولا فرق بين إحياء الأرض بعد موتها وإحياء الانسان بعد موته .

٢ ـ وفي مواضع أخرى يأخذ القرآن بأيديهم ليتقدم بهم نحو بداية الخلق ، يصف لهم الخلق الاول ، وعندما يتقدم أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وبيده قطعة عظم بالية ، ويصيح : يا محمد : ﴿ **من يحيي العظام وهي رميم** ﴾ وكأنه قد أتى بدليل لا يمكن دحضه لتنفيذ مسألة «المعاد» فيأتي أمر الله إلى رسوله : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾(٣) .

لا فرق بين الخلق الأول والخلق المتجدد ، ولهذا تقول آية أخرى في عبارة قصيرة غنية بالمعنى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾(٤) .

٣ ـ وقد يشير القرآن إلى قدرة الله العظيمة بحثّهم على النظر إلى هذا الكون الفسيح بسمواته وأرضه ، فيقول : ﴿ **أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾(٥) .

كان الشاكون في هذه الأمور اشخاصاً لم يتعد أفق تفكيرهم محيط

---

(٣) سورة يس ، الآية(٧٩) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية(١٠٤) .
(٥) سورة يس ، الآيتان(٨١و٨٢) .

بيـوتهم الضيقة الحقيـرة ، وإلا لأدركوا أن العـودة ثانيـة أسهل من الخلق الأول ، وان إعادة الأموات إلى الحيـاة لا تعد شيئـاً عصياً على قـدرة الله الذي خلق السموات والأرض من قبل .

٤ ـ واحيانا يعكس لهم انبعاث «الطاقات» قائلاً : ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[٦] .

عندما نمحص هذا التعبير العجيب في القـرآن ، مستعينين بالعلوم الحديثة ، يتبين لنا ان العلم يقول : عندما نحـرق أخشاب شجـرة ، فان الحرارة المنبعثة من نيرانها هي الطاقة الحرارية نفسها التي كانت الشمس تعكسها عليها اثناء سنوات حياتها والمخزونة فيهـا ، مع اننـا كنا نـظن أن أشعة الشمس على الشجرة قد ماتت وتلاشت ، ولكننا هنا نراها قد عادت إلى الحياة مرة أخرى في لباس جديد .

إذن ، هـل من الصعب على الله ـ الـذي لـه هـذه القـدرة على ان يختزن لعشرات السنوات نور الشمس وحرارتها في جذع شجرة ، ثم في لحظة واحدة يخرج مخزونها ـ أن يحيي الأموات ؟[٧] .

وهكذا نلاحظ كيف أن القرآن باستدلالاته ومنطقه الواضح يرد على الـذين يشكـون في المعـاد ويتهمـون القـائلين بـه بـالجنـون ، ويخـرس ألسنتهم ، باثبات إمكان المعاد استناداً إلى الأدلة التي أوردنا جانباً منها .

---

(٦) سورة يس ، الآية(٨٠) .

(٧) نذكر بان العلم الحديث يقول ان النباتات الخضر هي القادرة على استقبال نور الشمس فتحلل بوساطته غاز الكابونيك ، فتحتفظ بالكاربون في داخلها وتحرر غاز الأوكسجين ، وفي الوقت نفسه تختزن الطاقة الحرارية من الشمس .

فكر وأجب

١ ـ لماذا كان المشركون يأخذهم العجب من فكرة المعاد ؟

٢ ـ كيف نرى مشهد المعاد في مملكة النبات كل عام ؟

٣ ـ يعتبر القرآن في بعض آياته دورة الحمل والولادة دليلاً على المعاد ، لماذا ؟

٤ ـ ما هو بعث الطاقات ؟

٥ ـ لماذا استدل القرآن بالشجر الأخضر ؟



الدرس السابع

المعاد وفلسفة الخلق

يتساءل الكثيرون : لماذا خلقنا الله ؟

وقد يتجاوزن ذلك احياناً ليسألوا : بل ما هي فلسْفة خلق هذا العالم الكبير ؟

إن البستاني يزرع الشجرة من أجل ثمرها ، ويحرث الأرض ويبذر الحب من أجل غلتها ، فمن أجل أي شيء خلقنا بستاني الخليقة ؟

أكان هناك ما ينقص الله حتى يستكمله بالخلق ؟ إذا كان الأمر كذلك فهو إذن محتاج ، ولكن الاحتياج لا يأتلف ومقام الربوبية ولا نهائية وجوده .

للإجابة عن هذا السؤال يمكن قول الكثير ، ولكن من الممكن تلخيص ذلك في بضع جمل واضحات ، وهي :

الخطأ الكبير هو انا نقارن صفات الله بصفاتنا نحن ، فنحن لكوننا

كائنات محدودة ، نقوم باعمالنا لكي نسد حاجة من حاجاتنا ، فندرس مثلاً لسد نقصنا من العلم ، ونشتغل لسد حاجتنا إلى المال ونفتش عن الطب والعلاج لضمان سلامتنا .

ولكن فيما يتعلق بالله الذي لا نهاية له من جميع الجهات ، علينا أن نبحث عن أهداف ما يفعله خارج ذاته ، فهو لا يخلق لمنفعة ولا لسد حاجة ، بل هدفه من ذلك هو أن يفيض بلطفه ووجوده على عباده .

إنه شمس مشعة لا نهاية لها ، تشع بنورها ، لا لحاجة بها إلى ذلك ، بل لكي ينعم الجميع بنور وجودها ، إن من مقتضيات ذاته اللامتناهية الفياضة أن يأخذ بيد الكائنات ويتقدم بها على طريق التكامل .

إن خلقنا من العدم يعتبر بذاته خطوة تكاملية بارزة ، كما ان إرسال الرسل وانزال الكتب السماوية والشرائع والقوانين ، إن هي إلّا قواعد لهذا التكامل .

هذه الدنيا أشبه بجامعة كبيرة ، ونحن طلبتها!

هذه الدنيا أشبه بمزرعة أعدت لنا ونحن زارعوها!

هذه الدنيا متجر أولياء الله!

فكيف يمكن أن نقول أن ليس لهذا الخلق هدف ، مع أننا إذا نظرنا حولنا وتفحصنا جميع اجزاء الموجودات جزءاً جزءاً لوجدنا أن لكل منها هدفاً .

ففي أجهزة أجسادنا لن تجد جهازاً بغير هدف ، وحتى الاهداب

ولتقعر باطن القدم أهدافها .

فكيف يمكن أن يكون لاجزاء أجسامنا أهداف ، ولا يكون لمجموع تلك الأجزاء أي هدف ؟

وإذا تجاوزنا كياننا وخرجنا إلى العالم الخارجي الكبير ، وجدنا ان لكل جهاز فيه هدفاً ، فلسطوع الشمس هدف ، ولهطول المطر هدف ، ولتركيب الهواء هدف فهل يمكن ان لا يكون للمجموع أي هدف ؟

الحقيقة هي ان في قلب هذا العالم الفسيح لوحة كبيرة تعرض الهدف النهائي الذي لا نستطيع رؤيته احياناً ولأول وهلة ، لعظمته ، لقد كتب عليها ، «التربية والتكامل» .

* * *

والآن ، بعد أن تعرفنا على هدف الخلق على وجه العموم يدور الكلام على ما إذا كانت هذه الحياة المعدودة أيامها ، وبكل ما فيها من مشكلات وحرمان ومصائب ، هي هدف الخلق ؟

أفرض أني عشت في هذه الدنيا ستين سنة ، وأني أعمل كل يوم من الصباح حتى المساء للحصول على القوت ، وأعود إلى البيت متعباً منهوكاً وتكون النتيجة أنني أستهلك بضعة أطنان من الطعام والماء ، وأتحمل العناء والتعب لأشيد داراً ، ثم بعد ذلك أترك كل شيء وأخرج من هذا العالم ، فهل ترى هذا الهدف يستحق أن يستدعيني إلى هذا العالم المليء بالآلام والشقاء ؟

لو أن مهندساً شيد عمارة عظيمة وسط الصحراء ، وقضى سنوات

طوالاً في تكميلها وتنظيمها وتجهيزها بكل وسائل الراحة ، فإذا سئل : ما الغاية من بنائك هذه العمارة ؟ قال : كل هدفي هو أن يمر بها عابر سبيل ولو مرة ويستريح فيها ساعة أو بعض ساعة!

أفلا يستولي علينا العجب جميعاً ، ونعترض قائلين : ان استراحة ساعة لعابر سبيل لا تستوجب كل هذا العناء والتعب!

لذلك ، فان الذين لا يؤمنون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، لا يرون لهذه الدنيا أي هدف وأنها فارغة وعبث ، وهذا القول كثيراً ما يصادفنا في كتابات الماديين ويكررونه إلى الحد الذي يقودهم إلى الانتحار ، نتيجة لاصابتهم بالتعب والملل من حياة لا هدف لها .

إن ما يعطي لهذه الدنيا هدفاً ويجعلها معقولة ومنطقية هو اعتبارها مرحلة متقدمة لعالم آخر ، وان ما فيها من مشكلات ووضع كل هذه المقدمات إنما الهدف منه أن يستفيد منه الانسان في مسيرة حياة خالدة .

كنا قد ضربنا بهذه المناسبة مثلاً الجنين في رحم أمه ، فلو كان له شيء من العقل والادراك ، ويقال له : ان الحياة التي تقضيها هناك ليس بعدها شيء ، لاعترض قائلاً : ما معنى أن أكون سجيناً في هذا المكان وفي هذا المحيط الضيق ، أطعم الدم ، مطوي الاطراف ، مرمياً في هذه الزاوية المظلمة ، ثم لا يكون بعد هذا شيء ، ما الذي استهدفه الخالق بهذا الخلق ؟

أما إذا أكدوا له بأن هذه الأشهر القليلة ليست سوى مرحلة عابرة يجري فيها إعدادك للخروج إلى عالم جديد وحياة أطول وفي دنيا هي

أوسع بكثير من دنياك الضيقة هـذه ، مضيئة ورائعـة ، وفيها نعم كثيـرة ، عندئذ يقتنع الجنين بأن الدورة التي يقضيها في رحم أمه ليست خالية من هدف ، وهو هدف جليل يستحق تحمل عناء هذه الفترة العابرة .

يقـول القـرآن المجيـد : ﴿ **ولقـد علمتم النشـأة الأولى فلولا تذكرون** ﴾[1] .

خلاصة القول : إن هذا العالم يصرخ بكـل كيانـه أن هناك عـالماً بعده ، وإلاّ لكانت هذه الدنيا لغواً وعبثاً لا طائل وراءه .

استمع إلى ما يقوله القرآن في ذلك : ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون** ﴾[2] .

أي لولا المعاد ـ الذي يعبر عنه القرآن بالرجوع إلى الله لكان خلق الانسان عبثاً .

وعليه ، فان فلسفة الخلق تقول : لا بد من وجود عالم آخر بعد هذا العالم .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية(٦٢) .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية(١١٥) .

فكر وأجب

١ ـ لماذا لا يمكن مقارنة صفات الله بصفات مخلوقاته ؟

٢ ـ ما الهدف من خلقنا ؟

٣ ـ ايمكن أن تكون هذه الحياة الدنيا هي الهدف من خلق الانسان ؟

٤ ـ ما الذي نتعلمه من المقارنة بين الجنين والحياة الدنيا ؟

٥ ـ كيف يستدل القرآن بخلق هذا العالم على وجود عالم آخر ؟

الدرس الثامن

بقاء الروح دليل على البعث

لا يعرف أحد منذ متى بدأ الانسان يفكر في وجود «الروح» وكل ما يمكن قوله هو ان الانسان أدرك منذ البداية أن هناك اختلافاً بينه وبين كائنات هذا العالم الأخرى : الاختلاف بينه وبين الصخرة ، والخشبة ، والجبل ، والصحراء ، والحيوانات .

كان الانسان قد جرب حالة النوم ، وكذلك حالة الموت ، كان يرى أن الانسان ، بدون أن يتغير شيء في جسمه وهيئته ، يطرأ عليه تبدل كبير في حالته أثناء النوم وعند الموت ، من هنا أدرك الانسان أن فيه «جوهراً» هو غير هذا الجسم الذي يراه .

وكان يرى أنه يختلف عن سائر الحيوانات ، لأنه كان يستطيع أن يقرر أمراً وينفذه بكل حرية وحسبما يتراءى له ، بينما الحيوانات كانت محكومة لغرائزها التي تسيطر على حركاتها وتجبرها عليها .

وعلى الأخص كان يرى مشاهد في عـالم النوم ، في الـوقت الذي كانت فيه أجهزة الجسم خامدة وجسده ملقى في احدى الزوايا . فأدرك من هذا أن هناك قوة غامضة تهيمن على كيانه ، فأطلق عليها اسم «الروح» .

وعنـدما وضـع العلماء أسس الفلسفـة ، وضعـوا «الـروح» كقضيـة فلسفية كبرى ضمن القضايا الأخرى ، ومن ثم راح الفلاسفة يبدون آراءهم عن ماهية «الروح» ، حتى بلغ تعداد تلك الآراء نحو ألف رأي ونظرية ، حسب قول بعض الفلاسفة الاسلاميين ، وتدور كلها حـول «الروح» ومـا يتعلق بها ، إن الكلام في هذا يطول ، غير ان الأهم الذي ينبغي أن يعرفه المرء يتعلق بالجواب عن هذا السؤال :

هل الروح مادة أم لا ؟ وبعبارة أخرى : هل هي مستقلة أم انها من خصائص الدماغ والاعصاب الكيمياوية والفيزياوية ؟

ثمة فريق من الفلاسفة الماديين يصرون على أن الروح والظاهرات الـروحية مـادية ، وأنهـا من خصائص خـلايا الـدمـاغ ، وعنـدمـا يمـوت الانسان ، تموت الروح معه ، بمثل الساعة التي نحطمها بضربـة مطرقـة فتتناثر اجزاؤها ، ويتوقف عملها على أثر ذلك .

وفي الطرف المقابل لهؤلاء يقف الفلاسفة الإلهيون ، ومعهم بعض الفلاسفة الماديين الذين يقولون بأصالة الروح ، يعتقد هؤلاء ان الروح لا تموت بموت الانسان ، بل تستمر في الحياة .

ولاثبات هذه المقولة ، أي اصالة الروح واستقلالها وبقائها يذكرون أدلـة معقدة كثيـرة ، لا يسعنا هنـا إلّا أن نـورد بعض أهمهـا وأوضحهـا

بعبارات بسيطة لكي يعيها شبابنا العزيز :

١ ـ لا يمكن حشر عالم كبير في محيط ضيق

افرض انك على ساحل البحر وخلفك جبال شاهقة نحو السمـاء ، والامـواج العاتيـة تصفع الصخـور بقوة وتـرتد عنهـا إلى البحر صـاخبة ، والصخور الضخمة عند سفح الجبـل تنبىء عن الغوغـاء في أعلى الجبل والسماء الزرقاء من فوق قمم الجبال تضج ليلاً عظمة وجلالاً .

تتطلع لحظة إلى هـذا المشهد ، ثم تغمض عينيـك وتسترجـع في ذهنك المشهد كما رأيته حجماً وعظمة .

لا شك ان هذه الخريطة الذهنية بكل حجمها وعظمتها تحتـاج إلى مكان ولا يمكن ان ترتسم على خـلايا الـدماغ الصغيـرة ، وإلاّ فان هـذه الخريطة الكبيرة يجب ان ترتسم على نقطة صغيرة ، في الوقت الذي نرى المنظر في خيالنا بحجمه الطبيعي .

يدل هذا على ان هنالك «جوهراً» غيـر الدمـاغ وخلايـاه هو الـذي يستطيع أن يحتفظ بكل مشهد وخريطة مهما كبر حجمها .

ولا شك ان هذا الجوهر لا بد أن يكون مـا وراء عالم المـادة ، إذ ليس في عالم المادة شيء يشبهه .

٢ ـ خصائص الروح الخارجية

إننا نعرف الكثير من الخصائص الفيزياوية والكيمياوية في أجسامنا ، فحركات المعـدة والقلب فيزيـاوية ، والتـرشحات والافـرازات وعصارات

المعدة كيمياوية ، وأمثال هذه كثيرة في جسم الانسان .

فإذا كانت الروح والفكر مـادية ونـاشئة من خـواص خلايـا الدمـاغ الفيزياوية والكيمياوية ، فلماذا نرى خواصها تختلف عن خواص الجسم .

إن الفكر والروح يربطاننا بالخارج ويخبراننا بما يحدث حولنا ، أما الخصائص الكيمياوية كالإفرازات والعصارات، والفيزياوية كحركات العين والقلب واللسان ، لا تملك مثل تلك الخصائص مطلقاً .

وبعبارة أخرى ، إننا نشعر جيداً بأننا مرتبـطون بعالمنـا الخارجي ، ونعرف الكثير عنه ، فهل دخل العالم الخارجي إلى داخلنا ؟ طبعاً ، لا ، إذن ، ما الحكاية ؟

لا شك إننا نرى خارطة العالم ، وإن خصيصـة الروح في الـظهور الخارجي هي التي تجعلنا ندرك العالم خارج وجودنا ، إنك لا تجد هذه الخصيصة في أي من الظاهرات الفيزياوية ولا في التفاعلات الكيمياوية في أجسامنا ، فتأمل!

وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، أن التعرف على الكـائنات الخـارجية العينية يتطلب نوعاً من الإحاطة العـامة ، وهـذه ليست من وظائـف خـلايا الدماغ ، فهذه إنما تتأثر بالعوامـل الخارجيـة ، مثل سـائر خـلايا الجسم الأخرى .

هـذا الاختلاف يـدل على أن هناك فعـالية أخـرى في الجسم غيـر التغيرات الفيزياوية والكيمياوية ، فعالية تجعلنا نحيط بخارج وجودنا ، وما هذه سوى الروح ، تلك الحقيقة التي تتجاوز عالم المادة وخصائصها .

٣ ـ الأدلة التجريبية على اصالة الروح واستقلالها

لحسن الحظ استطاع العلماء اليوم أن يثبتوا بطرق علمية وتجريبية مختلفة أصالة الروح واستقلالها ، وبذلك ردوا رداً حاسماً على الذين أنكروا استقلالية الروح وقالوا إنها من خصائص المادة :

١ ـ من تلك الدلائل التنويم المغناطيسي الذي أجريت عليه تجارب كثيرة جداً ، رآها بعضهم بأنفسهم وتأكدت لديهم والذين لم يروا ذلك نورد لهم شرحاً بسيطاً لتلك التجارب :

هناك أشخاص يستطيعون بطرق علمية خاصة ان (ينوّموا) أشخاصاً آخرين يطلق عليهم اسم (الوسطاء) ، فيقوم المنوم بتنويم الوسيط بالايحاء إليه عن طريق التركيز الفكري ونظرات العين وغير ذلك ، فيروح الوسيط في نوم عميق ، ولكنه لا يشبه النوم العادي بل هو نوم يظل خلاله الارتباط بين المنوم والوسيط قائماً ، فيحدثه ويتلقى منه الجواب .

وبعد أن يصل الوسيط إلى حالة النوم هذه ، يرسل المنوم روح الوسيط إلى نقاط مختلفة ، وقد تعود بأخبار جديدة ، أو تخبر عن أمور لم يكن الشخص النائم يعرف عنها شيئاً من قبل .

فهو مثلاً قد يتكلم بلغة لم يكن يعرفها من قبل ، وقد يستطيع ان يحل مسائل رياضية معقدة .

أو قد يكتب أموراً على صحائف موضوعة داخل صندوق مغلق بغير أن يفتحوه .

بل قد تظهر الروح نفسها احياناً بهيئة أشباح أو ظلال واضحة في

بعض جلسات التنويم المغناطيسي ، وأمثال ذلك من الأمور التي شرحناها في كتاب «عود ارواح» .

٢ ـ إحضار الأرواح ، أو الاتصال بـأرواح الأموات وإحضـارها إلى جلسات إحضار الأرواح ، مما يدل على اصالة الروح واستقلالها .

هنالك اليوم جمعيات روحية كثيرة منتشرة في مختلف انحاء العالم ، ويصدر عنها ـ كما يقول العالم المصري المعروف فريد وجدي ـ أكثر من ٣٠٠ مجلة وصحيفـة ، وتعقـد جلسـات لاحضـار الأرواح يشتـرك فيهـا شخصيات معروفة حيث تستحضر الأرواح ، فتقوم بأعمال خارقة للعادة .

وعلى الـرغم من أن هنـاك عـدداً من المشعـوذين الـذين يسيئـون استعمال هذه الأمور بغير معرفة ، فيخدعون الناس ويبتزون أموالهم ، فان حقيقـة وجود هـذه الحالـة التي يعترف بهـا العلماء المختصـون لا يمكن انكارها[1] .

هذه كلها أدلة على اصالة الروح واستقلالها وبقـائها بعـد الموت ، وهي خطوة مؤثرة نحو المعاد والحياة بعد الموت .

٣ ـ ثمة أحلام ومشاهد نراها في عالم النوم تتجسم خـلالها احيـاناً حوادث مستقبلية ، وقد نكشف احياناً عن أمور خفية إلى درجة لا يمكننـا معها ان نعتبرهـا من باب الاتفـاق والمصادفـات ، وهذا أيضـاً دليل على اصالة الروح واستقلالها .

---

(١) لمزيد من الاطلاع أنظر كتابي «عود ارواح» و«معاد وجهن پس ازمرگ» .

ومعظم الناس لا شك قد مرت بهم في حياتهم مثل هذه الاحلام الصادقة ، أو انهم في الاقل قد سمعوا بأن الحلم الذي رآه احد أصحابهم قد تحقق بحذافيره بعد مدة من الزمن ، الأمر الذي يدل على أن الروح تستطيع خلال نوم الانسان أن تتصل بعوالم أخرى وقد ترى بعض الحوادث التي ستقع في المستقبل .

جميع هذه الأمور تشير بوضوح إلى أن الروح ليست مادة وليست نتيجة خصائص دماغ الانسان الفيزياوية والكيمياوية ، بل هي حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة ، وإنها لا تموت بموت الجسد الذي كانت تحل فيه ، وهذا ما يمهد الطريق للقبول بمسألة المعاد وعالم ما بعد الموت .

فكر وأجب

١ ـ ما الاختلاف بين الفلاسفة الإلهيين وبعض الماديين في قضية الروح ؟

٢ ـ ما المقصود بعدم انطباق الكبير على الصغير باعتباره دليلاً على اصالة الروح ؟

٣ ـ ماذا تعرف عن التنويم المغناطيسي ؟

٤ ـ ماذا نقصد باستحضار الأرواح ؟

٥ ـ كيف تكون الأحلام الصادقة دليلاً على اصالة الروح واستقلالها ؟

الدرس التاسع

المعاد الجسماني والروحاني

من المسائل المهمة الأخرى التي تبرز في موضوع المعاد هو السؤال عما إذا كان المعاد «روحانياً» فقط ، أم انه يكون بعودة الروح والجسم معاً في العـالم الآخر ، وان الانسـان ، بروحـه وجسمـه نفسيهمـا إنمـا على مستوى افضل وارفع ، سوف يواصل حياته في العالم الآخر .

كان فريق من الفـلاسفة القـدامى يعتقد بـأن المعاد يكـون بالـروح فقط ، لأنهم كـانوا يعتقـدون بأن الجسم تـركيب خاص يختص بـالعـالم الدنيوي فحسب ، وبأن الانسان يستغني عنه في العالم الآخر ، وانه يهرع إلى العالم الآخر بدون جسمه .

إلا أن كبار العلماء والفلاسفة الاسلاميين يعتقدون أن عودة الانسان إلى العالم الآخر يكـون بروحـه وبجسمه معـاً ، صحيح ان هـذا الجسم يتحـول إلى تـراب بعـد المـوت ، وان تـرابـه يتشتت في أرجـاء الأرض

ويضيـع ، ولكن الله القادر العـالم يجمع كـل ذرات الجسد يـوم القيامـة ويضفي عليها لباس الحياة مرة أخرى ، وهذا هو «المعاد الجسماني» لانهم يرون أن عودة الروح أمر لا شك فيه ، ولما كان الجدل يدور حـول عودة الجسم نفسه ، فقد عبروا عن ذلك بـ «المعاد الجسماني» .

على كل حال ، إن الآيات القرآنية النازلة بهذا الخصـوص ، وهي كثيرة ومتنوعة ، تشير كلها إلى «المعاد الجسماني» .

القرآن والمعاد الجسماني :

سبق أن تحدثنا عن الاعـرابي الذي جـاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بقطعة عظم بالية قائلاً : ﴿ **من يحيي العظام وهي رميم** ﴾ ؟

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله بأمر من الله : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون** ﴾ ، كما جاء في آخر سورة «يس» .

وفي مـوضع آخـر يقول القـرآن : ﴿ **ونفخ في الصـور فإذا هم من الأجـداث إلى ربهم ينسلون** ﴾[١] ، ﴿ **خشعـاً أبصـارهم يخـرجـون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾[٢] .

ونحن نعلم إن الأجداث ، وهي القبور ، تكون موضع الأجساد التي أصبحت تراباً ، وليست موضع الأرواح .

---

(١) سورة يس ، الآية(٥١) .
(٢) سورة القمر ، الآية(٧) .

لقد كان أكثر إنكار منكري المعاد يستند إلى عدم قدرتهم على تصور امكان جمع التراب المتناثر في ارجاء الأرض وإعادة الحياة إليه : ﴿ **وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد** ﴾[٣] .

فيرد عليهم الله قائلاً : ﴿ **أوَلم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير** ﴾[٤] ، كان عرب الجاهلية يقولون : ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون** ﴾[٥] .

كل هذه الآيات القرآنية وغيرها تدل دلالة واضحة على أن رسول الاسلام صلى الله عليه وآله قد تحدث عن «المعاد الجسماني» لان تعجب المشركين الجاهلين كان منصباً على هذا الجانب من الموضوع ، ولذلك بادر القرآن بايراد نماذج من صور المعاد الجسماني في عالم النبات وغيره مما يراه الانسان بعينه ، كأمثلة على الخلق الأول وعلى قدرة الله .

وبناءً على ذلك فالإنسان إذا كان مسلماً وقارئاً للقرآن ، لا يمكن أن ينكر المعاد الجسماني ، لأن إنكاره ، في نظر القرآن ، إنكار للمعاد نفسه .

الدلائل العقلية :

إذا تجاوزنا عن ذلك ، فان العقل يقول إن الروح والجسد ليسا حقيقتين منفصلتين ، فهما مترابطان بعض ببعض بالرغم من استقلالهما

---

(٣) سورة السجدة ، الآية(١٠) .
(٤) سورة العنكبوت ، الآية(١٩) .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية(٣٥) .

بعض عن بعض ، فهما يتربيـان معاً ، ويبلغـان التكامـل معاً ، ولا شـك إنهما لا يستغنيان بعض عن بعض لإدامة الحياة الخالدة .

وإذا ما انفصلا بعض الوقت في البرزخ (الزمن الفاصل بين الدنيـا والآخرة) فان ذلك لا يمكن أن يكون دائمياً ، فمثلما ان الجسد بغير الروح نـاقص ، كذلـك الـروح بغيـر الجسـد نـاقصـة ، إن الـروح هي الآمـرة والمحركة ، والجسم هو المطيع وهو آلة التنفيذ ، فما من أمر يستغني عن المأمور ، وما من عامل يستغني عن آلة العمل .

ولكن بما أن الروح تكون يوم القيامة في مرتبة أسمى وأرفع فلا بد للجسد أيضاً أن يكون قد تكامل بالنسبة نفسها ، وهكذا سيكون كامـلاً ، أي ان الجسد يوم القيامة سيكـون خاليـاً من كل العيـوب والنواقص التي كانت فيه في هذه الدنيا .

على كل حال ، فان الروح والجسد قد ولدا معاً ويكمـل أحدهمـا الآخر ، وإن المعاد لا يمكن أن يكون جسمانياً فقط ولا روحانياً فقط .

وبعبارة أخرى ، تدل دراسة كيفية ظهور الجسد والروح وعلاقة كل منهما بالآخر على أن المعاد يكون لهما كليهما .

ثم إن قانون العدالة يقول : من جهة أخـرى : إن المعاد يجب أن يكون لكليهما ، لأن الانسان الذي ارتكب معصية في الدنيـا قد ارتكبهـا بالجسد والروح معاً ، وإذا كان قد اتى بحسنة فقد أتى فقـد أتـى ، وبناءً على ذلك فالعقـاب والثواب يجب كـذلك أن يقعـا على الجسد والـروح

معاً ، إذ لو كان المعاد للجسد بمفرده ، أو للروح بمفردها ، لما تحققت العدالة .

أسئلة حول المعاد الجسماني :

وضع العلماء بعض الاسئلة بشأن المعاد الجسماني نورد بعضها استكمالاً للبحث :

١ ـ تؤكد تجارب علماء العلوم الطبيعية أن جسم الانسان يتبدل خلال عمره عدة مرات ، فهو أشبه بحوض للسباحة حيث يصب فيه الماء من جهة وينسرب منه تدريجياً من جهة أخرى ، وبديهي أن ماء الحوض يكون قد تبدل بعد مدة من الزمن .

وهذا نفسه يحدث بالنسبة لجسم الإنسان ويتم مرة في نحو سبع سنوات ، وبناءً على ذلك فان أجسامنا تتبدل عدة مرات خلال أعمارنا .

هنا يتبادر هذا السؤال إلى الذهن : أي هذه الأجساد هو الذي يعود يوم القيامة ؟

في الإجابة على هذا السؤال نقول : آخرها ، كما قرأنا في الآيات السابقة التي جاء فيها إن الله يحيي الانسان من عظامه وتراب جسده الذي دفن تحت التراب ، يستفاد من هذا أن جسده الذي مات به هو الذي يحييه الله يوم القيامة ، كما إن تعبير : ﴿ **إن الله يبعث من في القبور** ﴾[٦] .

يعني إنه يبعث الجسد الذي مات ودفن في القبور .

---

(٦) سورة الحج ، الآية(٧) .

ولكن هذا الجسد الأخير يحمل جميع الآثار والخصائص التي كانت للإنسان في أجساده الأخرى طوال حياته ، وبتعبير آخر ، إن الاجساد السابقة التي تتلف تدريجياً تنقل إلى الجسد التالي جميع آثارها وخصائصها ، وعليه فان الجسد الأخير يكون قد ورث جميع صفات الأجساد السابقة ، وبذلك يكون خليقاً بتطبيق قانون العدالة في الثواب والعقاب عليه .

٢ ـ يقول بعضهم : إننا إذا ما أصبحنا تراباً وتحولت ذرات أجسادنا إلى تراب ، وأصبحت هذه غذاء لانواع النباتات والاشجار ودخلت في الاثمار وأكلها أناس آخرون ، ومن ثم أصبحت أجزاء من أجسادهم ، فكيف تعود هذه إلى الحياة يوم القيامة ؟ وهذا هو ما يعبرون عنه في الفلسفة وعلم الكلام بـ«شبهة الآكل والمأكول» .

على الرغم من أن الاجابة عن هذا السؤال تتطلب الكثير من البحوث ، فاننا سنحاول أن نبسط ذلك بالقدر اللازم ، فنقول : « ليس هناك شك في ذرات جسد أحد الاشخاص التي غدت جزءاً من جسد شخص آخر تعود إلى جسد صاحبها الأول ، وهذا واضح من الآيات المذكورة سابقاً » .

ولكن المشكلة التي تبرز هنا هي أن جسد الشخص الثاني يصبح ناقصاً ، ولكن الحقيقة هي انه لا يصبح ناقصاً ، بل يصبح أصغر ، لأن تلك الذرات كانت قد انتشرت في جميع اجزاء الجسد ، فعندما استرجعت منه صغر ونحف بنسبة ما أخذ منه .

وعليه فلا الجسد الأول يزول ولا الجسد الآخر ، وكل ما في الأمر

هو ان الجسد الثاني يصبح صغيراً ، وليس في هذا مشكلة ، لأننا نعلم ان الأجساد يوم القيامة تتكامل ويزول عنها كل نقص ، بمثلما يكبر الطفل وينمو ، أو كما ينمو لحم جديد بمكان الجرح ، بغير أن تتبدل شخصية الطفل أو الجريح ، فالأجساد الصغيرة والناقصة تحشر إلى عالم الكمال يوم القيامة كاملة غير منقوصة .

وهكذا لا تبقى مشكلة بهذا الشان ، فتأمل!

(للمزيد من التوضيح يمكنكم الرجوع إلى كتاب «معاد وجهان پس از مرگ») .

* * *

فكر وأجب

١ ـ هل حياة الانسان يوم القيامة تشبه حياته في هذه الدنيا ؟

٢ ـ هل نستطيع ان ندرك في هذه الدنيا كيف يكون الثواب والعقاب يوم القيامة ؟

٣ ـ هل للنعم في الجنة وللتعذيب في الجحيم جوانبها الجسمية فقط ؟

٤ ـ ما المقصود من تجسد الأعمال ، وكيف يستدل القرآن عليها ؟

٥ ـ ما المشكلات التي يحلها الاعتقاد بتجسد الأعمال في بحث المعاد ؟

الدرس العاشر



الجنة والنار وتجسد الاعمال

كثيراً ما يتساءل الناس : هل عالم بعد الموت يشبه هذا العالم ، أم أنهما مختلفان ؟ ماذا عن الثواب والعقاب والقوانين السائدة فيه ، هل هي مثل ما في هذه الدنيا ؟

نقول في الجواب : ان هناك شواهد كثيرة تدل على أن العالم الآخر يختلف كثيراً عن هذا العالم ، بحيث إن ما نعرفه عن العالم الآخر يجعله يبدو لنا كالشبح الذي نراه من بعيد .

يحسن بنا أن نعود إلى مثال «الجنين» الذي ضربناه من قبل ، فبالقدر الذي يوجد من بعد بين ، «عالم الجنين» وهذا العالم يكون البعد بين عالمنا هذا والعالم الآخر ، أو أكثر .

ولو كان للجنين في الرحم عقل وأراد ان يكون له تصور صحيح عن العالم الخارجي بالنسبة له ، عن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم

والجبال والغابات والبحار ، لاستحال عليه ذلك ، فالجنين الذي لا يتعدى عـالمـه رحم أمـه المحـدود ، لا يمكن ان تعني الشمس والقمـر والبحـر والامواج والريـاح والنسائم والـزهور ومختلف مـظاهر الجمـال في عالمـه الخارجي أي مفهوم محدد بالنسبة له ، إن قاموسه اللغوي لا يتعدى بضع كلمات ، ولو ان احداً شاء ان يكلمه من خارج رحم أمـه (بالفـرض) لما فهم منه كلاماً .

فاختلاف عالمنا المحدود هذا مع العالم الواسع الآخر يكون بهـذه النسبة أو أكثر ، وعليه ، فليس بامكاننا أن نحمل أي تصور عما هناك من نعم ونقم وجنة ونار وغير ذلك .

وقد جاء في حديث شريف عن الجنة : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» .

وقد جاء هذا المعنى نفسه في القـرآن الكريم ، إذ يقـول : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانو يعملون ﴾**[1] .

كمـا ان النظم السـائدة هنـاك مختلفة عمـا في هذا العـالم أيضاً ، فمثـلاً ، الشهود على أعمـال الانسان وأفعـاله هم اعضـاؤه ، يـده ورجله وجلده وحتى الأرض التي ارتكب العمل عليها ، يقول القرآن : **﴿ اليـوم نختم على أفـواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشهـد أرجلهم بمـا كـانـوا يكسبون ﴾**[2] ، و**﴿ قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي**

---

(١) سورة السجدة ، الآية(١٧) .
(٢) سورة يس ، الآية(٦٥) .

أنطق كل شيء ﴾[3] .

كان تصور هذه المسائل غير متيسر في الماضي ، ولكن بعد تقدم العلوم وامكان تسجيل المشاهد والاصوات لم يعد هناك ما يدعو إلى العجب ، على كل حال ، على الرغم من أننا ما نزال غير قادرين على أن نرى من شؤون العالم الآخر سوى ما يشبه الشبح البعيد ، ولكن الذي ندريه هو أن العقاب والثواب في العالم الآخر يشملان الجوانب الروحانية والجسمانية ، وذلك لأن المعاد يشمل كلا الجسم والروح يقول القرآن : **﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . . . ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾**[4] .

وفيما يتعلق بالمثوبات المعنوية يقول القرآن : **﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾**[5] .

نعم ، إن ادراك أهل الجنة أن الله راض عنهم وأن خالقهم قد تقبلهم يخلق فيهم احساساً بالفرح والبهجة واللذة لا يمكن أن يقارن به شيء ، كما أن أهل النار يحسون ، بالإضافة إلى العذاب الجسماني ، بغضب الله ورفضه لهم ، وهو أشد من كل عذاب .

---

(٣) سورة فصلت ، الآية(٢١) .
(٤) سورة البقرة ، الآية(٢٥) .
(٥) سورة التوبة ، الآية(٧٢) .

تجسد الأعمال

يستفاد من كثير من الآيات القرآنية أن أعمالنا يوم القيامة تتجسد حية في صور مختلفة وتصاحبنا ، وأن واحداً من أنواع العقاب والثواب المهمة هو هذا التجسد نفسه ، فالظلم يتجسد بصورة سحابة سوداء تحيط بالظالم ، كما جاء في حديث شريف : «الظلم هو الظلمات يوم القيامة» .

وجاء في القرآن : **﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾**[٦] ، و**﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ﴾**[٧] ، و**﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾**[٨] ، **﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾**[٩] .

وهكذا سائر الأعمال الأخرى تتجسد بما يناسبها .

إننا نعلم اليوم أن العلم يقول : «المادة لا تفنى ، وإنما هي تتغير من مادة إلى طاقة ، فالأفعال والأعمال التي لا تخرج عن هاتين الحالتين ، تبقى خالدة ابداً» .

إن في القرآن آية صغيرة عن يوم القيامة تهز الانسان هزاً :

---

(٦) سورة النساء ، الآية(١٠) .
(٧) سورة الحديد ، الآية(١٢) .
(٨) سورة البقرة ، الآية(٢٧٥) .
(٩) سورة آل عمران ، الآية(١٨٠) .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ ، والحقيقة ان كل ما يصيبهم إنما هو بسبب اعمالهم ، ولذلك يضيف إلى قوله : **﴿ ولا يظلم ربك احداً ﴾**[10] ، وفي موضع آخر من القرآن نقرأ عن يوم القيامة : **﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾**[11] .

لاحظ ان الكلام يدور على «رؤية» الأعمال .

إذا قلنا ان أعمالنا في هذه الدنيا ، صغيرها وكبيرها ، وحسنها وسيئها ستبقى محفوظة ولا تفنى ، وستكون معنا يوم القيامة فان ذلك لا بد ان يكون انذاراً لنا جميعاً لكي نتجنب الأعمال السيئة ونعمل الصالحات أكثر .

من العجيب ان هناك اليوم أجهزة قد اخترعوها تستطيع أن تجسد لنا جانباً من هذا الموضوع في هذه الدنيا ، يقول احد العلماء المعاصرين : «لقد أمكن استعادة الأمواج الصوتية التي صدرت قبل ألفي سنة من العمال المصريين الذين كانوا يشتغلون بعمل الفخار ، بحيث يمكن سماعها ، ففي المتحف المصري أوان فخارية صنعت قبل ألفي سنة على الأجهزة اليدوية الخاصة بذلك ، وفي اثناء صنعها انتقلت الأمواج الصوتية من أيدي العمال إلى تلك الأواني ، واليوم استطاع العلماء أن يعيدوا الحياة إلى تلك الأمواج بحيث اننا نسمعها بآذاننا» .

---

(١٠) سورة الكهف ، الآية(٤٩) .
(١١) سورة الزلزلة ، الآيات(٦ ـ ٨) .

على أي حال إن كثيراً من الأسئلة التي تـدور حول مسـألة المعـاد والخلود وعقاب المسيئين وثواب المحسنين الواردة في القرآن المجيـد ، يمكن أن يجاب عليها بأخذ عملية «تجسيد الأعمال» بنظر الاعتبار ،وذلك باعتبار أن كل عمل حسن أو سيء يترك أثره في أرواحنا ، وأن ذلك الأثر باق معنا لا يفارقنا .

فكر وأجب

١ ـ هل تشبه حياة الانسان يوم القيامة حياته في هذه الدنيا من جميع النواحي ؟

٢ ـ هل نستطيع أن نفهم تماماً في هذه الـدنيا مـا في يوم القيامة من ثواب وعقاب ؟

٣ ـ هل النعم في الجنة والعذاب في النار جسمانية فقط ؟

٤ ـ ما المقصود بتجسد الاعمال ، وما الأدلة القرآنية على ذلك ؟

٥ ـ كيف يجيب الاعتقاد بتجسد الاعمال عن الأسئلة التي تسأل حول موضوع المعاد ؟

الفهرس